التفسير المبين

أَلَّفَهُ وَكَتَبَهُ

اَلفقِير إِلى عَفْو رَبِّه

الشَّيْخ الدُّكْتور / عَبْد الرَّحْمن بْن حسن بْن نَفِيسَة

صَاحِب مُؤَسسَة اَلبُحوث والدِّراسات الفقْهيَّة وَعلُوم اَلقُرآن اَلكرِيم (الوقْفيَّة) وَمَجلَّة اَلبُحوث الفقْهيَّة المعاصرة

غفر الله لَه ووالديْه وذرِّيَّته وإخوانه والْمسْلمين

المجلد الثالث

ح مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النفيسه ، عبد الرحمن بن حسن

التفسير المبين. / عبد الرحمن حسن النفيسه . - الرياض ، ١٤٢٩هـ

٦مج

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٠٣٠-٠-٧ (مجموعة)

٩٧٨-٦٠٣-٩٠٠٣٠-٣-٨ (ج٣)

١- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٢٩/٣٦١٤

رقم الايداع : ١٤٢٩/٣٦١٤

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٠٣٠-٠-٧ (مجموعة)

٩٧٨-٦٠٣-٩٠٠٣٠-٣-٨ (ج٣)

CS CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

جميع اَلحُقوق مَحفُوظة

لـ « مُؤَسسَة اَلبُحوث والدِّراسات الفقْهيَّة

وَعلُــوم اَلقُرآن اَلكرِيم الوقْفيَّة »

المَمْلكة العربيَّة السُّعوديَّة – الرِّيَاض

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة

مدنية، وآياتها مئة وعشرون آية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾.

بيان الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين أن يوفوا بعقودهم، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «يعني: بالعهود»(١).

والعقود على نوعين:

النوع الأول: ما عقده الله عليهم من التكاليف، وهي عبادته وحده، وتحليل ما أحله، وتحريم ما حرمه في كتابه وما جاء به رسوله محمد-ﷺ-.

النوع الثاني: عقود بين العباد أنفسهم فيما يتعلق بأمور دنياهم: كالمبايعات والأمانات ونحوها، فالوفاء بالعقود في هذين

---

(١) التفسير، (٨/٦).

النوعين مما أمر الله به، وإن كان المراد في هذه الآية هو عقود الله؛ لأن الأمر انصب على حل بهيمة الأنعام.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ﴾ المراد بها: الإبل والبقر والغنم، وغير ذلك مما يدخل في الحل المبين في السنة، وهذا نفي لما كان للعرب في الجاهلية من أعراف فاسدة في الأنعام، كالوصيلة والسائبة والبحيرة.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والمراد به: ما سيأتي في الآية بعدها من الميتة والدم، وما ورد في السنة من تحريم كل ذي ناب من السباع(١).

﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: أن كل ما كان صيدًا فهو حلال لكم في الحل دون الحرم؛ لأن صيده محرم في الإحرام والإحلال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: أنه-جلَّ ذكره-حكم بهذا، فلا معقب لحكمه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح، باب: أكل كل ذي ناب من السباع، (رقم ٥٥٣٠)، ومسلم في كتاب الصيد، باب: تحريم اكل كل ذي ناب من السباع كل ذي مخلب من الطير، (رقم ١٩٣٢)، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ-رضي الله عنه-أَنَّ رَسُولَ اللهِ-صلى الله عليه وسلم-«نَهَى عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ».

أحكام وفوائد الآية:

- أن هذه السورة اشتملت على ستة عشر نداءً إيمانيًّا، كلُّ نداءٍ يحملُ للمؤمنين توجيهاً وإرشاداً فيه صَلاحُهم وفَلاحُهم في الدارَين.
- أن الوفاء بالعقود واجب وجوب عين على من دخل فيها، فهو في العبادات واجب على كل مكلف من ذكر وأنثى، وهو في المعاملات واجب على كل طرف فيها، والعقد يكون بالقول والفعل، فإذا قال المرء قولًا يقصد منه الإقرار بعقد أو عهد لزمه عقده، وقد يسمى هذا نذرًا، فمن نذر-مثلًا-أن يتصدَّق بصدقة إذا رزق بولد لزمه هذا النذر، والعقود يجب أن تكون متفقة مع كتاب الله وسنة رسوله محمد-ﷺ-، والأصل في ذلك قوله-عليه الصلاة والسلام-: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَت فِي كِتَابِ اللَّهِ؟، مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَلَيْسَ لَهُ، وَإِنِ اشْتَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ»(١).
- تحريم الصيد في الحرم في الإحرام والإحلال، وما لم يكن صيدًا فهو حلال في الحل والحرم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب: المكاتب، وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب الله،(رقم ٢٧٣٥)، ومسلم في كتاب العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق، (رقم ١٥٠٤).

- تحريم القتال في الأشهر الحرم، ولكن هذا نسخ بقول الله-تعالى-: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[(١)] [التوبة: ٥].

- أنه لم يبين في قوله-تعالى-: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ ما هذا الذي يتلى عليهم المستثنى من حلية بهيمة الأنعام؟، ولكنه بيَّنه بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، فالمذكورات في هذه الآية الكريمة كالموقوذة والمتردية، وإن كانت من الأنعام فإنها تحرم بهذه العوارض.

- حل أكل بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم.

- تحريم صيد البر بعد الإحرام، وإباحة صيده بعد التحلل منه .

- فَضْلُ الله وتيسيره على عباده؛ إذ وَسَّعَ لهم نطاقَ المباح، وضَيَّقَ دائرة المحرمات، فهي مقصورة على ما فيه ضررٌ للنفس، أو إضرارٌ بالآخرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ

(١) ينظر: تفسير الضحاك، (١ /٣١٥)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٤ /٦١).

يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾.

بيان الآية:

﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تحلُّوا حرمات الله، وهي جميع ما أمركم به، ونهاكم عنه، قال-تعالى-: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ والمراد به: جميع الأشهر الحرم، وهي أربعة: رجبٌ، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، والمراد: ما كان يفعله أهل الجاهلية من النسيء في الديون.

وأخرج البخاري عَنْ أَبِي بَكْرَةَ-رضي الله عنه-قَال: خَطَبَنَا النَّبِيُّ-صلى الله عليه وسلم-يَوْمَ النَّحْرِ، قَال: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟»، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟»، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ:

«أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟»، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(١).

﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ الهدي: كل ما يتقرب به إلى الله، كالهدي في الحج، أو الأضحية، أو العقيقة، والقلائد: جمع قلادة، وهي ما يوضع في عنق الهدي؛ ليُعلَم أنه هدي، وأخرج البخاري عن المسور ومروان قالا: «خَرَجَ النَّبِيُّ -ﷺ- زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ مِنَ المَدِينَةِ فِي بِضْعَ عَشْرَةَ مِائَةً مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِذِي الحُلَيْفَةِ، قَلَّدَ النَّبِيُّ -ﷺ- الهَدْيَ، وَأَشْعَرَ، وَأَحْرَمَ بِالعُمْرَةِ»(٢).

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: ولا يجوز التصدي لِـمَنْ قصد البيت الحرام بمنعه من أداء النسك بعد أن شرع فيها ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قد يكون المراد من الفضل طلب الأجر من مجيئهم إلى

---

(١) صحيح البخاري، (٣/ ٦٧٠)، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، (رقم ١٧٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب من أشعر، وقلَّد بذي الحليفة ثم أحرم، (رقم ١٦٩٤/ ١٦٩٥).

البيت الحرام، وقد يكون القصد التجارة ﴿وَرِضْوَانًاۚ﴾ أي: يبتغون رضا ربهم بسبب حجهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ﴾ المراد: أنكم إذا فرغتم من الإحرام، وتحللتم منه، فقد جاز لكم ما حرم عليكم من الصيد

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ﴾ المراد: ألا يحملنكم بغض الذين صدوكم عن المسجد الحرام-أي يوم الحديبية-أن تعتدوا، وتتخلوا عن العدل الذي أمركم الله به.

وفي هذا روي: «أنه لما صُدَّ رسول الله-ﷺ-وأصحابه عن الوصول إلى بيت الله عام الحديبية صعب ذلك على الصحابة، فلما مر بهم بعض من المشركين قاصدين الحرم قالوا: لم لا نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم من قبل؟، فأنزل الله هذه الآية»(١).

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ فيه أمر من الله لعباده المؤمنين أن يكون تعاونهم على البر، والمحبة، وفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ وهذا نهي لهم عن التعاون

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب نزول القرآن بدون سند، (ص٣٣٤)، وأسنده ابن كثير من طريق ابن أبي حاتم، وعزاه إليه في تفسيره، (تفسير ابن كثير ٢/١٢)، لكنه مرسل.

على الباطل والمحرمات، أو الاعتداء على غيرهم بالظلم ونحوه؛ وشاهده: قول رسول الله-ﷺ-: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»(١).

وعن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله-ﷺ- عن البر والإثم؟، فقال: «البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطّلع الناس عليه»(٢).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فيه وعيد لمن أحلّ شعائر الله، وتعاون على الإثم والعدوان.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب احترام شعائر الدين كلها، وهذا يقتضي أداء الواجب، وترك المحرم، كما قال-عز وجل-: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].
- تحريم قتال المشركين في الأشهر الحرم، كما قال-عز وجل-: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، (رقم ١٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، (٤/ ١٩٨٠)، (رقم ٢٥٥٣).

وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾ [التوبة: ٥].

- نسخ هدي المشركين، وما يقلدون به هديهم، فلا يسمح لهم ولا لهديهم بدخول البيت الحرام، وإن كانوا متقلدين بلحاء شجر الحرم كما كانوا يفعلون.

- أن بغض الإنسان لعدوه لا يبيح له الاعتداء عليه بغير حق؛ لأن الإسلام دين أمن وسلام، وقد حرم الله الاعتداء في آيات كثيرة من كتابه المبين، منها: قوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقوله-جلَّ ثناؤه-: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

- وجوب التعاون بين الأُمة على البر والتقوى، وهذا يشمل إقامة شرع الله، وتحريم التعاون على الإثم والعدوان، وهذا يشمل كل ما يؤثر على الدين.

- أن شرائع الإسلام تهدف إلى تأليف القلوب، وتوحيد الجهود، وتحقيق الخير للإنسانية، وتلك رسالة الإسلام، رسالة الخير والرحمة للإنسانية، والنهوض بها.

- أن تكرار الأمر بتقوى الله-تعالى-لترسيخها في القلوب، فينبغي أن يكون المؤمنُ تقيًّا وعوناً لغيره على تقوى الله، وينبغي

التواصي بذلك؛ فالتقوى وصية الله للأوَّلِين والآخرين.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣﴾.

بيان الآية:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أي: كل ما مات من الإبل أو البقر أو الغنم، وكل ما أبيح أكله دون تذكية شرعية ﴿وَٱلدَّمُ﴾ أي: كل ما خرج من هذه الحيوانات قبل ذبحها أو بعده من الدم المسفوح ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وهو الحيوان المعروف بقذارته.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: كل حيوان أو طير ذكر عليه عند ذبحه اسم غير اسم الله، سواء كان ذلك لنبي، أم رسول، أم ولي، أم

شيخ، أم صنم، أم أي اسم آخر.

﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾ أي: البهيمة أو الطير الذي يموت خنقًا، كما هو الحال في البلاد التي تستعمل الخنق أو الصعق في الذبح ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ وهي البهيمة التي تقذف بحجر أو عصا أو نحو ذلك حتى تموت ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ أي: البهيمة التي تسقط من علو المكان إلى أسفله فتموت ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ المراد بها: البهيمة التي تُنطح، أو تتصارع مع بهيمة أخرى، فتموت قبل تذكيتها ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: كل ما افترسه ذو ناب من الحيوان كالنمر، أو الذئب، أو الأسد.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ استثناء من الحكم، فكل ما أمكن تذكيته من هذه البهائم التي تعرَّضت للخنق وغيره تعد حلالًا إذا كانت روحها لم تمت، وشاهده: ما أخرجه البخاري: أن جارية لكعب بن مالك كانت ترعى غنماً بسلع، فأُصيبت شاة منها، فأدركتها، فذبحتها بحجر، فسُئل النبي -ﷺ-، فقال: «كلوها»[(١)].

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ هذه النصب كانت حجارة حول

---

(١) صحيح البخاري، (٩/٥٤٨)، كتاب الذبائح، باب ذبيحة المرأة والأمة، (رقم ٥٥٠٥).

الكعبة، وكان العرب في الجاهلية يذبحون عندها، ويضعون اللحم عليها تبركًا بها، فحرم الله هذا الفعل ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ وهي القداح، فقد كان العرب في جاهليتهم إذا أراد أحدهم السفر للتجارة، أو الغزو، أو أي أمر من أمور الدنيا ضرب بالقداح المكتوب على بعضها: «أمرني ربي»، وعلى بعضها الآخر: «نهاني ربي»، وبعضها مجرد من الكتابة، فإن ظهر له الأمر عزم على فعله، وإن ظهر له النهي توقف، وإن خرج المجرد من الكتابة أعاد الضرب مرة أخرى[1]؛ فسمي هذا استقسامًا؛ لأنهم كانوا يستقسمون به ما يريدون من أمور الدنيا.

﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾ أي: أن هذه المحرمات التي ذكرت يعد ارتكابها خروجًا عن الطاعة، وتعدِّيًا على ما حرمه الله.

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ إخبار من الله للمؤمنين أن الكافرين يئسوا من رجوع المؤمنين عن دينهم الإسلام؛ فقد دخل المسلمون مكة، وهزموا الوثنية، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فأنزل الله على عباده قوله العزيز: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]،

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، (٤/١١٩٨).

فلم يبق للكافرين في ذلك اليوم-يوم فتح مكة، أو ما سيأتي بعده من الأيام-إلا التسليم، إما بالدخول في دين الله؛ ليكونوا بذلك من المسلمين، أو ليلقوا جزاءهم الذي وعدهم الله به.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ﴾ أي: يا أيها المسلمون! لا تخشوا الكافرين، فإن النصر من عندي، فأنا القادر على نصركم وعزتكم إذا حافظتم على دينكم.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هذه من نعم الله العظيمة على هذه الأُمة، فقد كمل لها دينها الذي ارتضاه الله لها، وجعلها به أُمة وسطًا بين الأُمم وخيرها، وجعل رسولها خاتم النبيين وشفيع الناس يوم القيامة عند رب العالمين؛ ذلك أن رسول الله-ﷺ-لما كان في المدينة توالت عليه أحكام الله من بيان الحلال وبيان الحرام، فلما حج رسول الله-عليه الصلاة والسلام-حجة الوداع نزلت عليه هذه الآية في عرفات سنة عشر، وهو واقف عصر يوم الجمعة على ناقته البيضاء في صعيد عرفات، فكانت هذه آخر آية-كما قيل-، ولم ينزل بعدها حكم.

وقد روى البخاري في صحيحه: أن اليهود قالت لعمر: إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدًا، فقال عمر: «إني أعلم

حيث أنزلت، وأين أنزلت؟، وأين رسول الله -ﷺ- حين أنزلت؟، يوم عرفة، وأنا -والله- بعرفة»(١).

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي: بفتح مكة ودخولها، كما قال -عز وجل-: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، فأصبحت مكة آمنة، وأنتم فيها آمنون، وتطهَّرت من الأوثان، وأصبحت منارة للمسلمين، فهذا من تمام نعمة الله، وقد يراد بإتمام النعمة أنه ليس هناك من نعمة عليكم أتم من نعمة الإسلام.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أي: هذا هو الدين الذي رضيته لكم، بمعنى اخترته لكم أنه لا دين أعظم من هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ لما بيَّن الله ما حرَّم على عباده من أكل الميتة وما في حكمها من بهيمة الأنعام يسَّر عليهم رحمة بهم، فأباح لهم الأكل منها، عندما يكونون في حال الاضطرار، كحال المجاعة مما يكون فيه خطر على أنفسهم، وشاهده من السنة: ما أخرجه الإمام

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله -تعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، (رقم ٤٦٠٦)، ومسلم في كتاب التفسير، (رقم ٣٠١٧).

أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله! إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال-عليه الصلاة والسلام-: «إذا لم تصطبحوا، ولم تغتبقوا، ولم تحتفوا بقلًا فشأنكم بها»(١).

أما الأصل العام في الرخصة فهو قول رسول الله-عليه الصلاة والسلام-: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته» (٢)، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ يعني: في مَجَاعَةٍ»(٣) ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: غير مائل له، كقوله: ﴿ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-: «يَعْنِي: إِلَى مَا حَرَّمَ مِمَّا سَمَّى فِي صَدْرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ يَقُولُ: غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ لِإِثْمٍ»(٤).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر لعباده، ويرحمهم لتناولهم

---

(١) مسند الإمام أحمد، (٣٦/٢٢٧)، (رقم ٢١٨٩٨)، وأخرجه الدارمي في كتاب الأضاحي، باب: في أكل الميتة للمضطر، (رقم ١٩٩٦)، والحاكم في المستدرك، (٤/٢٣٠)، (رقم ٧٢٣٦)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي فقال: «فيه انقطاع».

(٢) أخرجه أحمد في المسند، (١٠/١٠٧)، (رقم ٥٨٦٦)، وابن خزيمة، (رقم٩٥٠)، وابن حبان، (الإحسان ٢٧٤٢)، قال النووي: «إسناده جيد»، (خلاصة الأحكام ٢٥٤٩)، وصححه الألباني، (صحيح الجامع ٢٧٦٧).

(٣) التفسير، (٨/٩٣).

(٤) التفسير، (٨/٩٤).

المحرمات بسبب اضطرارهم.

أحكام وفوائد الآية:

- تحريم أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذبح على النصب، فهذه عشر محرمات، حرم الله على عباده الأكل منها، ويستثنى منها: الأكل عند الضرورة في حال المجاعة.
- تحريم الاستقسام بالأزلام، وهذا التحريم يشمل كل أنواع الشعوذة والطلاسم، كقراءة الكف، وقراءة ما في الإناء، وأنواع الكهانة ونحو ذلك.
- تحريم الذبح عند القبور للأولياء، والمشايخ، والصالحين، أو النذر عندها، أو نحو ذلك، فهذا كله من الشرك الأكبر الذي حرمه الله، ووعد بعدم المغفرة منه.
- أن الله أكمل لهذه الأُمة دينها، وأتمَّ عليها به نعمته، وأمرها أن تخشاه وتخافه وحده، ولا تخشى أو تخاف أحدًا غيره.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ

ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾.

بيان الآية:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ بعد بيان ما حَرَّم عليهم من الذَّبائح بَيَّنَ-تعالى-ما أحلَّ لهم، فكل ما طاب أكلُه، وناسب طبيعة الإنسان فهو حلالٌ طيِّبٌ؛ ولذا شرع الإسلام التذكية، وحرَّم كلَّ مستخبثٍ، وحرَّم الميتةَ، وكلَّ ما لم تُدْرَكْ ذكاتُه وهو حيٌّ، وأحلَّ الله-تعالى-ما صادته الكلاب والطيور وغيرها من الجوارح التي يصيدون بها بمهارة وحِذْقٍ، وهو من العلوم النافعة التي امتَنَّ الله بها عليكم، فاذكروا اسم الله على الصيد عند إدراكه، واتقوا الله في سائر أموركم، فإنَّ حسابه آتٍ، وهو الذي يَفْصِلُ بين عباده في زمن يسير، وفي هذا تحذيرٌ لِـمَنْ انتهك الحدود.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي: أحل لكم ما لم يحرمه الله، أو كل ما ليس خبيثًا في ذاته ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي: يحل لكم صيد ما علمتموه من الجوارح، وهي الكواسب من سباع البهائم، كالكلب والنمر، أو الكواسب من الطير، كالصقر والعقاب والبازي ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ المراد به: الجوارح المعلَّمة، أي: التي علمها صاحبها وأدّبها وروَّضها، وعلَّمها كيف تعمل؟، وأخرج الطبري

بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: «قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ يعني بـ﴿ٱلْجَوَارِحِ﴾ الكلاب الضواري، والفهود، والصقور، وأشباهها»(١).

﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تعلمونهنَّ العلم الذي علَّمكم الله إيَّاه بما تعرفونه بعقولكم، حتى تكون هذه الجوارح تأتمر بما أمرت به، وتنتهي عما تنهى عنه.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾

المراد: أنه متى ما كان الجارح قد تعلم، وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عليه عند إرساله، حل الصيد الذي اصطاده، وفي هذا روى عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله! إني أرسل الكلاب المعلَّمة، وأذكر اسم الله؟، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك»، قلت: وإن قتلن؟، قال: «وإن قتلن، ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك، ولم تسم على غيره»، قلت: فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟، فقال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ، فلا

(١) التفسير، (٨/ ١٠٤).

تأكله»[١].

وفي شأن التسمية أخرج البخاري عن عائشة-رضي الله عنها- قالت: قالوا: يا رسول الله! إن هنا أقواماً حديثاً عهدهم بشرك، يأتونا بلحمان، لا ندري: يذكرون اسم الله عليها أم لا؟، قال: «اذكروا أنتم اسم الله، وكلوا»[٢].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي: في جميع ما أمرتم به من أكل الطيبات وتحريم ما حرَّم عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: يجازي على الامتثال لأحكامه بالحسنى، وعلى السيئات بالوعيد.

أحكام وفوائد الآية:

- جواز سؤال من لا يعلم لمن يعلم، بل يجب عليه هذا السؤال إذا كان مناطه أمور الدين التي خفيت عليه، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

- أنه أفاد قوله-تعالى-: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أنَّ على كل آخذٍ علماً ألّا يأخذه

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصيد، باب: إذا وجد مع الصيد كلبًا آخر، (رقم ٥٤٨٦)، ومسلم في كتاب الصيد والذبائح، باب: الصيد بالكلاب المعلمة، (رقم١٩٢٩).

(٢) صحيح البخاري، (١٣/٣٩١)، كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله-تعالى-، والاستعاذة بها، (رقم ٧٣٩٨).

إلا مِنْ أَقْتَلِ أهله علماً، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل(١). والعالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل؛ لأنَّ الكلب المُعَلَّم له فضيلة على سائر الكلاب، فالإنسان إذا كان له عِلْمٌ أولى(٢).

- إباحة الصيد إذا كان الذي جرحه معلَّماً، وذكر المرسِل اسم الله عند إرساله، وهذا يقتضي إباحة الصيد الذي صيد بسلاح حاد، وذكر اسم الله عند إطلاقه.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٥﴾.

بيان الآية:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾ بعد أن بيَّن الله -جلَّ ذكره- ما

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، (١/ ٦٤١).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (٦/ ٧٤).

حرَّم من الخبائث كالميتة والدم بيَّن أنه أحلَّ لعباده الطيبات، وهي كل ما أباحه لهم، وأباح لهم أكله.

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ قيل: إن المراد ذبائحهم، وقيل: هو كل أطعمتهم، فإذا كان المراد هو كل أطعمتهم فلا يدخل فيها ما ورد نص بتحريمه، كلحم الخنزير والخمر، ونحو ذلك ممَّا هو محرم على هذه الأُمة

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ﴾ أي: وطعام المسلمين حل لأهل الكتاب، فلا منافاة.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: أحل لكم نكاح الحرائر العفائف من المؤمنات

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: أنه أحلَّ لكم المحصنات من نساء اليهود والنصارى، وقد تزوَّج بعض الصحابة من نساء أهل الكتاب(١)، كحذيفة بن اليمان(٢)؛ أخذًا بدلالة هذه الآية.

---

(١) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة، (٩/٨٦ – ٨٧)، (رقم ١٦٤٢١ - ١٦٤٢٤)، فقد أورد عدة آثار في زواج بعض الصحابة كتابيات.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، (٦/٧٨)، (رقم ١٠٠٥٧))، والبيهقي في السنن الكبرى، (١٤/٢٩٣)، (رقم ١٤٠٩٧).

﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: كما أحلَّ لكم نكاح هذه المحصنات فقد وجب عليكم منحهنَّ مهورهنَّ.

﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: أن الشرط الأول في نكاح المحصنات يقابله شرط بالنسبة للأزواج، وهو أن يكونوا عفيفين ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: غير زناة ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ أي: صديقات أو عشيقات ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: أن من ينكر شرائع الإسلام، فيرتكب ما حرَّمه الله عليه، ويجتنب ما أحلَّه ﴿فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ أي: خسر كل ما عمله من عمل صالح.

﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾أي: أنه خسر أعماله السابقة، فلم يكن له من عمله إلا الخسران.

أحكام وفوائد الآية:

- تقرير حلّ ذبائح أهل الكتاب إذا كانت مذكاة، ولا يلزم السؤال عمَّا إذا كانوا قد سموا عليها أم لا، أما إذا كانت قد ماتت بالخنق أو الصعق فتعد ميتة، حكمها حكم الميتة.
- حلُّ نكاح المحصنات من نساء أهل الكتاب مع شرط الإحصان للأزواج، وعدم اتخاذهم صديقات، أو أن يكونوا زناة؛ لأن الزاني يختص بالزانية.

قلت: ويحرم ما شاع في هذا الزمان من زواج المتعة، وزواج الصداقة والصحبة، والزواج المؤقت بمرحلة معينة كزواج السفر، وزواج الراحة، وكل زواج يراد منه مجرد الاستمتاع، والذين يبيحون هذه الزيجات يعتدون على حرمات الله؛ لأن الزواج ميثاق غليظ، الهدف منه بناء الأسرة، وبناء الأُمة، وليس الهدف منه مجرد الاستمتاع، وقد عظَّمه الله في قوله -عزَّ ذكره-: ﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا**﴾ [النساء: ٢١]، فالتحلل من هذا الميثاق بأوصاف ومسميات مغايرة لحقيقته يعد تحليلًا لما حرَّمه الله.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦**﴾.

بيان الآية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في هذه الآية الأمر للمؤمنين بأنهم إذا قاموا إلى الصلاة وجب عليهم الوضوء إذا كانوا محدِثين، فإن كانوا غير محدثين لم يلزمهم ذلك، وأخرج الطبري بسند حسن عن السدي قال: «قُمْتُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى غَيْرِ طُهْرٍ»(١).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما ثبت عَنْ عَائِشَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-قالت: «سَقَطَتْ قِلَادَةٌ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ المدِينَةَ، فَأَنَاخَ النَّبِيُّ-ﷺ-، وَنَزَلَ، فَثَنَى رَأْسَهُ فِي حَجْرِي رَاقِداً، فأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ-رضي الله عنه-، فَلَكَزَنِي لَكْزَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: حَبَسْتِ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ؟! فَبِيَ الْمَوْتُ لِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ-ﷺ-، وَقَدْ أَوْجَعَنِي، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ-ﷺ-اسْتَيْقَظَ، وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ، فَالْتُمِسَ المَاءُ، فَلَمْ يُوجَدْ، فَنَزَلَتْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ-رضي الله عنه-: لَقَدْ بَارَكَ اللهُ لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَرَكَةٌ لهمْ»(٢).

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ حد الوجه: ما بين منابت شعر الرأس إلى آخر اللحيين والذقن من الطول، ومن الأذن إلى الأذن من العرض،

---

(١) التفسير، (٨/١٥٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المائدة، (رقم ٤٣٣٢).

ويجب تخليل اللحية حتى يبلغ التخليل الجلد ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أي: غسل اليدين مع المرفقين، بحيث يغسل المتوضئ عضده مع ذراعيه؛ لقول رسول الله-ﷺ-: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»(١).

﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ ومعناه: أن يمسح المتوضئ رأسه بيديه، فيقبل بهما ويدبر، بادئًا بمقدمة رأسه، ثم الذهاب بهما إلى قفاه، ثم يردهما حتى يرجع إلى المكان الذي بدأ منه.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ القراءة بنصب ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، والمراد: غسلهما مع الكعبين، وهذا هو الأصل؛ لأن حكمهما معطوف على قوله: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، ومن قرأ: ﴿وأرجلِكم﴾ بالكسر قال بمسحهما؛ لأن الحكم معطوف على ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ﴾.

وقد روى بريدة عن أبيه قال: فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلَّى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله! إنك فعلت شيئًا لم تكن تفعله؟، قال: «إني عمدًا فعلته يا عمر!»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: تبليغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، (رقم ٢٥٠).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: جواز الصلوات كلها بوضوء واحد، (رقم ٢٧٧).

وتجب النية عند الوضوء، دون ذكرها باللسان، والأصل في ذلك قول رسول الله-ﷺ-: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[١]، وأخرج البخاري عن المغيرة بن شعبة قال: ذَهَبَ النَّبِيُّ-ﷺ-لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقُمْتُ أَسْكُبُ عَلَيْهِ الْمَاءَ-لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ: فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ-فَغَسَلَ وَجْهَهُ، وَذَهَبَ يَغْسِلُ ذِرَاعَيْهِ، فَضَاقَ عَلَيْهِ كُمُّ الْجُبَّةِ، فَأَخْرَجَهُمَا مِنْ تَحْتِ جُبَّتِهِ، فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ مَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ»[٢].

والأصل في وجوب غسل الرجلين ما ورد عن رسول الله-ﷺ-من أحاديث، منها:

ما رواه عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-أن رجلًا توضأ، فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره رسول الله-ﷺ-، وقال: «ارجع فأحسن وضوءك»[٣].

وما رواه عبد الله بن عمرو-رضي الله عنه-قال: «تخلَّف عنَّا رسول الله-ﷺ-في سفر، فأدركنا وقد أرهقتنا صلاة العصر ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله-ﷺ-، (رقم ١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: قوله-ﷺ-: «إنما الأعمال بالنية»، (رقم ١٩٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، (٧/٧٣١)، (باب ٨١)، (رقم ٤٤٢١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: وجوب استيعاب جميع أجزاء محل الطهارة، (رقم ٢٤٣).

النار»[١].

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ أي: إذا جامعتم نساءكم، أو احتلمتم وجب عليكم الغسل، وهو قوله: ﴿فَٱطَّهَّرُوا۟﴾.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾

سبق الحديث عن هذا في سورة النساء، والمراد هنا: إباحة التيمم عند فقد الماء لمن ذكرهم الله، وهم: المريض، والمسافر، ومن جاء من الغائط، ومن لامس النساء؛ ذلك أن المريض غالبًا ما يكون في حالة عجز، لا يقدر على مباشرة الماء، أو لكون الماء يسبب له ضررًا؛ لوجود جروح فيه، والسفر حالة استثنائية قد لا يتيسر فيها الماء للمسافر، والغائط: كل ما خرج من السبيلين من عذرة وغيرها، وملامسة النساء المراد بها: الجماع، كما أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قال: «هو الجماع»[٢]. فهذه كلها موجبات للتيمم عند

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب: غسل الرجلين، (رقم ١٦٣)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب: وجوب غسل الرجلين بكمالهما، (رقم ٢٤٣).

(٢) صحح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح، (٨/٢٧٢).

فقد الماء، ويكون ذلك بالتراب الطاهر الذي عبر الله عنه بالصعيد الطيب.

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ وفي هذا بيان لصفة التيمم، وهي أن يضرب بكفيه على الأرض، فيمسحَ بهما وجهه وكفيه في ظاهرهما وباطنهما مرة واحدة.

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ أي: أن الله لا يريد أن يجعل عليكم حرجًا في دينكم، بل يريد بكم اليسر ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ أي: ينقيكم من الذنوب ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: أن ما يسَّره الله لكم من التيمم بالتراب من تمام نعمته عليكم، فلم يكلفكم ما لا تطيقون ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: يريد منكم أن تشكروه على هذه النعمة.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب النية في الوضوء وفي الطهارة عمومًا؛ لأن من شروط العبادة النية، ولكن لا يلزم التلفظ بها، وإنما محلها القلب، ووجوب غسل الوجه من منابت شعر الرأس إلى أسفل الذقن، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح جميع الرأس؛ لما روي أن

رسول الله-ﷺ-مسح رأسه حتى بلغ إلى قفاه[١]، ومسح الأذنين كمسح الرأس[٢]، وغسل الرجلين مع الكعبين، ولا عبرة لقول من قال بجواز مسحهما.

- إباحة التيمم للمريض، والمسافر، والآتي من الغائط، والمجامع عند فقد الماء، بشرط أن يكون بتراب طاهر.
- أن في الآية رَدًّا على الموسوسين الذين يبالغون في استعمال الماء.
- أن من سمات أسلوب القرآن: الفصاحة في الألفاظ، والعذوبة في الكلمات، تأمَّلْ التعبير بالمرافق، ولم يعبر بالمرفقين، كذا في التعبير بالكعبين، دون التعبير بالكعوب؛ لسهولة كلمة (الكعبين).
- ما في عَطْفِ الأرجل على مسح الرأس من التنبيه على وجوب الاقتصاد في غسل الأرجل؛ لأنَّ غَسْلَها مَظِنَّةُ الإسراف، فكأنَّها جمعت بين الغَسْل والمسح: الغَسْلُ من جهة تنظيفها، فهي عرضةٌ للاتساخ، والمسح يعني الاقتصاد في استعمال الماء عند

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب: مسح الرأس كله، (رقم ١٨٥)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب: في وضوء النبي-ﷺ-، (رقم ٢٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب: الوضوء مرتين، (رقم ١٣٧)، والترمذي في كتاب الطهارة، باب: مسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما، (رقم ٣٦)، والنسائي في كتاب الطهارة، باب: مسح الأذنين مع الرأس، (رقم ١٠٢)، من حديث ابن عباس، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

غسلها.

- أن شعائر الإسلام تستوجب الشكر؛ لأنَّها تهدف إلى طهارة المسلم، وتمام الإنعام.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾.

بيان الآية:

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ المراد بها: نعمة الإسلام، فهي أعظم نعمة أنعم الله بها على هذه الأُمة .

﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ أي: العهد والوعد الذي عاهد عليه رسول الله -ﷺ- المسلمين حين بايعهم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، كما حدث ذلك ليلة العقبة تحت الشجرة .﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أي: المراد به حين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي: الزموا تقواه فيما أمركم به، ونهاكم عنه

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما في قلوبكم.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب ذكر نعم الله على أُمة المسلمين، وأول هذه النعم دين الإسلام الذي أرسل الله به نبيه ورسوله محمدًا -ﷺ-.
- وجوب ذكر الميثاق والعهد الذي تعاهد عليه رسول الله -ﷺ- مع صحابته، ومنهم: الأنصار حين بايعوه في ليلة العقبة؛ ذلك أن تذكر هذه النعم والعهود يجعل قلب العبد متعلقًا بالله، وحريصًا على الوفاء بما عاهد عليه.
- استحضار النعم وشكرها، وتجديد العهد والبيعة مع الله على السمع والطاعة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١٠ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ

أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ لما ذكر الله -عزَّ ذكره- أنه أتمَّ نعمته على عباده المؤمنين بالإسلام، وذكَّرهم بالعهد والميثاق الذي تم بينهم وبين رسول الله -ﷺ-، أمرهم أن يقوموا بالعدل، وإحقاق الحق لأهله، وأن تكون شهادتهم دون حيف ولا ظلم، وشاهده: حديث النعمان بن بشير -رضي الله عنه- قال: «نحلني أبي نحلًا، فقالت أُمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله -ﷺ-، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: «أكُلَّ ولدك نحلته مثله»؟، قال: لا، قال: «اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم»، وقال: «إني لا أشهد على جور»، قال: فرجع أبي، فردَّ تلك الصدقة»(١).

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ في هذه الآية أمر من الله للمؤمنين ألا يحملهم بغضهم للمشركين على عدم العدل فيهم، سواء بالقضاء أو غيره.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب: الهبة للولد، (رقم ٢٥٨٦)، ومسلم في كتاب الهبات، باب: كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، (رقم١٦٢٣).

﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ وهذا أمر عام للعدل في الكفار وغيرهم؛ لأن إقامة العدل مما يقرب للتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ توكيد على إقامة العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يعلم أعمالكم، وسوف يجازيكم عليها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ هذا وعد من الله-ووعده الحق-بأن الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا رسوله، واتبعوا ما جاء به، وعدلوا في أمورهم؛ سوف يغفر لهم ذنوبهم، ولهم أجر عظيم، هو الجنة.

وللمزيد من التفسير يُنظر سورة الصف الآيات: [١٠-١٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

لما وعد الله المؤمنين بالمغفرة والأجر العظيم وعد الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، وما جاء به رسوله من الدلائل والبينات، ونقضوا عهودهم بأنهم سيكونون من أهل الجحيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ ينادي الله عباده المؤمنين، فيُذَكِّرهم بما امتَنَّ عليهم من نعمة الأمن، وكَفِّ الأذى عنهم، وردِّ كيد عدوهم،

فكم صرف عنهم من شرٍّ!، وكم جَنَّبَهم من بلاءٍ!، وكم سَلَّمهم من مكروه!، وكم كَفَّ من أيادٍ بُسِطَتْ بالشرِّ والأذى!، وكم لله مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ بأوليائه!، فليتقوا الله-تعالى-، فهو كافيهم وحافظهم، وهو وحده الذي يُتَّقى، فمَنِ اعتصم بتقواه حَفِظَه ورعاه، ومَنْ توكَّل عليه كفاه، فعليه وحده يتوكل أهل الإيمان، فإذا اتقاه المؤمن، وتَوَكَّلَ عليه، فلن تُرْهِبَه قوى الغدر، ولن تهزمه جحافل الطغيان.

ولا يستقيم معنى التوكل إلا بالاجتهاد في الأخذ بالأسباب، والارتقاء بها، وعلوِّ الهمة في ذلك؛ فإنَّ السير وَفْقَ سُنن الله-تعالى-هو السبيل لتحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ أي: نجَّاكم مما كان يبيَّت لكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أمر منه-عزَّ ذكره-لعباده بالتقوى؛ لأنها العاصمة من السوء ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المراد: أن من وكَّل أمره إلى الله واتقاه عصمه من كل سوء، وحفظه من كل شيطان، وكان له ناصرًا من كيد الكائدين، وغدر الغادرين.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب العدل بين الناس، وأن تكون الشهادة بالقسط-أي:

بالعدل-، وتحريم الشهادة على الظلم أو الجور، ووجوب العدل بين الناس كافة، بصرف النظر عن ديانتهم، فكما يجب العدل للمسلم يجب العدل لغيره، وسوء معاملة الكافر للمسلم لا يوجب عدم العدل فيه، فلو قتل الأعداء أطفالًا للمسلمين فلا يجوز قتل أطفالهم، ولو مثّلوا بأحد منهم فلا يجوز التمثيل بأحد منهم؛ لأن الإسلام دين أدب وخلق، ودين عدل ورحمة، وليس دين ظلم وجور.

- أن من سُنَنِ القرآن: أن يتبع ذكر ثواب المؤمنين ببيان عقاب الكافرين؛ فبضدِّها تتبيَّن الأشياء، وليزداد أهلُ الإيمان حرصاً وثباتاً على الحق، ومسارعةً إليه؛ ففي ذكر جزاء مَنْ عاداهم تثبيتٌ لهم وتسليةٌ.
- تقرير وعد الله للمؤمنين بالمغفرة والأجر العظيم، والوعيد بالعذاب للكافرين والمكذبين.
- وجوب ذكر نعم الله على عباده، والالتزام بتقواه، والتوكل عليه، فمن توكل عليه عصمه ونجاه من كل سوء.
- تقرير نجاة الله لنبيه ورسوله محمد-ﷺ-مما كان يبيته له اليهود من العداوة والبغضاء والأذى، وهمهم بقتله.

- استحضار أسماء الله-تعالى-وصفاته العُلى؛ ممَّا يزيد العبد تعظيماً ومحبةً ويقيناً.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾.

بيان الآية:

﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هذا بيان لما أخذه الله من المواثيق على بني إسرائيل: أن يطيعوا نبيهم موسى، كما أخرج الطبري بسند جيد عن أبي العالية قال: «أَخَذَ اللهُ مَوَاثِيقَهُمْ أَنْ يُخْلِصُوا لَهُ، وَلَا يَعْبُدُوا غَيْرَهُ»(١).

﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ المراد به: أن موسى-عليه السلام- أخذ من كل سبط من بني إسرائيل نقيبًا، يكون كفيلًا على قومه بالوفاء بما أمروا به، فبعثهم ليطلعوا على قوة العمالقة (الجبَّارين)

---

(١) التفسير، (٨/ ٢٣٥).

قبل غزوهم، فلما ذهبوا، واطلعوا على قوتهم رأوا أنهم لا قِبَلَ ولا طاقة لهم بهم، فاتفقوا على أن يخفوا ما رأوه عن بني إسرائيل، وأن يُعلموا به موسى وحده، فلما رجعوا إلى قومهم خان منهم عشرة، فأبلغوا أقاربهم بما شاهدوه عن العمالقة، فانتشر الخبر حتى اختلفوا فيما بينهم إلى أن قالوا: لن نذهب إلى قتالهم؛ لجبروتهم وقوتهم، وعليك يا موسى أن تقاتل أنت وربك(١).

ومصداقه قول الله-عزَّ ذكره-: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: سأكون لكم نصيرًا ومعينًا إن أقمتم الصلاة ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهذه من أركان الإسلام ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي: جميعهم ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ نصرتموهم ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ أي: أنفقتم في سبيله زكاة أموالكم وصدقاتكم ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي: سوف أكفِّر سيئاتكم السابقة، وأستر عيوبكم ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ أي: ستكونون نزلاء الجنة ﴿فَمَن

(١) انظر: تفسير الطبري، (٨/ ٢٣٤ - ٢٣٦).

كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: من نقض الميثاق فقد أخطأ طريق الحق والهدى.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، وقد عظَّم الله أمرها في قوله-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].
- وجوب إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ووجوب الإنفاق في سبيل الله، والإيمان برسل الله كافة، وآخرهم وخاتمهم رسول الله محمد-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ أي: بسبب نقضهم الميثاق الذي

أخذ عليهم ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾ اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ المراد: أنه بسبب هذا النقض، وما ترتَّب عليه من لعن لهم، صارت قلوبهم صلبة، لا تقبل الحق ولا تفعله.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: بسبب هذه القساوة في قلوبهم صاروا يؤولون الكتاب وآياته على غير حقيقتها ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ أي: نسوا ما جاءهم في التوراة من الآيات والبينات، ومنها: صفة نبي الله محمد ورسالته.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: خيانتهم بتحزّبهم مع المشركين ضدَّك، وهمّهم بقتلك، وخيانتهم للعهد الذي كان بينك وبينهم، كما فعل أسلافهم مع أنبيائهم، وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: «على خيانة وكذب وفجور»[(١)].

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ أي: أن قلَّة منهم لم يخونوا مثل ما فعل الكثيرون منهم ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ قد يكون المراد الأمر بالعفو عنهم؛ لوجود العهد معهم، وقد يكون المراد العفو عمَّن آمن منهم، وعدم مؤاخذتهم بما سبق منهم من العداوة.

---

(١) التفسير، (٢/ ١١).

وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: «نسختها: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: إنَّه يحب الذين يعفون ويصفحون عند المقدرة.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ لما ذكر الله-جلَّ ذكره-أنه أخذ الميثاق على بني إسرائيل بيَّن أنه أخذ كذلك الميثاق على النصارى بأن يؤمنوا برسالة محمد-ﷺ-، ويتبعوه ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: نسوا الإيمان بمحمد-ﷺ-جهلًا وضلالًا وكفرًا.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ أي: ألقينا بينهم العداوة فيما بينهم، فأصبحوا فرقًا متباينة متباعدة، ومعادية لبعضها ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أي: أن هذه العداوة ستبقى بينهم إلى أن تقوم الساعة، ومصداقه قول الله-تعالى-: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

(١) التفسير، (١١/٢).

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ أي: أن الله سوف يبين لهم سوء عملهم وكفرهم، ويجازيهم عليه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تحريم نقض العهود، وما يترتب على هذا من الطرد من رحمة الله؛ وشاهده: قول الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].
- بيان سلوك أسلاف اليهود في نقضهم ما عاهدوا عليه نبيَّهم -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.
- أن نَقْضُ اليهود للمواثيق والعهود دَيْدنهم وهِجِّيراهم، فينبغي الحذرُ منهم.
- الندب إلى العفو عند المقدرة.
- بيان سوء سلوك النصارى، وعدم إيمانهم برسالة رسول الله محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رغم ما أخذ الله عليهم من الميثاق في كتابهم، فكان عدم إيمانهم بهذه الرسالة سببًا في تفشي العداوة بينهم، وهذا هو ما حصل في تاريخ المسيحية من الفرق المتناحرة من الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت.

- أن قسوة القلوب آفة عظيمة، كم أفْضَتْ إلى أهوالٍ عظامٍ، فقد دفعت اليهود إلى تحريف كلام الله إلى ما يوافق أهواءهم الجامحة.
- أن النسيانُ الذي يراد به الترك والتضييع للأوامر آفةٌ من الآفات، تُفْضِي إلى الحِرْمان والحَسَرات، وهو عمليٌّ وعلميٌّ، وقد نتَجَ عن النسيان الـحَيرةُ والفُرقة والشقاق، وعبَّر بالماضي ﴿فَنَسُواْ﴾ لأنَّ النسيانَ مضَى وانقضَى مع بقاءِ آثارِه، ومنها: ضَياعُ نصيبٍ كبيرٍ من كلام الله، واختلاطُ ما بقي بكلام غيرِه. وعَطَفَ النسيانَ على التحريفِ لما بينهما من تلازُمٍ، فالنسيانُ آفةٌ ناجمةٌ عن التحريف.
- بيان إعجاز القرآن الكريم التاريخي والمستقبلي، فقد نشر صفحات من الماضي، وجلَّى أنباء المستقبل، وأكَّد بقاء كثير من اليهود والنصارى على موقفهم العدائي، وخياناتهم المتكررة، فلا يمرُّ يومٌ، ولا ينجلي صبحٌ إلا على مكايدَ لأعداء الدين من اليهود والنصارى، تُضاف إلى سِجِلِّهم الحافل بالضغائن، مع ما تبوح به ألسنتهم، وتنفثه صدورهم من عداوات.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ

ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المخاطب: هم اليهود والنصارى ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ أي: محمد-ﷺ-﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يبيِّن ويظهر لكم ما كنتم تخفونه من كتبكم، ومن ذلك: ما ورد فيها من وجوب الإيمان به وبرسالته، ومن ذلك: الرجم للزناة، وقصة أصحاب السبت، ومسخهم قردة وخنازير. وعن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله-عز وجل-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فكان الرجم مما أخفوا»[١].

﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ أي: أنه لم يبين لكم كل ما يعلمه عنكم وعن تاريخكم.

﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ المراد به: القرآن

(١) أخرجه الحاكم بسند صحيح في المستدرك، (٤/٣٥٩)، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في الإحسان، (١٠/٢٦٧)، وصححه المحقق شعيب الأرناؤوط.

الذي أنزله الله ضياء للناس يبيِّن لهم طريق الحق، ويبعدهم عن طريق الضلال ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي: أن الله أنزل هذا القرآن ليهدي به من آمن به، واتبع ما فيه ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: طرق الهداية.

﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: ينتشلهم من ظلمات الشرك والكفر، ويهديهم إلى نور الحق والهدى.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير أمر الله لأهل الكتاب: اليهود والنصارى أن يؤمنوا برسالة رسول الله محمد-ﷺ-، ويتبعوا ما جاء به كتاب الله.
- جواز تَرْكِ ما لا تدعو الحاجة إلى بيانه أو تأخيره، اكتفاء بما بُيِّن.
- أن من آمن بالقرآن، وآمن برسالة رسول الله-ﷺ-يهديه الله إلى سبيل الحق، ويخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام.
- أنه جمع ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لتعدد أسباب السلام وميادينه وكثرتها.
- أن خُلُق المداراة والإعراض من أدب النبي-ﷺ-يدلُّ على حسن المعاشرة، ودوام الألفة والإقبال، والتشويق والترغيب.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ
فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ
وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم
بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ
ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ
وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾

المراد بهؤلاء الكفرة: النصارى، فهم إن لم يقولوه على سبيل الاعتقاد، فقد قالوه على سبيل المعنى، حين اعتقدوا أنه يتصرَّف كتصرف الله من القدرة والتدبير.

﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ أي: لا أحد يقدر على أن يردَّ الله إذا أراد أن يهلك المسيح وأُمه وكل من في الأرض؛ ذلك أن هؤلاء كلهم مخلوقون، والله هو الذي خلقهم، وكما أنه قادر على خلقهم فهو قادر على إهلاكهم.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾ توكيد لربوبية الله، وأنه المالك المتصرف في السماوات والأرض ومن فيهما.

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: يخلق بقدرته ذكورًا وإناثًا، ويخلق من الإناث الذكور، ومن الإناث الإناث، ويخلق الذكور من غير إناث كما خلق آدم، وخلق عيسى بالكلمة.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: هو القادر على كل شيء يريده، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ لما كان رسول الله-ﷺ-يدعو اليهود إلى الإسلام كان يخوِّفهم من عذاب الله إذا استمرُّوا على كفرهم، فردُّوا عليه: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، واستدلُّوا على زعمهم الباطل أن الله أوحى إلى

إسرائيل: «أن ولدك بكري من الولد»؛ لما ورد في الإنجيل حكاية عن عيسى: «اذهبوا إلى أبي وأبيكم»، وقيل: إنهم استدلوا على زعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه بكونهم أبناء رسل الله، وهم بنوه، فردَّ الله زعمهم وكذبهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمدًا: لو كنتم أبناء الله-وحاشاه أن يكون له ولد-لما عذَّبكم حين مسخكم قردة وخنازير.

وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ-ﷺ-نُعْمَانُ بْنُ أَضَاءَ، وَبَحْرِيُّ ابْنُ عَمْرٍو، وَشَأْسُ بْنُ عَدِيٍّ، فَكَلَّمُوهُ، فَكَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ-، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَتَهُ، فَقَالُوا: مَا تُخَوِّفُنَا يَا مُحَمَّدُ!، نَحْنُ-وَاللَّهِ-أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، كَقَوْلِ النَّصَارَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ-جَلَّ وَعَزَّ-فِيهِمْ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ..إِلَى آخِرِ الْآيَةِ﴾[1].

﴿بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمدًا: أنتم مجرد بشر، خلقكم الله مثل خلقه ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ إذا تاب من ذنوبه، وأخلص في توبته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يعذب من

(١) التفسير، (٨/ ٢٦٩).

يستمر على كفره ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ﴾ أي: أنَّه الرب الواحد الأحد، لا شريك له، ولا ولد ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع في الآخرة.﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الخطاب لليهود والنصارى، قد جاءكم رسولنا محمد.

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ المراد: أن الله-جلَّ ذكره-يقول لليهود والنصارى: لقد أرسلنا رسولًا بعد فترة انقطاع الوحي بعد عيسى بأكثر من خمسمئة سنة، وهذا الرسول هو محمدٌ-ﷺ-يبيِّن لكم دين الله بالبينات الدالَّة عليه حتى لا تقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ﴾ فبرسالته جاءكم بشير يبشِّركم برضا الله إن آمنتم به، وأخلصتم العبادة له وحده، وصدقتم رسوله، وما جاء به من الكتاب الذي نسخ ما قبله من الكتب، وينذركم بسوء العاقبة إن أنتم كذبتموه، وجحدتم، وعاندتم رسالته.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قَالَ: «قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَعُقْبَةُ بْنُ وَهْبٍ لِلْيَهُودِ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ!، اتَّقُوا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، لَقَدْ كُنْتُمْ تَذْكُرُونَهُ لَنَا قَبْلَ مَبْعَثِهِ،

وَتَصِفُونَهُ لَنَا بِصِفَتِهِ، فَقَالَ رَابِعُ بْنُ حَرْمَلَةَ، وَوَهْبُ بْنُ يَهُوذَا: أَمَا قُلْنَا هَذَا لَكُمْ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ بَعْدَ مُوسَى، وَلَا أَرْسَلَ بَشِيرًا وَلَا نَذِيرًا بَعْدَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: في مجازاتكم على أعمالكم.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بكفر من ينسب إلى الله الولد، أو يتقوَّل عليه بأنه من خاصته، وتكذيب اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله وأحباؤه، فتنزَّه الله عن الولد، وتقدَّستْ أسماؤه وصفاته عما يقوله الظالمون، وينسبونه إليه زورًا وبهتانًا.

- أن عيسى وأُمه من مخلوقات الله، وأنهما لا يملكان لأنفسهما ضرًّا ولا نفعًا.

- قيام الحجة على اليهود والنصارى بإرسال رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم-

---

(١) التفسير، (٨/ ٢٧٣).

إلى الناس كافَّة يبشرهم برحمة الله إذا أطاعوه، وينذرهم عقاب الله إذا عصوه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

بيان الآيات:

كان نبي الله موسى يدعو بني إسرائيل إلى طاعة الله، واحترامهم للميثاق الذي أخذ عليهم، ويذكِّرهم بنعم الله عليهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ومن هذه النعم قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ فكان بنو إسرائيل أكثر الأُمم التي أرسل إليها

أنبياء، ولعلَّ ذلك دليل على عدم امتثالهم، وعدم طاعتهم، فأرسل الله إليهم الكثير من الرسل لإقامة الحجة عليهم، ومن هذه النعم قوله: ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ أي: جعل فيكم ملوكًا كثيرين.

﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ والمراد: أن الله أعطاهم ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين في زمانهم، ومن ذلك: إغراق فرعون، وإنزال المن والسلوى عليهم لَمَّا كانوا في التيه، والغمام الذي ظلَّلهم الله به.

ثم قال لهم مناديًا: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ أي: الأرض المطهَّرة المباركة ﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي: كتب لكم دخولها فقوموا بذلك، وافتحوا المدينة.

﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي: لا تنكصوا وترجعوا على أعقابكم عن قتال الجبارين أهل الأرض ﴿ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ في دينكم ودنياكم.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ المراد بهم: العمالقة ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا ﴾ أي: لن ندخل هذه الأرض ﴿ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾ أي: يتركوها لنا بلا قتال منا؛ وذلك لخوفنا منهم ﴿ فَإِن

﴿يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ أي: إن خرجوا منها وتركوها لنا دخلناها، وكان هذا مستحيلًا؛ إذ إنهم أمروا بالقتال لدخولها، فلما لم يفعلوا عصوا أمر نبيهم.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ يخافون الله[(١)] ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ أي: بالإيمان أو بالصلاح في أمرهما ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ أي: لا تخافوا؛ فإنكم إذا دخلتم باب البلدة المقدَّسة فستغلبون العمالقة؛ لأنكم مؤمنون، وهم غير ذلك.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إذا كنتم مؤمنين ومصدّقين بوعد الله لكم فسوف تغلبونهم، ولكنهم رغم موعظتهم ظلوا على خوفهم وجبنهم وعصيانهم لأمر نبيهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- دلالة القصة على طبائع غالب اليهود الرديئة، وأخلاقهم الذميمة، ومنها: الجبن والتخاذل والتقاعس، وسوء الأدب، وما لحق بهم من المذلَّة والهوان والحرمان.
- بيان سلوك اليهود وعصيانهم لنبيهم موسى-عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وما اتصفوا

(١) تفسير الطبري، (٨/٢٩٣)، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي،(ص ٣٧١).

به من الخوف من القتال، وتهويل نقبائهم لشأن عدوهم العمالقة؛ مما جعلهم يرتدُّون على أدبارهم، ويبكون خوفًا من عدوهم، وهذا يقتضي سوء عاقبة الكذب عن شأن العدو، وتهويل قوَّته.

- أن الأُمم رغم ما قد يكون فيها من الإثم لا تخلو من مصلحين ومؤمنين بالله، يأتمرون بأوامره، وينتهون عن نواهيه.
- أنه بقَدْرِ المحبة والتعظيم والخوف والرجاء يكون امتثال العبد لربه.
- أن التوكل على الله -تعالى- من ثمرات الإيمان وعلاماته.
- أن التقاعس عن الجهاد يقود إلى التيه والضياع والشتات.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

بيان الآيات:

رغم هذا النصح لهم من رجلين صالحين منهم، ورغم دعوة موسى

لهم قالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ وهذا نفي قاطع منهم بألَّا يدخلوها أبدًا ما دام العمالقة فيها .

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ أي: كما تأمرنا بقتال الجبارين، عليك أنت وربك أن تذهبا وتقاتلا وحدكما، وفي هذا سوء أدب مع الله-جلَّ ذكره، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-، وقد استشهد المقداد بن عمرو بهذه الآية، فقال: يا رسول الله! إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن امض ونحن معك؛ فكأنه سُرِّي عن رسول الله-ﷺ-(١).

﴿قَالَ رَبِّ﴾ لما عجز نبي الله موسى عنهم، وتأكد له أنهم لن يقاتلوا لجأ إلى ربه قائلًا: ﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ يقصد أخاه هارون، أي: إني لست قادرًا على إقناعهم، وما لي فيهم من حيلة

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا تؤاخذني وأخي بما فعل هؤلاء، فاجعل بيننا وبينهم فرقًا في المعاملة؛ لأنهم عصوك،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب الآية، (رقم ٤٦٠٩).

ونحن طائعون لك.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

لما دعا موسى عليهم استجاب الله له، فتركهم يتيهون في الأرض، أي: صاروا متحيِّرين في قطعة من الأرض، يبدؤون فيها من حيث انتهوا، وكان الغمام يظللهم من وهج الشمس، وينزل عليهم المن والسلوى، ومع أن هذه نعمة من الله عليهم-مع أنهم عصاة-إلا أنهم لم يشكروها، والله-جلَّ ذكره-يرحم عباده ولو كانوا عصاة، لعلهم يرجعون إليه، فهو ذو رحمة واسعة، ولو يؤاخذ عباده بما كسبوا ما ترك على الأرض من دابة تمشي عليها، ولكنه يرحمهم، ويؤخرهم إلى أجل مسمى، ولما كان الله قد حرَّم عليهم الأرض المقدَّسة لم يدخلوها.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ في هذا تسلية لموسى-عليه السلام- فيما أصابه من قومه، أي: لا تكن آسِفًا عليهم، فإنهم سيلقون جزاء فسقهم وعصيانهم.

قلت: ومنذ ذلك الحين تفرَّق بنو إسرائيل أشتاتًا في الأرض، فما من بلد إلا وفيها منهم، ورغم ما فرضته الأُمم لهم في فلسطين بعد قسر أهلها وظلمهم إلا أن بني إسرائيل لا يزالون

متفرقين، منهم: من ذاب في الشعوب، فأصبح منهم، ومنهم: من تمسك بادعائه اليهودية، وقد دخل فيهم أقوام ليسوا منهم، تأثروا بدعاواهم عن أنفسهم، حين جعلوا لهم راية الصهيونية، ينطلقون منها في تعزيز دور سياسي لهم، كحال الخزر الذين جاؤوا إلى فلسطين بحجة يهوديتهم، وهم ليسوا كذلك، والله يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، وله في كل خلقه شؤون.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير سوء أخلاق أسلاف اليهود مع ربهم ونبيهم بقولهم له: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.
- وجوب البراءة من المعرضين عن أوامر الله من أهل الفسق ونحوهم.
- عدم جواز الأسى والحزن على أهل الظلم والفسق إذا تعرَّضوا لنقمة الله.

﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ
أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ
إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ

بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ
أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ
سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

بيان الآيات:

لما قصَّ الله على نبيه محمد-ﷺ-قصة اليهود مع نبيهم موسى، وكان ذلك تسليةً له عما أصابه منهم أثناء دعوتهم إلى الله، حين شتموه وآذَوْهُ، وسخروا من دعوته، بل همّوا بقتله، دسّوا السم له، ذكر قصة ابني آدم: قابيل وهابيل، وما تعرض له هابيل من ظلم أخيه قابيل له بقتله، وهذا الظلم مشابه لفعل اليهود وظلمهم وعصيانهم لنبيهم موسى، ثم عصيانهم لرسول الله محمد-ﷺ-، فقال-ﷻ-لنبيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: حدِّثهم عن قصة قابيل مع أخيه هابيل، وأن قتل قابيل لأخيه هابيل كان ظلمًا، وأن عاقبة القاتل النار. والمراد: حدِّثهم بهذه القصة، وذكِّرهم ما حصل منهم نحوك من همِّهم بقتلك، وأن الله نجَّاك، وأنك كنت معهم رحيمًا، وقد وفَّيْتَ بعهدك معهم.

﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا﴾ أي: أن كلًّا منهما قرب قربانًا، فكان قربان أحدهما-وهو هابيل-أزكى من قربان أخيه قابيل؛ ذلك أن من حكم الله في الأُمم الغابرة أن من قرَّب قربانًا إلى الله فقبله أرسل عليه نارًا من السماء، فتحرقه، ومن لم يتقبل قربانه يترك ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ وكان هذا حسدًا وحقدًا، فقال هابيل: ولم تقتلني، وأنا لم أرتكب محرمًا؟، وقبول الله لقرباني لأني اتقيته ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ أي: إن أردت يا قابيل! أن تمدَّها ﴿لِتَقۡتُلَنِي﴾ دون ذنب مني ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ أي: أنه امتنع عن قتل أخيه مع أنه كان يعرف أنه قاتله. فإن قيل: ولماذا لم يقتله دفاعًا عن نفسه؟، قيل: إن الدفاع عن النفس لم يكن جائزًا في ذلك الوقت.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: إني أتورَّع عن قتلك خوفًا من عقاب الله؛ لأنَّه لم يأمرني بالدفاع عن نفسي.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي: إنك إذا قتلتني سوف يترتَّب عليك إثم قتلي ظلمًا، والإثم الذي كان يلزمني لو كنت أنوي

قتلك، فأنت بهذا سوف تحمل الإثمين معًا، وشاهده: قول الله-جلَّ ذكره-: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣].

﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾ أي: أنَّك بقتلك إيَّاي ظلمًا سوف تكون من أصحاب النار.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: أنَّ النار هي الجزاء لظلمك إيَّاي؛ وشاهده: قول رسول الله-ﷺ-: «ليس من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه سنَّ القتل أولًا»(١).

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ أي: سوَّلت وحسنت له قتل أخيه، فقتله ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: من الخاسرين في الدنيا بقتله رَحِمَه، ومن الخاسرين في الآخرة؛ لما يناله من العذاب المضاعف؛ لأن كل قتل في الدنيا عليه وزر منه؛ لكونه أوَّل من سنَّه.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا﴾ لما قتل قابيل أخاه هابيل جهل ما يفعل به، وقد رويت روايات كثيرة في قصته، فقيل: إنه تركه في العراء، **وقيل**: إنه حمله خوفًا عليه من السباع، والواضح أنه لم يعرف

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب: إثم من دل إلى الضلالة أو سن سنة سيئة، (رقم٧٣٢١)، ومسلم في كتاب القسامة، باب: بيان إثم من سن القتل، (رقم ١٦٧٧).

كيف يتصرف في جثته، فأرشده الله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ أي: دلَّه على الطريقة التي يدفن بها أخاه في الأرض، فلما رأى ما يفعل الغراب بالبحث في الأرض رأى أن يقلِّده فيما يفعل، فقال في نفسه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ﴾ أي: لماذا لا أكون مثل هذا الغراب، فأدفن في الأرض عورة أخي كما فعل الغراب؟ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ أي: أنَّه فكَّر فيما فعل بأخيه، فتحسَّر في نفسه عليه، وأصابته الندامة على ما فعل.

قلت: وهذا في كل خطيئة يفعلها الإنسان من قتلٍ وغيره، وذلك حين يغويه الشيطان على فعلها، فينزع به ضعف الإيمان إلى الخطيئة، ثم يجد نفسه بعد فعلها تتحسَّر ندامة على ما فعل، وإذا كانت هذه الخطيئة في حق الله، فإن مرتكبها قد يلجأ إلى الله بالتوبة، فيتوب عليه إذا صلحت توبته، أما إذا كانت في حق غيره-كما في حال القتل، والظلم، واغتصاب الحقوق والأعراض، وقتل النفس-فإن الحكم في ذلك هو القصاص، إما في الدنيا، أو في الآخرة، وفي كلتا الحالتين يندم الفاعل حين يجزى على ما فعل، ولعلَّ أفرادًا أو طوائفَ من قومنا ممَّن يستحلون القتل تحت أوهام وحجج باطلة يتأملون هذه الحادثة، وكيف أصاب الندم قاتل أخيه، وما سيناله

من العذاب الأليم في الآخرة؟، ويا ليت هؤلاء يدركون أن قتل الإنسان لأخيه الإنسان يعد أعظم جريمة عرفها منذ كينونته على الأرض.

أحكام وفوائد الآيات:

- ندب التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، كالبر والإنفاق في سبيله، والصدقة على الفقراء والمحاويج، وذبح الأضاحي، ونحو ذلك من أعمال الخير.
- الحكم بأن الحسد من أشد الخطايا، حيث يدفع بالحاسد إلى قتل من حسده، إما بقتله مباشرة، كما فعل قابيل مع أخيه هابيل، أو بقتله بعينه، والأصل فيه قول رسول الله -ﷺ- لأحد الصحابة لما أصاب صاحبه بعين: «ألا بركت، إن العين حق»(١)، وقوله -ﷺ-: «العين حق، ولو كان شيءٌ سابقَ القدرِ سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»(٢).
- وجوب دفن الميت لمواراة عورته، وتحريم تركه دون دفن، والأصل فيه إرشاد الله لقابيل للكيفية التي يدفن بها أخاه.
- أن القاتل يكون خاسرًا، ويُستوفى منه القصاص في الدنيا أو في الآخرة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب، باب: العين، (رقم ٣٥٠٩)، والنووي في المجموع شرح المهذب، (٩/٦٨)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطب، باب: الطب والمرض والرقى، (رقم ٢١٨٨).

- مشروعية التقرُّب إلى الله -تعالى- بصالح الأعمال، وأحبِّها إليه- تعالى-.

- أن الحسد من أسباب الصدود عن الحقِّ، والكيد لأهله؛ إذ يُعْمِي عن البصائر، ويُصِمُّ عن المواعظ، فينبغي رَدُّ الحاسد عن حسده بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وصَرْفُه إلى النظرِ في أسباب قصوره عن نيل المطالب، والسموِّ إلى المعالي، وتدارُكِ الحظوظ بالعملِ وسلامة القلب.

- أنه في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جَمَعَ في الكلام بين لفظ الجلالة وعنوان الربوبية؛ لتدورَ النفس بين مقام الهيبة والإجلال والتعظيم والمحبة.

- حاجة المجتمعات إلى التدابير الواقية من الجريمة، بالتربية الراشدة، وغرس بذور المودة والتسامح، ونبذ أسباب الشقاق والعداوة، وكم تَعَلَّمَتِ البشرية -ولا تزال- كثيراً من المعارف، وكم أبدعت كثيراً من الآلات والتقنيات استلهاماً واقتباساً من العوالم المحيطة بها!.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ

أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

بيان الآية:

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بسبب هذه الجريمة الشنعاء من قتل قابيل لأخيه هابيل ﴿كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: شرعنا أو أوحينا، وقد يكون: فرضنا على بني إسرائيل؛ وذلك لكثرة القتل فيهم، وقتلهم للأنبياء.

﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ﴾ أي: من قتل نفسًا على غير قصد الاقتصاص ﴿أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: قتلها بسبب ظلم كقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ أي: أن من يقتلْ نفسًا ظلمًا فكأنه قتل كل الناس؛ ذلك أن كينونة الواحد وكرامته عند الله مثل كينونة الجماعة وكرامتهم عنده، كما قال-تعالى-: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فمن يقتلْ أحدهم يكنْ آثمًا، كمن قتل كل الناس، وقد يقال: إن هذا مجاز؛ لأن قتل نفس واحدة ليس كقتل الناس كلهم على وجه الحقيقة، وأيًّا كان الخلاف حول المراد، فإنَّ عقوبة القتل عظيمة، وقد اقتضى عظمها تشديد العقوبة حقيقة ومعنى؛ لأن من يستهين بنفس واحدة يستهين

بغيرها من الأنفس.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ والمعنى في ذلك واحد، أي: أن من أنقذ نفسًا بالكف عن قتلها، فكأنه أحيا الناس جميعًا؛ لأنهم سلموا من شرِّه، فهو على سبيل التشبيه كأنه أحياهم؛ لأن حرمة النفس الواحدة وكرامتها مثل حرمة وكرامة النفوس كلها.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المراد بهم: اليهود، وفي هذا تسلية لرسول الله-ﷺ-عمَّا تعرَّض له من التآمر عليه من أسلاف اليهود بقتله، والمراد: أن الله-جلَّ ذكره-يقول لرسوله: إن هؤلاء سبق أن جاءتهم رسلنا بالبينات التي تدلُّهم على الخير، وتنهاهم عن الشر.

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي: أنهم رغم ما جاءهم من البينات إلا أن الكثير منهم ظالمون ومستمرئون للشر والفساد.

أحكام وفوائد الآية:

- تعظيم أمر النفس، وشناعة التعرض لها بالقتل، فمن يقتل نفسًا واحدة فكأنه قتل كل الناس؛ لأن التعدي على حرمة النفس

تعدٍّ على حرمة الله الذي خلقها، وخلق كل الناس، والحال كذلك بالنسبة لمن أحياها.

- بيان الله أنه أرسل الرسل إلى بني إسرائيل بالبينات والهدى، ومع ذلك كان الكثيرون منهم مسرفين في الفساد.

- أن النفوس الخبيثة التي جُبِلَتْ على الشر تحتاج إلى ما يردعها، ويَكُفُّ شَرَّها، والنفوس الطيبة الوادعة تحتاج إلى مَنْ يحميها ويَصُونها.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ محاربة الله ورسوله تكون بانتهاك حرماته، وقد نزلت هذه الآية في العرنيين، فيما روي: «أن قومًا من عكل أو من عرينة قدموا على رسول الله-

ﷺ-، فاستوخموا المدينة، فأمر لهم-عليه الصلاة والسلام-بلقاح، وأمرهم أن يشربوا من أبوال إبل الصدقة وألبانها، فلما صحوا قتلوا راعي النبي-ﷺ-، واستاقوا النعم، فأرسل في أثرهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، واقتص منهم مثل ما فعلوا بالراعي»[(١)].

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد: أن من قَتَل قُتِل، ومن قتل، وسلب المال، وأخاف الناس؛ قتل وصلب[(٢)]، ومن أخذ المال قطعت يده لأخذ المال، ورجله لإخافته للسبيل، ومن أخاف السبيل نفي من الأرض، وهذا حكم عام في كل من يقطع الطريق. ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أنَّ قتلهم وصلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم فيه ذل ومهانة لهم في الدنيا.﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: يدّخر الله لهم العذاب الشديد لقاء عدوانهم وجرأتهم على حدوده.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ هذا استثناء من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب: القسامة، (رقم ٦٨٩٩)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: حكم المحاربين والمرتدين، (رقم ١٦٧١).

(٢) هذا هو رأي الجمهور من العلماء.

الحكم فيما مناطه عقوبة قطع الطريق، وهو ما يسمى الحق العام، فالإمام فيه بالخيار، إن شاء عاقب فاعله، وإن شاء عفا عنه، وقد روى الطبري بسنده عن علي الأسدي: «أنه حارب، وأخاف السبيل، وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة، فامتنع، ولم يقدروا عليه حتى جاء تائبًا، وذلك أنه سمع رجلًا يقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فوقف عليه، فقال: يا عبد الله! أعد قراءتها، فأعادها عليه، فغمد سيفه ثم جاء تائبًا حتى قدم المدينة من السحر فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله-ﷺ-، فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليَّ، جئت تائبًا من قبل أن تقدروا عليَّ، فقال أبو هريرة: صدق، وأخذ بيده حتى أتى مروان ابن الحكم-وهو أمير على المدينة في زمن معاوية-، فقال: هذا عليٌّ، جاءنا تائبًا، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل، فترك من ذلك كله. قال: وخرج عليٌّ تائبًا مجاهدًا في سبيل الله في البحر، فَلَقوا الروم، فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم، فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم، فغرقوا

جميعًا»[(١)].

أما ما مناطه القتل والجراح والسرقة، أو ما يسمى بالحق الخاص، فهذا حق للأولياء، ومنه: القصاص، ولا يسقط إلا إذا عفوا عنه.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ويرحمهم إذا صدقوا في توبتهم.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن هذه الآية في الحرابة، وهي إشهار السلاح، والخروج على ولي الأمر؛ قصد السلب، وإخافة الطريق، ولولي الأمر الخيار فيما يراه لتأمين الطريق، وتأمين الناس، وحفظ أموالهم وأرواحهم، فقد يرى المصلحة في سجن المحارب، وقد يراه في حكم الآية، فمن قتَل قُتِل، ومن قتل وأخذ المال وأخاف الناس قُتِلَ وصُلِبَ، ومن أخذ المال وأخاف السبيل قطعت يده لأخذه المال، ورجله لإخافته السبيل، ومن أخاف السبيل فقط نفي، ومن تاب قبل القدرة عليه عُفي عنه ما لم يكن أخذ مالًا؛ فإنه يرده إلى أهله.

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، (٤/ ٢٢٣)، وتفسير ابن كثير، (٣/ ٩٣)، ومحاسن التأويل للقاسمي، (٤/ ١٢٤).

- جَمْعُ القرآنِ بينَ الحُكْمِ الشرعِيِّ والحكمةِ منه، وفي هذا تقريرٌ للأحكام، وترسيخٌ لها في القلوب، ودَفْعٌ لما قد يثار حولها من شُبَهٍ واعتراضاتٍ، كما يَعْقُبُ الحديث عن المعاصي-مهما عظمت- الدعوةُ إلى التوبة، وفتح باب الأمل والصلاح أمام العصاة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا نداء للمؤمنين يقتضي الأمر ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: الزموا طاعته، واتركوا نواهيه.

﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا كل ما يُتقرَّبُ به إليه من الأعمال الصالحة، والوسيلة: أعلى درجة في الجنة، وفيها قال رسول الله-ﷺ-: «إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلَّى عليَّ صلاة صلَّى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي

الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»[١].

ويؤكد ذلك ما ثبت عن حذيفة أنه سمع قارئاً يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ قال: «القربة»، ثم قال: «لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد-ﷺ-أن ابن أُم عبد من أقربهم إلى الله الوسيلة»[٢].

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ هذا أمر آخر للمؤمنين بأن يجاهدوا المشركين والكفار، ومن في حكمهم ممن يحارب الله ورسوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: لعلَّكم تبلغون الدرجة التي أعدَّها الله للمجاهدين، وهي السعادة في الآخرة.

قلت: والجهاد حكم قائم إلى أن تقوم الساعة، وإن لم تستطع الأُمة القيام به في ظرف من ظروفها؛ لعجز في طاقاتها أو وسائلها، إلا أنه حكم قضى به الله، وأوجبه عليها، فهي مسؤولة عنه يوم تشهد على الأُمم التي كانت قبلها، ويشهد عليها رسولها محمد-ﷺ-، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: استحباب: القول مثل قول المؤذن، (رقم ٣٨٤).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة المائدة، (٢/٣١٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.

﴿ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ في هذا وعيد شديد للكافرين، فلو جاء أحدهم بكل ما في الأرض وضعفه- وهذا مستحيل-؛ لكي يفتدي به من العذاب الذي يواجهه، ما قُبِلَ منه، وشاهده: قول رسول الله-ﷺ-: «يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا، أكنت تفتدي به؟، فيقول: نعم!، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك»(١)، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد الوجع.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾

المراد: أن الكفار حينما يلاقون من العذاب وحر جهنم يريدون الخروج منها، ولكنهم لا يستطيعون الخروج، وشاهده-أيضًا-: قول الله-جلَّ ذكره-: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم لا ينقطع.

ويؤيّد هذا ما ثبت عن جابر بن عبد الله-رضي الله عنه-قال: «إنكم تجعلون

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب، (رقم ٦٥٣٨)، ومسلم في كتاب صفة القيامة، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا، (رقم ٢٨٠٥).

الخاص عامًّا، هذه للكفار، اقرؤوا ما قبلها، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ﴾ هذه للكفار»[1].

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله قدَّم التقوى على التوسُّل لأنَّها هي الأساس، وبها يتقرب العبد لربِّه، وبدونها لا يُقبل العملُ.
- أنه يجب على العبد تقوى الله وطاعته، والتقرب إليه بالأعمال الصالحة، كالجهاد في سبيله، وهذا مطلب قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
- وجوب التوسّل إلى الله بالأعمال الصالحة.
- أن معيار القبول هو الإيمان والعمل الصالح مصحوباً بتقوى الله -تعالى-.
- بيانُ منهج الإسلام في تهذيب النفوس، والنهوض بها، وترويضها وتزكيتها، بعد أن فتح باب التوبة أمام الجُناةِ والآثمين.

---

(١) أخرجه ابن حبان في الإحسان، (١٦/٥٢٦-٥٢٧)، (رقم ٧٤٨٣)، قال محققه: «إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين».

- أن المنهاج الرباني يقيم الفرد المسلم، وينهض بالمجتمع، ويَصُونه بالأحكام الراشدة والبينات والمواعظ والأمثال البليغة التي تسمو بالأرواح، وتستنهض الهِمَمَ، وتُوقظ الضمائر، وتَجْلُو القلوب، وتزكو بها النفوس، وبذلك تَسْلَمُ المجتمعات من الجرائم.
- استحالة الفداء يوم القيامة من العذاب، وتقرير خلود الكفار في العذاب يوم القيامة.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٤٠﴾.

بيان الآيات:

﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ من يأخذ المال خفية من حرز بمقدار ربع دينار فأكثر ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾ كذلك، وهذه الآية ذات صلة بما قبلها، فلما بيَّن الله عقوبة المحارب بيَّن عقوبة السارق بيانًا واضحًا؛ لما يجب من حفظ أرواح الناس وأموالهم بوصف انتهاكها انتهاكًا لحرمات الله

﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾.

قلت: وقد يقال: لماذا القطع؟، ولماذا هذه العقوبة الشديدة كما يصفها الذين يصعب عليهم فهم أحكام الله وحكمته في خلقه، أو يصفها الذين يريدون النيل من الإسلام؟.

فيقال لهؤلاء: إن الله لما خلق الإنسان لعبادته جعل المال أحد الوسائل التي يستعين بها في حياته إلى أن يبلغ أجله المسمى، ومن حكمة الله: أن قضى لصاحب المال باختصاصه به؛ ذلك أنه لما جمعه بجهده أصبح حقه فيه على وجه الإطلاق، فلا يجوز إذًا لغيره أن يتعدى عليه دون إذنه، فإن تعدَّى عليه صار له حق الدفاع عنه، والدفاع عن الأنفس والأموال والأعراض من واجبات الولاية، وهذه تستمد أحكامها مما أمر الله به، ولأن الله بحكمته قضى أن منع السرقة لا يكون إلا بهذه العقوبة، فقد وجب على عباده القضاء بها ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولو كانت عقوبة السارق على نحو أخف مما يقوله الجاهلون بحكم الله لكانت السرقة أمرًا سهلًا، وكان الناس يتنازعون ويقتتلون من أجل حفظ أموالهم، فتستباح عندئذ حرمات، فيحمي

الأقوياء أموالهم، وتستباح أموال الضعفاء، فحكم الله-وحكمه الحق-أن تكون عقوبة السرقة هي القطع ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: أن قطع أيديهما جزاء لتعديهما على أموال الناس، ونكال لهما، وعبرة لغيرهما، فتمنعه هذه العقوبة من السرقة .

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ أي: من تاب بعد سرقته، وأخلص توبته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ﴾، وفي هذا وعد منه-جل ذكره-بقبول توبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر لعباده سيئاتهم، ويرحمهم إذا أنابوا إليه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا خطاب لرسول الله-ﷺ-ولكل واحد من عباده أن الله هو المالك لكل من في السماوات والأرض وما بينهما ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده إذا سرق ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ من عباده إذا تاب من السرقة وأصلح ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم السرقة؛ لما فيها من التعدي على حقوق الناس، وعقوبتها: القطع، ويكون القطع في ربع دينار فأكثر؛ لما روته عائشة-رضي الله عنها-أن رسول الله-ﷺ-قال: «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا»[(١)]، وثبت عن ابن عمر: «أن رسول الله-ﷺ-قطع سارقاً في مِجَنٍّ قيمته ثلاثة دراهم»[(٢)].
- قبول توبة السارق، وتقبل هذه التوبة قبل بلوغ جرمه إلى الحاكم، فإذا بلغه وجبت العقوبة، والأصل فيه حديث عائشة-رضي الله عنها-: «أن قريشًا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله-ﷺ-؟، قالوا: فمن يجترئ عليه إلا أُسامة بن زيد حِبُّ رسول الله، فأتى بها رسول الله-ﷺ-، فكلَّمه أسامة فيها، فتلوَّن وجه رسول الله، وقال: «أتشفع في حد من حدود الله-عز وجل-؟»، فقال أُسامة: استغفر لي يا رسول الله!، فلما كان العشي قام رسول الله-ﷺ-،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب: قول الله-تعالى-: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، (رقم٦٧٩٠)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: حد السرقة ونصابها، (رقم ١٦٨٤).
(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، (١٢/٩٧)، (رقم ٦٧٩٧-٦٧٩٨)، ومسلم في كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها، (رقم ١٦٨٤-١٦٨٦).

فخطب في الناس، وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «يا أيُّها الناس! إنما ضلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت، فقطعت يدها، قالت عائشة: فحَسُنَتْ توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله-ﷺ-»(١).

- أن الحكم لله وحده، لا ينازعه فيه منازع، فهو في حكمه للسارق أعلم وأرحم بخلقه.
- أن المنهج القرآني يهدف إلى إصلاح المجرم، وتأهيله للعودة إلى المجتمع عضواً نافعاً، ومؤمناً صالحاً، وعاملاً منتجاً.
- التنويه بمنهج القرآن الكريم في بيان الأحكام وتقريرها، ودفع ما يُثار حولها من شبهات.
- في خَتْمِ الآيات الثلاث بأسماء الله الحسنى ما لا يُحصى من الفوائد واللطائف، فكل خاتمة مناسبة لآيتها، مقرِّرة لما ورد فيها؛ إذ تُنَوه بثمرات معرفة الله-تعالى-بأسمائه الحسنى،

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، (رقم ٤٣٠٤)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، (رقم ١٦٨٨).

وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع، واستقامة الحياة.

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ المخاطب رسول الله-ﷺ-، والمراد: لا تهتم بأولئك المنافقين، وتهافتهم على الكفر

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾أي: هؤلاء الذين يكذبون، فيقولون بألسنتهم: آمنا وصدقنا ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ أي: أن قلوبهم لم تؤمن، بل هي خاوية وخالية من الإيمان.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي: ولا تهتم، ولا تبال، ولا تحزن على اليهود الذين يسمعون الكذب من أحبارهم، وما يقولونه من الافتراء على الله.

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ أي: أن هؤلاء اليهود الذين يسمعون الكذب من أحبارهم يأتون إلى مجلسك؛ ليسمعوا ما تقول؛ لينقلوه إلى اليهود الآخرين الذين لم يأتوا إلى مجلسك، والمراد بهم: بنو قريظة كانوا يأتون إلى مجلس رسول الله-ﷺ-؛ ليسمعوا ما يقول؛ ليبلغوه إلى يهود خيبر وفدك؛ لكونهم جواسيسَ وعيونًا لهم.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ أي: يؤوّلون ويبدّلون الكلام، ويحرّفونه عن حقيقته، وأخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «يعني: يحرّفون حدود الله في التوراة»(١).

---

(١) التفسير، (٣/ ٩٦٥).

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ۚ﴾

أي: إن أفتاكم محمد بهذا الكلام الذي قلناه فخذوه؛ لأنه الحق، وإن أفتاكم بخلافه فلا تعملوا به؛ لأنه باطل، وشاهد هذا: ما روي: «أن رجلًا وامرأة منهم زنيا، فقال لهم رسول الله-ﷺ-: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟، قالوا: نسخم وجوههما، ونخزيهما، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأْتوا بالتوراة، فأَتَوْا بها، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد!، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله-ﷺ-، فرجما»(١).

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾ أي: إن من أراد الله إضلاله بسبب إعراضه عن الله، وتحريفه لكلامه، فلن تملك له من الله شيئًا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾ أي: بسبب أعمالهم الظالمة، وجحودهم لدين الله وكتابه، وحسدهم، وعنادهم،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب: الرجم في البلاط، (رقم ٦٨١٩)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، (رقم ١٦٩٩).

وتآمرهم على رسوله، لم يطهِّر الله قلوبهم.

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ﴾ أي: يلحقهم في الدنيا الذل والمهانة

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: بسبب كفرهم.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ توكيد لحال اليهود المشار إليهم في الآية السابقة ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ﴾ السحت: الرشا، أو الربا، أو أكل مال حرام، وسمي سحتًا لأنه عديم البركة، فيسحته الله أي: يمحقه، وشاهده من السنة: قول رسول الله-ﷺ-: «إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به»[1].

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ﴾ أي: إذا جاءك أهل الكتاب، وطلبوا منك أن تحكم بينهم، فأنت مخيَّر بين أن تحكم بينهم، أو لا تحكم.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «آيَتَانِ نُسِخَتَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ-يَعْنِي الْمَائِدَةَ-: آيَةُ الْقَلائِدِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ﴾، وَكَانَ النَّبِيُّ-ﷺ-مُخَيَّرًا، إِنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الجمعة، باب: ما ذكر في فضل الصلاة، (رقم ٦١٤)، وحسَّنه، وصحَّحه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

فَرَدَّهُمْ إِلَى أَحْكَامِهِمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا فِي كِتَابِنَا»[(١)].

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ أي: أنهم حين أرادوا التحاكم إلى رسول الله -ﷺ- كانوا يريدون أن يحكم لهم بما يوافق أهواءهم، فإذا أعرض عنهم فسوف يكون ذلك عسيرًا عليهم، وقد يتعرضون له جزاء إعراضه عنهم، فذكر الله له أنهم لن يضروه؛ لأن الله هو الذي يحميه من شرورهم.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: إن اخترت أن تحكم بينهم فليكن حكمك عليهم بالعدل؛ ذلك «أن بني النضير يدَّعون أنهم أشرف من بني قريظة، فإذا قتل رجل من قريظة رجلًا من بني النضير قتل به، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلًا من قريظة أَعطى ذويه الدية، فلما قتل رجل من بني النضير رجلًا من قريظة، قال هؤلاء: أعطونا القاتل لنقتله، فقالوا: نتحاكم عند محمد، فنزلت هذه الآية»[(٢)].

---

(١) التفسير، المائدة، (آية ٤٢)، حديث (٥١)، وأخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، المستدرك، (٢/٣١٢)، وقال النحاس: «هذا إسناد مستقيم»، الناسخ والمنسوخ، (ص١٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الديات، باب: النفس بالنفس، (رقم ٤٤٩٤)، والنسائي في كتاب القسامة، باب: تأويل قوله-تعالى-: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، (رقم ٤٧٣٢) وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي: الذين يقولون الحق، وبه يعدلون ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ أي: أن من العجب أنَّهم يحكِّمونك في الزناة وهم لا يصدِّقونك، مع أن الحكم لديهم في التوراة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ أي: يعرضون عن الحكم الذي حكمت به-وهو الرجم-مع أنه موافق لما جاء في التوراة التي بين أيديهم.

﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: أنهم ليسوا بمؤمنين بما حكمت به، ولا بما عندهم في التوراة، وإنما يريدون الحكم بأهوائهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم تحريف الكلام، أو تأويله، أو تبديله عن مواضعه.
- تقديم ذكر المنافقين على اليهود لأنَّ خطرهم أشد، وما تمكَّن اليهود، ولا قامت لهم قائمة إلا بمساندة المنافقين، وضعاف النفوس.
- بيان ما جُبِلَ عليه اليهود من حُبٍّ للكذب، وشغف لسماعه، وتحالُفٍ مع الآخرين؛ لضرب الإسلام، والوقيعة بالمسلمين، وماذا يُنتظر من أُمةٍ أمسى الضلالُ منارَتها، وأضحى الحرامُ شعارها.
- أن لأهل الكتاب المقيمين بين المسلمين أن يتفقوا بينهم فيما مناطه

أحوالهم الشخصية، كالزواج، والإرث، ونحو ذلك، أما ما يتعلق بالقضايا العامة فيرى الإمام أبو حنيفة أنهم إذا احتكموا إلى المسلمين حملوا على حكم الإسلام، فلو زنى أحدهم بمسلمة، أو سرق أقيم عليه الحد، وإن كان الزانيان من أهل الذمة فليس عليهما حد، وهو مذهب الإمام مالك[١]، وفي قول للإمام أبي حنيفة: يجلدان، ولا يرجمان[٢]، ويرى الإمام الشافعي وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة، وأبو ثور أنهما إذا أتيا راضِيَيْنِ بحكم الإسلام فعليهما الحد[٣].

قال ابن خويزمنداد: «ولا يرسل الإمام إليهم إذا استعدى بعضهم على بعض، ولا يحضر الخصم مجلسه إلا أن يكون فيما يتعلق بالمظالم التي ينتشر منها الفساد، كالقتل، ونهب المنازل، وأشباه ذلك، فأما الديون والطلاق وسائر المعاملات فلا يحكم بينهم إلا بعد التراضي والاختيار، وله ألا يحكم، ويردهم إلى حكامهم، فإن حكم بينهم حكم بحكم الإسلام، وأما إجبارهم على حكم المسلمين فيما ينتشر منه الفساد فليس على الفساد عاهدناهم، وواجب قطع الفساد عنهم منهم ومن غيرهم؛ لأن في

(١) حاشية الدسوقي، (٤/ ٣١٤ – ٣٢١).
(٢) حاشية رد المحتار لابن عابدين، (٤/ ١٦).
(٣) مغني المحتاج للشربيني الخطيب، (٤/ ١٤٧)، وحاشية ابن عابدين، (٤/ ١٦).

ذلك حفظ أموالهم ودمائهم، ولعل في دينهم استباحة ذلك، فينتشر منه الفساد بيننا، ولذلك منعناهم من بيع الخمر جهارًا، وأن يظهروا الزنا وغير ذلك من القاذورات؛ لئلا يفسد بهم سفهاء المسلمين، وأما الحكم فيما يختص به دينهم من الطلاق والزنا وغيره، فليس يلزمهم أن يتدينوا بديننا، وفي الحكم بينهم بذلك إضرار بحكامهم، وتغيير ملتهم، وليس كذلك الديون والمعاملات؛ لأن فيها وجهًا من المظالم، وقطع الفساد»(١).

- وجوب العدل في الحكم، سواءٌ كان الخصم مسلمًا أم غير مسلم.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾.

بيان الآية:

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ أي: فيها بيان للحق لما أنزلت على موسى، وهذا من مدح الله له -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وللذين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ١٨٥).

جاؤوا من بعده من النبيين الذين أسلموا، واتبعوه، ولم يعصوه.

﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: حكم بها أنبياء بني إسرائيل الذين أتوا بعد موسى على الذين هادوا، وهم اليهود الذين انقادوا، واستجابوا لما جاء به النبيون من بعد موسى.

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ أي: يحكم بها-أيضاً-أهل العلم والمعرفة من بني إسرائيل ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما حفظهم به أنبياؤهم للكتاب دون تبديل أو تحريف فيه.

﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ أي: كان هؤلاء شهداء على الكتاب، بمعنى: رقباء وأمناء عليه من التبديل والتحريف، والمعنى الإجمالي للآية هو: أن النبيِّين من بني إسرائيل من بعد موسى حكموا بأحكام التوراة على الذين هادوا دون تبديل أو تعديل فيها، كما أن الربانيين والأحبار من بني إسرائيل حكموا بالتوراة بسبب استحفاظهم لها، كما نزلت، فلم يبدِّلوا فيها، ولم يحرفوا، وأنهم-أي: النبيون والربانيون والأحبار-كانوا عليها شهداء من التبديل، خلافًا لليهود الذين حرَّفوها، وبدَّلوا فيها حسب أهوائهم، كما حدث في آية الرجم التي أخفوها.

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ وهذا أمر لليهود بألا يخشوا الناس في إظهار ما ورد في التوراة من صفة محمد-ﷺ-، وصدق رسالته، وإظهار آية الرجم .

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾ فيه إشارة إلى تأويلهم للأحكام؛ لأخذ الرشا عليها، أي: لا تخفوا أحكام الله من أجل عرض من الدنيا تأخذونه، أو مجاملة لأحد منكم كما فعلتم بعدم رجم الزاني والزانية؛ لكونهما من أشرافكم كما تدَّعون.

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

أي: أن من يعطِّل أحكام الله، أو يحكم بهواه فهو كافر.

أحكام وفوائد الآية:

- أن من حكم بغير ما أنزل الله كالذي يحكم بهواه، أو يشرع خلاف شرع الله فهو كافر، فإن كان هذا الحكم عن قصد وعلم فهو كفر محض يخرج عن الملة، وإن كان عن معصية فهو ذنبٌ أَمْرُ العفوِ عنه أو عقابه إلى الله.
- بيان مقاصد التوراة المنزلة وثمراتها في حياة بني إسرائيل، حين حكم النبيون والربانيون والأحبار بها.
- التعريض بما آل إليه حالُ اليهود من إفراطٍ وتفريط وإضاعةٍ،

ونكبة عن سَنَنِ النبيين والربانيين والأحبار.

- أن الكفر مراتب، منها: الكفر البواح، ومنها: كفر دون كفر.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي: وفرضنا عليهم فيها-أي في التوراة- ﴿أن ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي: تقتص بها ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ أي: تؤخذ بها ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ أي: يجدع به ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ أي: تقطع بها ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أي: إن كان الاعتداء كسراً كسرت السن، وإن كان قلعاً قلعت ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ﴾ أي: يتساوى بعضها في القصاص ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي: من تصدَّق على من جنى عليه، ففي هذه الصدقة تكفير لذنوبه، وإن لم يتصدَّق بأن اقتصَّ ممن جنى عليه يكون قصاصه ممن جنى عليه مقابل جنايته.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المعاندون لأمر الله المعارضون لأحكامه.

أحكام وفوائد الآية:

- الكَتْبُ بمعنى: الفرض، وقد بيَّن الله-تعالى-أن النفس تقتل بالنفس، ثم بيَّن القصاص في أساسيات الأعضاء، وهي: العين، والأنف، والأذن، والسن، ثم بيَّن أن في الجراحات القصاص، أي: تقتص الجراح بالجراح.
- المماثلة في القصاص، فلا يكسر المجني عليه سنَّين مقابل سن واحدة، ولا يفقأ عينين مقابل عين واحدة، وهكذا، وهذا الحكم، وإن كان شرعًا لبني إسرائيل، فهو شرع لنا؛ لأنه يتفق مع أحكام ديننا، ومبناه المساواة بين الأنفس، خلافًا لما كان عليه العمل في بني إسرائيل من تفضيل بعضهم على بعض في القصاص، ولما طلبوا من رسول الله-ﷺ-أن يحكم بالتفاضل في قتلاهم أنكر ذلك عليهم، وقال: «القتلى بسواء» أي: سواء.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ

ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أتبعنا أنبياء بني إسرائيل موسى، ومن بعده بعيسى ابن مريم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ﴾ أي: متبعاً لها في أحكامه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: أنزلنا عليه الإنجيل فيه هداية وبيان ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: أنه أنزل غير معارض لأحكام التوراة سوى أنه أباح لبني إسرائيل ما كان محرماً عليهم، وشاهده قول الله على لسانه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿وَهُدًى﴾ أي: أنه أُنزل ليبيّن للنصارى طريق الهداية ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ليعتبروا بما فيه من الأحكام من النهي عن المحرَّمات.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ أي: أن هذا الكتاب أنزل على النصارى؛ ليحكموا بما أنزل الله فيه من الأحكام

والبينات والدلائل، ومنها: البشارة بنبوة ورسالة محمد-ﷺ-؛ وشاهده: قول الله-جلَّ ذكره-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، والمراد به: القرآن.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: أن من يحكم بهواه، ويترك ما أنزل الله من الأحكام، فهو فاسق خارج عن حكم الله، معادٍ للحق، وناصر للباطل، متبع لهواه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الإنجيل مصدق للتوراة، كما هو حال الكتب السماوية يصدق بعضها بعضًا.
- أن الإنجيل أنزل على النصارى؛ ليحكموا بما فيه، ومنه: البشارة بنبوة ورسالة محمد-ﷺ-، ودينه الذي نسخ كافة الأديان، وأصبح هو المرجع في الأحكام.
- أن من لم يحكم بما أنزل الله من الأحكام يُعد فاسقًا معاديًا للحق، ومناصرًا للباطل.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً
وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي
مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

بيان الآيات:

لما ذكر الله-عَزَّوَجَلَّ-أنه أنزل التوراة على موسى، وأنزل الإنجيل على عيسى، وهما الكتابان الشهيران اللذان أنزلا على اليهود والنصارى ختم ذلك بذكر القرآن، فقال-جلَّ ذكره-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أنزلنا عليك القرآن يأمر بالحق، وينهى عن الباطل، وفيه الآيات، والدلائل، والبيّنات.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد به: الكتب، أي:

من جنسها، وهي التي أنزلت على الأنبياء السابقين، ومنها: التوراة، والإنجيل ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ أي: حاكمًا عليها بصدق ما جاء فيها من عند الله، ونافيًا لما دخل عليها من التحريف، أو فساد التأويل.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ أي: احكم يا نبينا محمدًا بين الناس كلهم بما جاء في القرآن من أحكام الله وشرعه.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أي: احكم بينهم بما في القرآن، واترك أهواءهم؛ فإنها ضلال وفساد.

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ أي: طريقًا يختصّ به.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وفي هذا بيان من الله أنه لو شاء لجعل الناس أُمة واحدة، يدينون بدين واحد، ويتحدثون بلسان واحد، وأحكام واحدة، ولكنه بحكمته جعل لكل رسول شريعة، كشريعة نوح، وشريعة موسى، وشريعة عيسى، وغيرها من الشرائع التي أُنزلت على الرسل، ثم نسخ هذه الشرائع، وجعل شريعة الإسلام شريعة لكل الناس، وجعل رسوله ونبيه محمدًا-ﷺ-خاتم الأنبياء والمرسلين، وشريعته خاتمة الشرائع وآخرها.

﴿ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ ﴾ أي: أنه لما جعل الشرائع متعددة قبل الإسلام كان من أجل اختبار من أنزلت إليهم هذه الشرائع، فيحاسبهم بالحسنى على إيمانهم بها، أو بالعقاب على عدم اتباعها.

﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ أي: بادروا بفعل الطاعات، واتباع ما شرعه الله في كتابه العظيم، وما جاء به رسوله ونبيه محمد-ﷺ-

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا ﴾ أي: أن مصيركم إليه

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ أي: سوف يجزي المطيعين له ولرسوله بما يستحقونه من الأجر العظيم، وسيجزي المكذبين المنكرين للحق بالعذاب الأليم.

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ كعادة اليهود في تكذيب الأنبياء والرسل، ومجادلتهم بالباطل اجتمع-كما سبق ذكره-عدد من أحبارهم، منهم: عبدُ الله بن صُورِيًّا الأعور، وكعب بن أُسَيْدٍ، وشَأسِ بن قيسٍ، وقالوا: نذهب إلى محمد لعلَّنا نفتنه عن دينه؛ فإنما هو بشر، فأتوه، فقالوا: يا محمدا!، قد عرفت أنَّا أحبار اليهود وسادتهم، وإن اتبعناك سوف يتبعك اليهود، وأن بيننا وبين قوم

خصومة، فنحتكم إليك، فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك، فأنكر رسول الله-ﷺ-قولهم؛ فنزل قول الله-تعالى-: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾(١) أي: احكم بينهم بالكتاب، وبما أنزل الله إليك من شرعه.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تطع ما قالوه من الهوى والضلال، فحكمك يجب أن يكون بالعدل الذي بيَّنه الله لك

﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ ومن ذلك: إنكارهم للرجم، فاحذر إذًا كيدهم، ودسائسهم، وتدليسهم؛ فهم أعداء لك، ولِمَا جئت به من دين الله، وحاشا أن يقبل رسول الله منهم ما طلبوه منه، ولكنه تنبيه من الله لنبيه-وهو في مقام الرسالة-أن يكشف له نوايا هؤلاء الأحبار وأباطيلهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله، ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ أي: اعلم أن الله سوف يصيبهم ببعض ذنوبهم، ومنها: إعراضهم عن حكم الله، وفيه دليل على أن لهم ذنوبًا كثيرة، وأن إعراضهم عن حكم الله

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، (٨/٥٠٢)، وتفسير ابن أبي حاتم، (٤/١١٥٤) وأسباب النزول للواحدي، (ص ١٩٨)، وسنده حسن.

واحد منها.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ المراد بهم اليهود وغيرهم ممن لا يقبل حكم الله، ويريد التحاكم بالهوى.

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ ما زال السياق في أعمال اليهود، وقيل: إن اليهود أو طوائف منهم طلبوا-كما سبق ذكره-من رسول الله-ﷺ-أن يحكم بينهم بالتفاضل بين القتلى، فقال-عليه الصلاة والسلام-: «القتلى بواء»[1] أي: سواء.

وقيل: إن حيَّين من العرب طلبوا ذلك، وقد يكون المراد: أن اليهود يريدون الحكم بينهم كالحكم في الجاهلية القائم على الجهل والضلال والهوى، وأيًّا كان التأويل فإن هذا عام في كل من يريد أن يحتكم إلى حكم غير حكم الله.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي: لا أحد أحسن ولا أعدل من الله في حكمه، ولكن هذا لا يعرفه إلا أهل العقول الذين نوّر الله بصائرهم بسبب إيمانهم، فأيقنوا ورضوا بأحكامه، وتدبيره في خلقه بالعدل، وأنكروا كل حكم وكل شرع يخالف حكمه

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة، (١٤/٣٢٣)، (رقم ٢٨٥٥٢).

وشرعه؛ وفي هذا روى ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله -ﷺ- قال: «أبغض الناس إلى الله -عز وجل- ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه»[1].

أحكام وفوائد الآيات:

- أن القرآن هو المصدِّق للكتب السابقة، والحاكم لها، ووجوب الاحتكام إليه وإلى سنة رسول الله محمد -ﷺ- في مختلف القضايا، وتحريم الاحتكام إلى ما يخالفهما من الشرائع أو القوانين.

- أن الحكمة من اختلاف الشرائع بين العباد قبل الإسلام هي ابتلاؤهم؛ ليتبيَّن من الذي يطيع أمر الله، ومن الذي يعصيه.

- أن في التعبير بـ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بنون العظمة تعظيمًا للمنزِّل وما أنزل، وفي تقديم الجار والمجرور تشويقٌ للمنزَّل، واعتناءٌ بالمنزَّل عليه.

- الاستباق إلى الخيرات ممَّا يَحُدُّ من فورةِ الخلاف، ويُسَكِّنُ من ثورته، بل ويجمعُ الناس على هدفٍ واحدٍ، ويضع التنافس في موضعه الصحيح.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب: من طلب دم امرئ بغير حق، (رقم ٦٨٨٢) .

- أن القرآنَ الكريم جَمَعَ بين كونه مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها، وبين التصديق والهيمنة تلازمٌ، فهو مُصدِّقٌ لما في هذه الكتب من حقائقَ لم تتبدَّلْ، ومُصَدِّقٌ بالكتب المنزلة قبل أن تُحرَّفَ وتُبدَّلَ.
- التعبير بــ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ لأنَّ محاولاتهم ومساعيَهم قائمةٌ على التزيين والتلبيس والتضليل.
- أن ما يحصل للعباد من البأساء والضراء هو بسبب ذنوبهم.
- أن أحكام الجاهلية أحكام فاسدة، وأن دين الإسلام وأحكامه هدى ورحمة للمؤمنين.

﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ
بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ
فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ
أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ
إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾.

بيان الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾

أي: لا توالوهم أو تنصروهم، أو تستنصروا بهم أو تحابوهم، أو يكون بينكم وبينهم مودة، كما توادُّون بعضكم بعضًا؛ لأنهم على غير دينكم، ولا يحبُّونكم، كما قال-تعالى-: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١١٩].

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ وسبب النهي عن موالاتهم هو عداوتهم للدين ومعاندتهم لرسول الله، وهو معنى قوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ أي: أنَّهم يحصرون موالاتهم فيمن هم من دينهم وملتهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ أي: أن من يواليهم منكم أيها المسلمون فهو منهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إنه لا يهديهم بسبب كفرهم ومعاندتهم لما جاءهم به كتاب الله، وما بلَّغهم به رسوله، فمن يواليهم فهو في حكمهم؛ لأنه يكون ظالمًا مثلهم.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ المراد بهم المنافقون ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ أي: يسرعون في موالاتهم ومودتهم ﴿يَقُولُونَ

﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ أي: نخشى أن تدور الأيام، ويكون النصر لليهود وللنصارى، فتكون عندئذٍ لنا يد عندهم؛ ذلك أن المنافقين- ومعهم اليهود-كانوا يشكّون في أمر رسول الله-ﷺ-، ويزعمون أنه لن ينتصر.

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ أي: فتح مكة وانتصار المسلمين في معاركهم ضد المشركين ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ المراد به: الفصل في أمر اليهود.

﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أي: عندئذٍ يندم المنافقون على ما كانوا يسرونه في أنفسهم من موالاة اليهود والكفار، وشكّهم في انتصار رسول الله-ﷺ-، المراد: أنه حينما يأتي النصر من عند الله، وينهزم اليهود ومن معهم يندم المنافقون على موالاتهم لهم، وعندئذٍ يتعجب المؤمنون منهم، وكيف كانوا يظهرون إيمانهم ومودتهم للمؤمنين وهم على خلاف ذلك؟، وبيّن الله-تعالى-في موضع آخر أن سبب حلفهم بالكذب للمسلمين أنهم منهم، إنما هو الفَرَق-أي: الخوف-، وأنهم لو وجدو محلًّا يستترون فيه عن المسلمين لسارعو إليه، بسبب بغضهم للمسلمين، وهو قوله: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم

مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧]، ففي هذه الآية بيان سبب أيمان المنافقين، ونظيرها قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦]، وبيَّن-تعالى-في موضع آخر أنهم يحلفون تلك الأيمان ليرضى عنهم المؤمنون، وأنهم إن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم، وهو قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي يقول المؤمنون: لقد حبطت أعمال هؤلاء المنافقين، فأصبحوا خاسرين في الدنيا بما أظهره الله من نفاقهم، وكشف أسرارهم، وخاسرين في الآخرة بما يجازيهم به الله من العذاب.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم موالاة اليهود والنصارى ونحوهم، ولكن هذا فيما يتعلق بأمور العقيدة؛ أما التعامل معهم في أمور الدنيا فهذا مما يجوز، ولا خلاف فيه بين المسلمين، وقد كان رسول الله-ﷺ- يتعامل مع اليهود رغم ما كانوا يبيِّتون له من المكائد

والدسائس، وموالاة أعدائه، ولم يتعرَّض لهم-عليه الصلاة والسلام-إلا بعدما نقضوا العهد الذي بينهم وبينه، وينبني على الحكم الأول: أن مَنْ والَى الكافر على المسلم أصبح مثله.

- كشف سلوك المنافقين ومماألأتهم لأعداء المسلمين، وهذا هو شأنهم في كل زمان يظهرون مودتهم للمسلمين ومحبتهم، لهم، وهم على خلاف ذلك.
- أن مَنْ تَبَصَّر بالعاقبة لم يقع في المرهوب، وظَفِرَ بالمطلوب.
- أن موالاة أعداء الله لا تقع إلا من أصحاب القلوب المفعمةِ بالهواجس والشهوات.
- بيان عاقبة الظالم الوخيمة، وحرمانه من التوفيق والسداد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾.

بيان الآيات:

﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ المراد: من يتولَّ عن دينه، إما أن يعود إلى الشرك كما كان عليه من قبل، أو يعتنق دين أهل الكتاب.

وقد حدث في تاريخ الإسلام ارتداد بعض الأعراب، وأخبر الله عنه في هذه الآية قبل وقوعه، ففي عهد رسول الله-ﷺ-ارتد بنو مذحج ورئيسهم الأسودُ العَنْسِي، كما ارتد طُلَيحةُ بن خُوَيلدٍ الأسدي وقومه، وارتد مسيلمة الكذاب وقومه وزوجته سَجَاح، وارتدت قبائل وأقوام، وقد قضى جنود المسلمين عليهم في عهد رسول الله-ﷺ-وعهد أبي بكر وعمر-رضي الله عنهما-.

﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ هذه الآية لما نزلت أشار رسول الله-ﷺ-إلى أبي موسى الأشعري، فقال: «قوم هذا»(١).

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: يحبون المؤمنين، ويرحمونهم، ويودونهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: غلاظ عليهم، لا يخافونهم.

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يبذلون أنفسهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله لإعلاء كلمته ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ أي:

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك، (٢/٣١٣)، وصححه ابن الملقن كما في إتحاف الخيرة، (١/١٦٣).

أنهم لا يخشون ولا يخافون إلا الله، فهم بهذه الصفة خلاف المنافقين الذين يخشون الناس، ولا يخشون الله.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: أن هذه الصفة التي هم عليها كانت فضلًا من الله لهم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع في فضله، عليم بحاجات خلقه.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ الناصرُ هو الله-تعالى- لرسوله-ﷺ-والمؤمنين الذين يحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها، وبكمال طهورها، وتمام أركانها، ويدفعون الزكاة لمستحقيها كما فرض ربُّنا، مع ملازمتهم للركوع والخضوع لله.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المراد: أن من يرضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فإنه سيكون من حزب الله، وهذا الحزب وأهله هم الغالبون المنتصرون؛ وشاهده-أيضًا-: قول الله-جلَّ ذكره-: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ

جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢].

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بكفر من يرتد عن دين الإسلام.
- في الآية (٥٤) إخبار مستقبلي أنَّ الله-عَزَّوَجَلَّ-يُحَذِّر من الردَّة، فإن حصل ذلك فإنَّ الله-تعالى-سوف يأتي بدلهم بقوم يحبُّهم ويحبُّونه.
- الحكم بأن من أحب الله أحبه، وهذا حكم عام، أما من حيث الخصوص فقد أحب الله أبا بكر الصديق وصحابة رسول الله-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-والأشعريين قوم أبي موسى الأشعري كما أحبوه.
- أنه يجب على العبد محبة المؤمنين، وإظهار عزة الإسلام على الكافرين.
- ذِكْرُ سُنَّةِ الاستبدال، فمَنْ تخاذل عن نصرة الدين فسوف يستبدل الله به مَنْ يؤيد دينه، ويقوم به.
- أن من صفات الجيل المنشود محبة الله-تعالى-لهم، ومحبتهم الصادقة له، وموالاة أولياء الله، والترفُّق بهم، ولين الجانب

والتلطف، والتواضع معهم، مع القوة والحزم في التعامل مع الكافرين بما لا يتنافى مع العدلِ، ولا يتعارض مع التسامح الذي دعا إليه الإسلام.

- أنه قَدَّم محبته-تعالى-على محبتهم تعظيماً للمقدَّم، ولأنَّها هي الأساس، وبمحبته-تعالى-أحَبُّوه، فالمحبة كلها منه.
- فضل الجهاد في سبيل الله، وعدم الخشية في قول الحق، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.
- أن من تولَّاه الله ورسوله والمؤمنون كانت له الغلبة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ۝٥٨﴾.

بيان الآيتين:

ورد في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «كَانَ رِفَاعَةُ ابْنُ زَيْدِ بْنِ التَّابُوتِ وَسُوَيْدُ بْنُ الْحَارِثِ قَدْ أَظْهَرَا الْإِسْلَامَ، ثُمَّ نَافَقَا، وَكَانَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُوَادُّونَهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾» [المائدة: ٦١][(١)].

أي: أنهم لما كانوا على هذه الحال من الاستهزاء بالدين فلا يجوز لكم أن توالوهم أو تصادقوهم، بل يجب عليكم البعد عنهم، وقد عمَّم الله الحكم بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ﴾ أي: لا توالوا أيًّا من هؤلاء بسبب استهزائهم بدين الله.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في موالاة الكفار الذين اتخذوا دين الله هزوًا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم حقًّا مؤمنين، فلا تتخذوا هؤلاء أولياء لكم.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ﴾ هذا بيان لما ورد في الآية قبلها عن الذين يتخذون دين الله هزوًا ولعبًا، وهم على وجه التحديد من الذين أوتوا الكتاب والكفار عمومًا، ويدخل فيهم المنافقون، فهؤلاء إذا سمعوا النداء للصلاة سخروا منه، وإذا رأوا المصلين يركعون ويسجدون سخروا منهم، وأخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن الزهري قال: «ذكر الله الأذان في كتابه، فقال:

---

(١) التفسير، (٨/ ٥٣٤).

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾»[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أنهم بهذا المستوى القبيح من الفعل جهلة وغفل وسفهاء؛ لأنهم لو كانوا على عقل لما استهزؤوا بنداء الله وعبادته.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تحريم موالاة من يستهزئ بدين الله، أو يسخر من عباده المؤمنين.
- أن الأذان واجب في حضر المسلمين وسفرهم؛ لأنه تنبيه للمسلمين لأداء ركن مهم من أركان دينهم-وهو الصلاة-، ولم يترك رسول الله-ﷺ-الأذان في سفر ولا حضر، وكان رسول الله-ﷺ-إذا غزا قومًا لم يغر حتى يصبح، فإن سمع أذانًا أمسك، وإن لم يسمع أذانًا أغار بعدما يصبح[٢]؛ وقال-عليه الصلاة والسلام-لمالك بن الحويرث وصاحبه: «إذا سافرتما فأذّنا وأقيما، وليؤمّكما أكبركما»[٣]، قال ابن المنذر: «فالأذان والإقامة واجبان على كل

---

(١) التفسير، (٤/ ١١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: دعاء النبي-ﷺ-الناس إلى الإسلام والنبوة، (رقم ٢٩٤٣)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب: الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر، (رقم ٣٨٢).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة، باب: ما جاء في الأذان في السفر، (رقم ٢٠٥)، والنسائي في كتاب الأذان، باب: أذان المنفردين في السفر، (رقم٦٣٣)، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

جماعة في الحضر والسفر؛ لأن رسول الله -ﷺ- أمر بالأذان، وأمره على الوجوب»[١].

أما في فضائل الأذان فما رواه أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر إلا شهد له»[٢].

- أن الولاء والبراء من مسائل الإيمان، وهو دليلٌ عليه، وبرهان على صدقه.
- تعظيمُ ما عظَّمه الله -تعالى- من شعائرَ وحُرُمات، وغَيْرَةُ الله -تعالى- على دينه.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ

---

(١) الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، (٣/ ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب: رفع الصوت بالنداء، (رقم ٦٠٩).

يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أمر-تعالى-نبيَّه بسؤال أهل الكتاب على وجه الإنكار والعتاب: لماذا تَنْقِمُون منَّا؟.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «أَتَى رَسُولَ اللَّهِ-ﷺ-نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ، فِيهِمْ أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ، وَرَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، وَعَازَرٌ، وَزَيْدٌ وَخَالِدٌ، وَأَزَارُ بْنُ أَبِي أَزَارٍ، وَأَشْيَعُ، فَسَأَلُوهُ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ مِنَ الرُّسُلِ؟، قَالَ: «أُومِن بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، فَلَمَّا ذَكَرَ عِيسَى جَحَدُوا نُبُوَّتَهُ، وَقَالُوا: لَا نُؤْمِنُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هذه الآية»[١].

(١) التفسير، (٨/٥٣٧).

﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ والمراد: قل يا نبينا محمدًا لأهل الكتاب-اليهود خاصة-: هل تسخطون علينا لأننا آمنا بالأنبياء-عليهم السلام؟-أي: أنه لا ذنب لنا إلا أن آمنا بالأنبياء، وبالكتب التي أنزلت إليهم، وبالقرآن الذي أنزله الله علينا ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: إنكم بهذه النقمة علينا فاسقون وعاصون لله.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد لأهل الكتاب-وهم هنا اليهود-: كيف تقولون: إنكم ما تعرفون دينًا شرًّا من ديننا، وإننا أقل حظًّا في الدنيا والآخرة، وأنتم قد وصفكم الله بأسوأ الأوصاف؛ بسبب كفركم وضلالكم؟، وذلك في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: من طرده وأبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: جعله مغضوبًا عليه ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي: حولَّهم وصيَّرهم بهذه الصورة البشعة ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: الشيطان، فجعله إلَهًا من دون الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: أن أولئك الملعونين هم في شر مكان، وهو النار ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: أنهم أضل الناس عن الطريق المستقيم، فكيف تقولون هذا وأنتم

قد كان منكم من وصفهم الله بهذه الأوصاف؟.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ المراد بهم: المنافقون من اليهود ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ أي: أنهم عندما يدخلون مجلس رسول الله-ﷺ-يظهرون الإيمان، ومحبة الله ورسوله والمؤمنين كذبًا ونفاقًا، ثم يخرجون من المجلس، ولم ينتفعوا بشيء مما سمعوه من التذكير والمواعظ؛ لأنهم دخلوه وهم كافرون، وخرجوا منه وهم كافرون.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ أي: أن الله أعلم بما في سرائرهم من النفاق وإن أبدوا خلافه.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ﴾ أي: إن هؤلاء الموصوفين بهذه الأوصاف يسارعون ﴿فِى ٱلْإِثْمِ﴾ أي: في اكتساب الآثام والخطايا بأفعالهم ونفاقهم ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: في ارتكاب الظلم ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ﴾ أي: تعاطيهم للربا، وأخذهم الرشا، وما حرم الله من الأموال.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لبئس عملهم هذا الذي يرونه صحيحًا، وهو باطل ومردود عليهم.

﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ المراد بالذين يُنْهَونَ: اليهود، أي: أفلا ينهاهم الربانيون القائمون عليهم بالولاية ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ أي: العلماء منهم عن تعاطيهم لهذه الآثام والخطايا.

﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ أي: لبئس عمل هؤلاء حين لم ينصحوهم، ولم ينهوهم عن آثامهم وعدوانهم وخطاياهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير سوء أدب أسلاف اليهود مع الأنبياء، ووصف أكثرهم بالفسق، وكذلك تقرير وصفهم بأكل الرشا.
- أن نقمة أهل الكتاب على المؤمنين ظُلْمٌ بَيِّنٌ، ينمُّ عمَّا انطوت عليه قلوبهم من حسدٍ وضغينة.
- دقة القرآن الكريم في التعبير، وإنصافه في الأحكام، فإنَّه لا يُعَمِّمُ الحكم على جميع أهل الكتاب، بل يُبَيِّن أنَّ هذا حال أكثرهم.
- دَرْسٌ لأهل العلم أن يَجِدُّوا، ويبادروا لأداء واجبهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.
- ذم العلماء الذين لا ينكرون على من يفعل المنكر، ولا يبيّنون له وجه الحق، وشاهده في هذه الآية قوله-تعالى-: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ

ﵟٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُﵞ أي: أفلا ينهاهم؟، وهذا استفهام إنكاري عليهم، ثم قال: ﵟلَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَﵞ أي: هؤلاء الذين سكتوا عن منكرهم؛ وشاهده -أيضًا- قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﵟلُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ٨٠ﵞ [المائدة: ٧٨-٨٠]، وسيأتي تفسيرها -إن شاء الله-.

ﵟوَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ

مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾ في هذا بيان من الله-تعالى- عن وصف اليهود له-جلَّ ذكره-بالبخل-تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-، والواصف بهذا فنحاص اليهودي، وقد سبق أن قال: إن الله فقير ونحن أغنياء.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾ دعاء عليهم بأن يغل الله أيديهم، ويلعنهم، ويطردهم من رحمته جزاء ما قالوه.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ في هذا رد عليهم، وتكذيب لهم، وتقبيح لقولهم، فيداه-عزَّ ذكره-مبسوطتان، وهو المتفضل على خلقه، المتكفل برزقهم؛ لقوله-عزّ وجلّ-: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، وقوله-جلَّ ثناؤه-: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقول رسوله محمد-ﷺ-: «قال الله-عزّ وجلّ-: أَنفِقْ أُنْفِقْ عليك»، وقال: «يد الله مَلْأَى، لا تغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار»، وقال: «أرأيتم ما أَنْفَقَ منذ خلق السماء والأرض؟، فإنه لم

يغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان، يخفض ويرفع»(١).

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: أن ما آتاك الله يا نبينا محمدًا من نعمة النبوة والنصر والتمكين في الأرض لأُمتك سوف يزيدهم حسدًا وكرهًا.

﴿طُغْيَٰنًا﴾ أي: سيتجاوزن في القول أكثر مما قالوه ﴿وَكُفْرًاۚ﴾ أي: تكذيبًا وجحودًا ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ أي: أن قلوبهم لن تجتمع على حق، بل سيظلون متباعدين فيما بينهم، وشاهده-أيضًا-قوله-جلَّ ذكره-: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ أي: أنهم كلما أرادوا أن يكيدوا لك بالاتصال بالمشركين وبأعدائك؛ للتأثير عليك وعلى رسالتك ردَّ الله كيدهم، وحاق بهم سوء صنيعهم.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ﴾ في هذا بيان لسلوكهم بأنهم يسعون في الأرض بالفساد، وهذا لا يزال مشاهدًا عبر أدوار التاريخ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: وكان عرشه على الماء، (رقم٤٦٨٤)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: الحث على النفقة، (رقم ٩٩٣).

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: أن الله يبغض ويمقت كل من يفسد في الأرض.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ وفي هذا يقول الله-جلَّ ذكره-، ورغم ما ذكرنا من سيئات أهل الكتاب-وخاصة اليهود-لو أنهم آمنوا بما جاء به الرسول من البينات، واتبعوه، واتقوا الله في سلوكهم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، أي: لتجاوزنا عن تلك السيئات، وشاهد هذا: أنه-عَزَّوَجَلَّ-واسع الرحمة، يحب من عباده أن يتوبوا إليه حتى يتوب عليهم ويرحمهم ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: ولجعلت لهم الجنة بما فيها من النعيم المقيم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: لو أنهم أقاموا وطبقوا أحكامهما، ومنها: ما ورد من صفة رسول الله-صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-وبشارته ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: القرآن ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي: لأنزل الله عليهم المطر، وأنبت لهم الأرض، وبارك لهم في أرزاقهم؛ وشاهده: قوله-جلَّ ذكره-: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً

غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يَعْنِي: لَأَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ تُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا[١].

وقوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي: أن من أهل الكتاب من اقتصد في سلوكه، فلم يقولوا في محمد أو في عيسى ما قاله غيرهم من المكذبين والمنافقين، ومن هؤلاء المقتصدين: عبد الله بن سلام وصحبه من اليهود المؤمنين، ومنهم: النجاشي من النصارى، ومن كان معه من الذين آووا المسلمين، ولم يقولوا فيهم سوءًا، وقيل: أريد بالاقتصاد أقوام لم يؤمنوا، ولكنهم لم يؤذوا رسول الله -ﷺ-، ولم يستهزئوا بالمسلمين في عبادتهم[٢]، وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة: «قال الله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ يقول: على كتابه وأمره، ثم ذمَّ أكثر القوم، فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾»[٣].

---

(١) التفسير، (٨/٥٦٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/٢٤١)، وتفسير البغوي، (ص٣٨٨).

(٣) التفسير، (٨/٥٦٦).

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أن كثيرًا من أهل الكتاب على خلاف الأُمة المقتصدة، وقد ساء ما يعملونه من النفاق والمكائد، كحال ابن فنحاص وكعب بن الأشرف، ومن على شاكلتهما.

أحكام وفوائد الآيات:

- في الآية (٦٤) إخبارٌ مستقبليٌّ عن حال طوائف اليهود، من أنَّهم سيَظَلُّون إلى يوم القيامة يعادي بعضهم بعضاً، وينفر بعضهم من بعض، وكلَّما تآمروا على كيد المسلمين بإثارة الفتن، وإشعال الحرب رَدَّ الله كيدهم، وفَرَّق شَمْلَهم.
- تقرير سوء أدب أسلاف اليهود، وقبح سلوكهم مع الله-عَزَّ وَجَلَّ-، ووصفه بما لا يليق بعظمته وسلطانه - تعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-، وتقرير عقابهم، وهو الطرد من رحمة الله؛ بسبب سوء أدبهم.
- إثبات صفة اليدين لله-عَزَّ وَجَلَّ-بما يليق به دون تشبيه، أو تمثيل بأحد من مخلوقاته.
- بيانُ حالِ السوادِ الأعظمِ من اليهود الذين لم يقيموا للتوراة وزناً، ولم يرفعوا لها رايةً.

- أن طريق الإيمان وإقامة شرع الله يجلبُ البركاتِ والفوز بالجنات.
- أن أهل الكتاب لو طبَّقوا أحكام التوراة والإنجيل لرزقهم الله أين توجهوا في البسيطة، ولو آمنوا بنبوة ورسالة رسول الله محمد -ﷺ- لكفر الله عنهم سيئاتهم، وقد أثنى الله على المؤمنين منهم، كعبد الله بن سلام وصحبه، والنجاشي ومن كان معه ممن آووا المسلمين حين هجرتهم.
- أن إقامة التوراة والإنجيل على الوجه الأمثل أمرٌ مستحيلٌ، فقد اتسع الخَرْقُ بين الكتب المنزَّلة والكتب المُتداولة بما اعتراها من تحريف، ومن ثَمَّ فلا سبيل لإقامة هذه الكتب إلا بالقرآن العزيز.
- في التذييل: ﴿**مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ**﴾ احتراسٌ، ودَفْعٌ لما قد يُتَوَهَّمُ من بقائهم كلهم على الكفر والفساد، بل منهم أهلُ القصد والصدق الذين لا يخلو منهم زمانٌ، ولكنهم يَقِلُّون إن عَمَّ الفساد، وتَسَلَّط الطغيان، وشاع الباطل، فلا يُسْمَعُ هُتافُهم، ولا يُلتفتُ لهم مع دَوِيِّ الضلال، وهديرِ الباطل، وفيه دليلٌ على دقة القرآن في بيانه، وإنصافه في أحكامه.

﴿**۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ**

فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

بيان الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ في هذا أمر من الله لنبيه أن يبلغ رسالته إلى الخلق أجمعين: إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم، حتى تقوم الحجة عليهم، وقد قام-عليه الصلاة والسلام-بهذا البلاغ خير قيام، وفي هذا قالت أُم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها-: «من حدَّثك أن محمدًا كتم شيئًا مما أنزل الله عليه فقد كذب»(١)، كما قالت-رضي الله عنها-: «لو كان محمد كاتمًا شيئًا من القرآن لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾» [الأحزاب: ٣٧](٢).

نعم!-وحاشا أن يكون رسول الله-ﷺ-غافلًا عن مسؤوليته في

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (رقم ٤٦١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: معنى قول الله-تعالى-: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، (رقم ١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قوله-تعالى-: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، (رقم ٧٤٢٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: معنى قول الله-تعالى-: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، (رقم ١٧٧).

إبلاغ الرسالة-فقد واجه في سبيلها الكثير من العنت حين حاربه قومه وبعض من خاصته كأبي لهب، كما واجه كيد المنافقين، وسفاهة السفهاء، وجهل الجاهلين، وفي حَجته التي ودَّع فيها أُمته قال: «أي يوم هذا»؟، قالوا: يوم حرام. قال: «فأي بلد هذا»؟، قالوا: بلد حرام، قال: «فأي شهر هذا»؟، قالوا: شهر حرام، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، فأعادها مرارًا، ثم رفع رأسه، فقال: «اللهم هل بلغت؟، اللهم هل بلغت»[(١)].

قلت: ونحن نقول إلى يوم نلقى الله ما قاله صحابته عنه-عليه أفضل الصلاة والسلام-في حجة الوداع: إنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وكان لأُمته خير ناصح، وكان لها خير نبي، وخير أمين، فنسأل الله بكل أسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجزيه عن أُمته خير الجزاء، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة، وأن يرفعه المقام المحمود الذي وعده ربه به.

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: إن كتمت أي شيء مما أوحي إليك فأنت لم تبلغ الرسالة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب: الخطبة أيام منى، (رقم ١٧٣٩)، ومسلم في كتاب القسامة، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، (رقم ١٦٧٩).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ والمراد: عليك يا نبينا محمدًا أن تبلغ الرسالة التي أتتك، وأنا حافظك ومعينك وناصرك على أعدائك، فلا تخشَ أحدًا غيري، ولا تخف إلا مني، ولا تحزن على ما تواجه من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، فأنت في حرز مني، وفي هذا المعنى كان رسول الله -ﷺ- يحرسه بعض أصحابه، خاصة في أول هجرته إلى المدينة، فلما نزلت هذه الآية لم يكن أحد يحرسه؛ لأن الله حرسه وعصمه من الناس، وفي هذا روى أنس أن رسول الله -ﷺ- كان يُحرس حتى نزلت الآية، فأخرج رأسه من القبةِ، فقال لهم: «يا أيها الناسُ! انصرفوا، فقد عصمني الله»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: ما عليك إلا البلاغ، أما الهداية فهي من الله، فهو الهادي؛ وشاهده قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢].

أحكام وفوائد الآية:

- الحكم بأن جميع الرسل -ومنهم: رسول الله محمد-ﷺ- ملزمون بتبليغ رسالة الله إلى خلقه، يبشرونهم، وينذرونهم، كما

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث عائشة في كتاب التفسير، باب: ومن سورة المائدة، (رقم ٣٠٤٦)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

قال-عز وجل-: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد قام رسل الله-عليهم السلام-بما أوجب الله عليهم، وبلغوا أُممهم رسالة الله، كما أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بلَّغَ الرسالة، وأدى الأمانة، فجزاه الله عن أُمته خير الجزاء.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ورد في سبب نزول هذه الآية ما روي عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «جاء مالك بن الصيف وجماعة من الأحبار، فقالوا: يا محمد! ألست تزعم أنك

على ملة إبراهيم، وتؤمن بما فى التوراة، وتشهد أنها حق؟، قال: بلى!، ولكنكم كتمتم منها ما أمرتم ببيانه، فأنا أبرأ مما أحدثتموه، قالوا: فإنا نتمسك بما فى أيدينا من الهدى والحق، ولا نؤمن بك، ولا بما جئت به، فأنزل الله هذه الآية»[١].

والمراد: قل يا نبينا محمدًا لليهود والنصارى: لستم على شيء من الدين، أي: لا دين لكم.

﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: حتى تؤمنوا بما ورد في التوراة والإنجيل، وما أنزل إليكم من ربكم أي: القرآن.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: أن ما آتاك الله من نعمة النبوة، وآتاه أُمتك من الفضل والنصر، سوف يزيدهم طغيانًا وكفرًا، أي: حسدًا وتماديًا في الكفر **﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾** أي: لا تحزن عليهم، فهم كافرون عاصون لله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هم المسلمون **﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾** هم أهل

(١) رواه ابن أبي حاتم، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح، (٨/ ٢٦٩).

التوراة ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ سبق الحديث عنهم، وسيأتي مفصلًا، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أهل الإنجيل ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: أن كل جماعة أو فرقة آمنت بالله، أي: أطاعته، ووحَّدته، وآمنت باليوم الآخر، أي: يوم القيامة، وعملت صالحًا، وهو كل عمل ابتغت به وجه الله، فلا خوف عليهم يوم القيامة من العذاب، ولا هم يحزنون على الدنيا، ولكن هذا الإيمان لا يكون صالحًا ولا متقبلًا إلا إذا كان وفق ما جاء به رسول الله-ﷺ-جملة وتفصيلًا.

أحكام وفوائد الآيتين:

- كفر أهل الكتاب إلا من آمن منهم برسول الله محمد-ﷺ-، كما قال-تعالى-: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.
- أن الأشقياء لا ينتفعون بالآيات البينات، بل يزدادون طغيانًا.
- الأمر لرسول الله-ﷺ-بألا يحزن على الكافرين المعاندين.
- أن من آمن بالله وبالبعث، وعمل الصالحات فلا خوف عليه من العذاب، ولن يحزن من فراقه للدنيا.
- أن أصل الداء هو الإعراض عما أنزل الله، والدواء إقامة دينه وكتابه.
- أن الكفر والعصيان من أسباب زوال النعم، وحُلول النِّقَم على

المجتمعات والأُمم.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ٧٠ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ٧١﴾.

بيان الآيتين:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يخبر الله-عزَّ ذكره-أنه أخذ المواثيق على بني إسرائيل أن يعبدوه، ويصدِّقوا ما أنزل إليهم من الكتاب، ويؤمنوا بما فيه.

﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ﴾ لكي يبيِّنوا لهم وجوب عبادة الله، وطاعته، وإخلاص العبادة له وحده ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: كل ما جاءهم رسول لا يوافق رغباتهم، ولا يتبع أهواءهم ولا يطيع انحرافهم.

﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي: أنهم قد كذَّبوا عيسى، وهمُّوا بقتله، لولا أن الله رفعه إليه، وقتلوا يحيى وزكريا وغيرهم من الأنبياء ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ظنُّوا أنهم لن

يحاسبوا، ولن يلزمهم شيء مما أخذ عليهم من المواثيق كقولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿فَعَمُواْ﴾ أي: عميت أبصارهم عن الحق. ﴿وَصَمُّواْ﴾ أي: صمَّت آذانهم، فلا يسمعون إلا ما تمليه عليهم رغباتهم، أو يقوله لهم الفاسدون من أحبارهم.

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: غفر لهم ما كان من خطيئاتهم، ومنها: عبادة العجل، وعصيان أنبيائهم ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ مرة ثانية ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ أي: أن هذا سلوك الكثير منهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: أنه يعرف أحوالهم، وما يعملونه من المعاصي، وسوف يجازيهم على سلوكهم.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير أن الله قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل أن يعبدوه ويوحِّدوه، ويتَّبعوا ما أنزل إليهم من الكتاب، ومنه: البشارة بنبوَّة ورسالة رسول الله محمد-ﷺ-إلى الناس كافة.
- أن ما صنعه اليهود في عهد النبي-ﷺ-هو حلقة في سلسلة ما صنعه أسلافُهم من قبل، وهذا درسٌ لأمتنا في كلِّ عصر؛ كيما تأخذَ حَذَرَها.

- أن الحرص على إرضاء الأهواء، وإرواء الضغائن بدلاً من إزالتها، يُفْضي إلى الكبائر العظام، والجرائم الجسام، كما وقع من اليهود قتلةِ الأنبياء.
- تقرير اتباع اليهود لأهوائهم، فقد كذَّبوا فريقًا من رسلهم، وقتلوا فريقًا آخر.
- تقرير حلم الله عليهم؛ لأنه حليم بعباده رحيم بهم.
- ذكر-تعالى-في الآية (٧١) أن بني إسرائيل عموا وصموا مرتين، تتخللهما توبة من الله عليهم، وبيَّن تفصيل ذلك في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، فبيَّن جزاء عماهم وصممهم في المرة الأولى بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وبيَّن جزاء عماهم وصممهم في المرة الأخيرة بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]، وبيَّن التوبة التي بينهما بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، ثم بيَّن أنهم إن عادوا إلى الإفساد عاد إلى

الانتقام منهم بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، فعادوا إلى الإفساد بتكذيبه-ﷺ-، وكتم صفاته التي في التوراة، فعاد الله إلى الانتقام منهم، فسلَّط عليهم نبيه-ﷺ-، فذبح مقاتلة بني قريظة، وسبى نساءهم وذراريهم، وأجلى بني قينقاع، وبني النضير، كما ذكر-تعالى-طرفاً من ذلك في سورة الحشر.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ أي:

كفر أولئك الذين قالوا هذا القول، وهم: اليعقوبيون من النصارى، يقولون باتحاد الأب والابن، فالمسيح حسب هذا الاعتقاد الزائف هو الله-تعالى عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-، وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ﴾ أي: أن المسيح الذي نسبوا إليه قولهم الباطل تبرَّأ منه ومنهم، وقال لهم: إن الله هو ربي وربكم، فلا رب لنا غيره، وأنا لست إلا عبدًا له، كما قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، ثم بيَّن لهم جريمة اعتقادهم وبطلانه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ أي: أن من يشرك مع الله غيره-سواءٌ أكان عيسى أم غيره-فسيحرم من الجنة، ويكون مصيره النار ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: ولن يكون له نصير ولا ولي.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ المراد بهم النصارى، فكثير منهم يقولون: هناك في الكون أب وابن وروح القدس، ويؤلِّهون كل واحد منهم، فبيَّن الله أنهم بقولهم هذا قد كفروا وضلُّوا طريق الحق والهداية.

وأخرج الطبري بسند حسن عن السدي قال: «قالت النصارى هو

المسيح وأُمه، فذلك قول الله-تعالى-: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»[١].

﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: أنَّه لا إلَه في الكون إلا إلَه واحد هو الله، وأن من يقول خلاف ذلك يعد كافرًا.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: إن لم يتركوا قولهم بالتثليث ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: سوف ينالهم العذاب، فإمَّا أن يعجِّل لهم في الدنيا، أو يؤجِّل لهم إلى الآخرة.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه توبيخ وتعجيب، أي: ألا يتوبون إلى الله بعد كفرهم؟ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ أي: يطلبون منه المغفرة من ذنوبهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر لعباده إذا تابوا إليه؛ لأنه رحيم بهم.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ أي: ليس المسيح إلا أحد الرسل الذين بعثهم الله إلى الناس؛ لإبلاغهم رسالة الله بتوحيده، وطاعته واجتناب معاصيه، وتصديق رسوله محمد-ﷺ-.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: ما هو إلا من جنس الرسل

---

(١) التفسير، (٥/ ٥٨١).

الذين قبله، فلا صفة له غير هذه الرسالة ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ أي: أنها مؤمنة ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ وذلك لما لهما من صفة المخلوقين في الحاجة إلى الطعام والشراب، ومن كانت هذه صفتَهما فلا يمكن أن يكونا إلَهين، كما زعم النصارى في جهالاتهم.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: انظر يا محمد! كيف نبيّن لأهل الكتاب الآيات الدالَّة على أن عيسى وأُمه عبدان من عباد الله؟، ثم انظر بعد هذا البيان كيف يعدلون عن الحق، وينصرفون عنه إلى الباطل؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بكفر من يدعي ألوهية المسيح، أو يدعي أن الله ثالث ثلاثة.
- تبرُّؤ عيسى وأمه من الذين ألَّهوهما، أو قالوا فيهما خلاف كونهما عبدين من عبيد الله.
- أن عيسى -عليه السلام- وأُمه مخلوقان مثل المخلوقين الآخرين، ولكنه رسول من رسل الله، وأن أُمه صدّيقة، وقد ولدته بكلمة الله.
- وجوب الاستغفار والتوبة بكمال شروطها في حال المعاصي.
- أن الله يبيّن لعباده الآيات، ومنهم من ينصرف عن الحق، ويتبع

الباطل.

- أن الصِّدِّيقية مرتبة من مراتب الإيمان، وهي من أعلى المراتب بعد النبوة، وهي غاية الصدق مع الله، ومع النفس، ومع الخلق، وأساسها العلم واليقين، وثمرتها العمل الصالح، والرضا والتسليم.
- أن باب التوبة من كل ذنب مفتوحٌ مهما عَظُم، ولقد رَغَّبَ اللهُ في التوبة، وحَثَّ على المبادرة إليها قبل فوات الأوان، وهذا من رحمته-تعالى-ولُطْفِه، وترفُّقه بالعباد.
- إثبات صفة المغفرة والرحمة والسمع والبصر لله-تعالى-.

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾.

بيان الآيتين:

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا لهؤلاء الجاهلين: أتعبدون من دون الله ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا

﴿نَفْعًا﴾؟ هذا استفهام إنكاري توبيخيٌّ للنصارى ومن على شاكلتهم أن من يؤلِّهونه ويعبدونه لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فمن كان على هذه الصفة فهو لا يستطيع أن يضر غيره، ولا ينفعه، فالنافع هو الله، والضارُّ هو الله، وإذا كان أحدٌ من المخلوقين يستطيع أن ينفع في الدنيا، أو يضر فيها، فهو بإرادة الله وقدره؛ أما البشر فكلهم عاجزون عن النفع والضر.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: هو السميع العليم الذي يملك وحده النفع والضر، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ هذا توجيه لرسول الله -ﷺ- أن يقول لليهود والنصارى: إيَّاكم والغلوَّ، فإنه شر وفساد، وفي هذا توبيخ لهم حين غَلَوْا في دينهم، فاليهود أفرطوا في حب نبيهم عزير، فجعلوه ابنًا لله، وأفرطوا في كراهية عيسى، فاتهموا أُمه بما لا يليق بها، والنصارى أفرطوا في حب عيسى، فجعلوه إلَهًا يعبد من دون الله.

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ المراد به: الغلو الباطل ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ

﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: لا تتبعوا من كان قبلكم من أحباركم وعلمائكم الذين ضلُّوا في أنفسهم ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ أي: أضلُّوا غيرهم ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: كما أضلُّوا أنفسهم وغيرهم ضلُّوا كذلك عن اتباع ما جاء به الرسول من الهدى والحق.

أحكام وفوائد الآيتين:

- التنديد بكل من يعبد غير الله؛ لأن كل الخلق لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، بل كلهم يلجأون إلى الله.
- أنه قَدَّم الضرَّ لأنَّ النفوس بدفعه مشتغلة أكثر من اشتغالها بجَلْب النفع.
- الحكم بسوء الغلو في الدين، وقد نهى رسول الله-ﷺ-أُمته عن الغلو فيه، فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١)، كما قرَّر-عليه الصلاة والسلام-أن الدين يسر، وأنه لن يشاده أحد إلا غلبه(٢)، ولما سمع-عليه الصلاة والسلام-امرأة من الليل تصلي قال: «من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: قوله-تعالى-: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾، (رقم ٣٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: الدين يسر، (رقم ٣٩).

هذه»؟، قالت عائشة: فلانة تذكر من صلاتها، لا تنام الليل كله، فكره-عليه الصلاة والسلام-فعلها، حتى عرفت الكراهية في وجهه، وقال: «مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا»[1]، وفي حديث أنس-رضي الله عنه-قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي-صلى الله عليه وسلم-يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي-صلى الله عليه وسلم-وقد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟، قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا اعتزل النساء، فلا أتزوَّج أبدًا، فجاء رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟، أما-والله-إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله أدومه، (رقم٤٣)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: أمر من نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن بأن يرقد حتى يذهب عنه ذلك، (رقم ٧٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح، (رقم ٥٠٦٣)، ومسلم في كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، (رقم ١٤٠٠).

يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: طردوا من رحمة الله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ﴾ أي: كانت لعنتهم على لسان داود في الزبور، وهو الكتاب الذي أنزل عليه، وكانت لعنتهم على لسان عيسى في الإنجيل، وهو الكتاب الذي أنزل عليه[1].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي: كان اللعن لهم بسبب معصيتهم وعدوانهم، ومن ضمن هذه المعصية والاعتداء: تكذيبهم لأنبيائهم، وقتلهم لهم، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٤/٣١٧ – ٣١٨)، والجامع لأحكام القرآن، (٦/٢٥٢) .

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ أي: لم يكن بعضهم ينهى بعضهم الآخر حين يراه يرتكب إثمًا وخطيئة، وفي هذا قال رسول الله-ﷺ-: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا! اتق الله، ودع ما تصنع؛ فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: «..كلا، والله لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يدي الظالم، ولتأطرنَّه على الحق أطرًا، ولتقصرنَّه على الحق قصرًا، أو ليضربنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم»(١).

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي: تعس ما كانوا يفعلونه من عدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ المراد بهم: المنافقون من اليهود الذين كانوا يوالون المشركين، ويصادقونهم مع أنهم ليسوا على دينهم، وإنما نكاية برسول الله محمد-ﷺ- ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تعس ما زيَّنته لهم أنفسهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي، (رقم ٤٣٣٦)، والترمذي في كتاب التفسير، باب: من سورة المائدة، (رقم ٣٠٤٧)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم ٤٠٠٦)، وحسنه الترمذي.

﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أن ما زيَّنته لهم أنفسهم ستكون عاقبته سخط الله عليهم ﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ أي: أنهم سيخلدون في العذاب بعد سخط الله عليهم.

﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ﴾ أي: لو كانوا يؤمنون بالله ونبيه وما أنزل إليه-وهو القرآن والوحي-﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: لما والوا المشركين ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي: أن كثيرًا من اليهود والمنافقين عاصون لله، وعاصون لرسوله.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه قول الله-عزَّ ذكره-: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].
- وجوب ردع مرتكب المنكر حتى يتوب، فإن لم يكن بالاستطاعة ردعه وجب اجتنابه، وعدم مخالطته، وعدم محبته؛ لأن من جالسه أو أحبه صار في حكمه، وقد سبق الحديث عن أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يجب على الأُمة في ذلك.
- أن السكوت عن إنكار المنكر آفة عظيمة تُفْضِي إلى مفاسد كثيرة

على الفرد والمجتمع، منها: انتشار المنكرات، وانحسار المعروف، وتَعاظُمُ أهلِ الشَّر، وضَعْفُ أهلِ الحق، واندراسُ العِلْمِ، وكثرةُ الجُهَّال، والتلبيسُ والخَلْطُ حتى يصير المنكر معروفاً، والمعروف منكراً.

- قال القرطبي: «وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين، وأَمْرٌ بتَرْكِهم وهِجْرانهم»، وقال: «على أنَّ مَنِ اتخذ كافراً وليًّا فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده، ورضي أفعاله»[1].
- أن الإيمان عصمة ونور ومنهاج.
- تحريم موالاة من لم يؤمن بالله ورسوله وبالقرآن، ومن فعل ذلك فهو في حكمه.

﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢٥٤).

رَبَّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ لما كان الله يعلم حال اليهود وسلوكهم، سواء مع أنبيائهم أو مع رسوله محمد-ﷺ-، أخبر عنهم بأنهم أشد عداوة للمؤمنين، وجعل بعدهم في العداوة المشركين عبدة الأصنام والأوثان، ثم بيَّن حال النصارى وسلوكهم، فقال-عزَّ ذكره-: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾، والغالب في القرآن أن الذم والتشنيع ينصب على اليهود؛ بسبب سلوكهم النفسي، وعداوتهم الظاهرة والباطنة للمؤمنين، وحقدهم عليهم، بينما ينصب الذم على النصارى بسبب جهلهم، ثم بيَّن-جلَّ ذكره-سبب مودة النصارى للمؤمنين بقوله: ﴿بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ أي: بسبب أن فيهم علماء ومتدينين ﴿وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: غير متعالين على المؤمنين، ولا مبغضين لهم، وذلك على خلاف اليهود.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: إذا سمعوا القرآن ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أي: من كثرته يخرج من عيونهم إلى وجوههم، وفي هذا دلالة على رقتهم ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: أنهم لما عرفوا الحق من جراء سماعهم القرآن تأثَّروا، ففاضت عيونهم بالدمع ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: أننا-يا ربنا!- آمنا بما أنزلت على نبيك محمد .

﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: اكتبنا عندك مع أُمة محمد-ﷺ-، الذين يشهدون على الناس يوم القيامة، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ قالوا ذلك في أنفسهم لما سمعوا القرآن، وفيه دلالة على استجابتهم للحق، أو أن أحدًا من قومهم أو من غيرهم لاموهم، فأجابوه: لماذا لا نؤمن بالله وما جاء به رسوله من الحق؟. وقيل: إن قوم النجاشي لما قاموا من عند رسول الله-ﷺ-، وآمنوا بما جاء به اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا: خيّبكم الله من ركب، بعثكم أهل دينكم ترتادون لهم، فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تظهر مجالستكم عنده حتى

فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركبًا أحمق منكم، فقالوا: لا نجاهلكم، لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم، أو قالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وحتى تكون حجتهم أقوى في وجه الذين لاموهم، ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مع أُمة محمد-ﷺ-التي هي على الحق، وأنتم على الضلال.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: جزاهم بإدخالهم الجنة التي ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أن هذه الجنات جزاء للذين حسنوا في أقوالهم، وأفعالهم، فاتبعوا ما جاءهم من ربهم على لسان رسوله ونبيه محمد-ﷺ-.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المراد بهم: اليهود والمشركون والنصارى، وكل من كان على ملَّتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: هؤلاء هم نزلاء الجحيم، وهي اسم من أسماء النار.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير عداوة أسلاف اليهود والمشركين للمسلمين.

- تقرير أن النصارى المخلصين الصادقين في نصرانيتهم أقرب للمسلمين، كما فعل النجاشي وصحبه.
- في الآية (٨٢) إخبار عن أمر مستقبلي في بيان شدة عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين على مَرِّ الأزمان.
- أن اللام في: ﴿وَلَتَجِدَنَّ﴾ لامُ القسم، والغرض منها التأكيد، وأكَّد الفعل بشيئين: لام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، وذكر المشركين مع اليهود لمناسبة اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين، وهذه حالةٌ معروفةٌ قديماً وحديثاً.
- تقديم عداوة اليهود للمسلمين على عداوة المشركين؛ لأنَّها أشَدُّ ضراوة، وأشنع جرماً.
- تحالف اليهود والوثنيين على حرب المسلمين، وأكدت الآية بالقَسَم اعتناءً ببيان تحقق مضمونها.
- ذم الكبر وأهله، كما قال-ﷻ-في ذم أسلاف اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ [البقرة:٨٧].
- أن التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات، صفاتٌ محمودة أينما كانت.
- تقرير ثواب الله لأهل الكتاب الذين يؤمنون برسالة رسول الله-

ﷺ-، وتقرير الوعيد بالعقاب للذين يكذبون بآيات الله، وما جاء به نبيه ورسوله محمد-ﷺ-.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

أي: لا تحرموا أنفسكم من أكل شيء أحلَّه الله لكم من المطعومات أو المشروبات ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ﴾ [١] أي: لا تؤذوا أنفسكم بتحريم ما أحلَّ الله لكم، فكلوا مما أحلَّ الله لكم دون إسراف، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ:- ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١].

وعن عبدالله-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-قال: «كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ-ﷺ-، وَلَيْسَ مَعَنَا نِسَاءٌ، فَقُلْنَا: أَلَا نَخْتَصِي؟، فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ، فَرَخَّصَ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ بِالثَّوْبِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾» [٢].

---

(١) تفسير الطبري، (٨/ ٦٣٩)، وأسباب النزول للواحدي، (ص ٢٠٥ - ٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، ٨/ ١٢٦، سورة المائدة، باب الآية، (رقم ٤٦١٥)، ومسلم في كتاب النكاح، (٢/ ١٠٢٢)، باب نكاح المتعة وبيان أنه أُبيح ثم نُسخ، (رقم ١٤٠٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: يمقت من يعتدي على نفسه أو غيره.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ توكيد لما ورد في الآية السابقة، والأكل يشمل كل ما يحتاجه المرء لضروراته من طعام، وشراب، ولباس، وفراش، وركوب، ونحو ذلك، وجاء التعبير بالأكل لكونه في مقدمة حاجة المرء.

﴿حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ توكيد-أيضًا-لقول الله-عزَّ ذكره-في الآية السابقة: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: الزموا ما أمركم به من الأكل من الطيبات ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: هو الذي آمنتم به؛ لأن الخطاب جاء للمؤمنين.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أنه لا يجوز للإنسان أن يحرِّم على نفسه شيئًا أحلَّه الله من الطعام والشراب، ومن يفعل ذلك يعد معتديًا على نفسه.
- الأمر بالأكل من الطيبات، وهذا يقتضي تحريم كل ما خبث من الطعام والشراب.

- اشتمال الرزق على الحلال والحرام في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾؛ إذ لو لم يقع الرزق على الحلال والحرام لم يكن لذِكْرِ الحلال فائدة سوى التأكيد، وهو خلاف الظاهر.

واقتصر على الأكل لأنَّ معظم ما حرَّمه الناس على أنفسهم هو المآكل، والأمر بالتقوى تأكيد للوصية بما أمر به، وزاده تأكيداً قولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

- مراعاة مُتَطَلَّبات الحياة، ودواعي الفطرة السليمة السوية من إيفاء حَقِّ الروح والجسد، وهو دينٌ جاء وسطاً بين المسيحية واليهودية، فالمسيحية مُفْرِطَةٌ في الروحانية، واليهودية مُفْرِطَةٌ في المادية، فكان الإسلام وسطاً بينهما.

- أن أَكْلَ اللذائذ لا ينافي التقوى، وذلك ظاهر مِنْ قوله-تعالى-: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ

فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾.

بيان الآية:

اليمين الذي يعد لغوًا هو اليمين الذي لا حكم له، وقد سُئِلَتْ عنه عائشة -رضي الله عنها-، فقالت: «هو قول الرجل: لا والله، بلى والله»(١).

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ المراد بالأيمان التي يؤاخذ العبد عليها: الأيمان الموثَّقة ناويًا الحالف فيها ما يقول وقاصده.

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ أي: كفَّارة اليمين الموثقة في حال النكث: ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ أي: بذل طعام لعشرة من المحتاجين، لكل واحد منهم نصف صاع ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ أي: من أعدل أو أقصد ما يطعم المرء أُسْرَته؛ ذلك أن الناس يختلفون في الإطعام كثرة أو قلة، فجعل الله الإطعام في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، (رقم ٦٦٦٣).

الكفارة وسطًا.

وورد في سبب نزول هذه الآية ما روي عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «كان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدَّة؛ فنزلت الآية: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾»[1].

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي: كسوة كل واحد منهم، حسبما هو معتاد لمثلهم في الزمان الذي تخرج فيه الكفارة.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة ذكرًا كانت أم أنثى ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: يصوم الحانث ثلاثة أيام متتابعة أو غير متتابعة؛ لأن اللفظ جاء عامًّا.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: أن ما ذكر هو كفارة لليمين التي نكث صاحبها

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أمر من الله-تعالى-لعباده بالبر في اليمين، والمقصود: لا تكثروا اليمين؛ لما قد يكون فيها من الحنث،

(١) أخرجه ابن ماجه، الكفارات، باب ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، وصحح إسناده البوصيري، مصباح الزجاجة، (٢/١٣٥)، والألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه، (رقم ١٧١٧).

فتأثموا، وتبذلوا الكفارة ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: أحكامه وقضاءه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون تيسيره عليكم، ورفع الحرج عنكم.

أحكام وفوائد الآية:

- بيان تشريع أحكام كفارة حَلْفِ اليمين على اليسر والرحمة، من غير مشقة.
- رحمة الله بعباده المؤمنين في تشريع كفارة الحَلْفِ.
- أن يمين اللغو هي قول الرجل: لا والله، وبلى والله في حديثه وكلامه غير عاقد لليمين، ولا مريد لها.
- أن الأيمان أربعة: يمينان تكفّران، ويمينان لا تكفّران. فاليمينان اللتان تكفّران كحال الرجل الذي يحلف قائلًا: والله لا أفعل كذا وكذا، فيفعل، والرجل يقول: والله لأفعلنَّ كذا وكذا، فلا يفعل. وأما اليمينان اللتان لا تكفّران فالرجل يحلف: والله ما فعلت كذا وكذا، وقد فعل، والرجل يحلف: لقد فعلت كذا وكذا، ولم يفعل[(١)]. والجمهور من العلماء على أن اليمين الغموس يمين كذب، فلا تنعقد، ولا كفَّارة فيها، وعند الشافعي أنها يمين

(١) أخرجه الدارقطني، (٥/٢٨٦)، (رقم ٤٣٢٨).

منعقدة؛ لأنها مكتسبة بالقلب، مقرونة باسم الله-تعالى-، وفيها الكفارة.

والأصل في تحريمها ما رواه عبد الله بن عمر قال: «جاء أعرابي إلى النبي-ﷺ-، فقال: يا رسول الله! ما الكبائر؟، قال: «الإشراك بالله»، قال: ثم ماذا؟، قال: «ثم عقوق الوالدين»، قال: ثم ماذا؟، قال: «اليمين الغموس»، قلت: وما اليمين الغموس؟، قال: «الذي يقتطع مال امرئ مسلم، هو فيها كاذب»[1].

- أن كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين وهو مُدّ بُرّ-أو ما في حكمه-لكل واحد من المساكين العشرة، وإن غدّى عشرة مساكين وعشاهم أجزأه، خلافًا للشافعي الذي يرى إعطاء كل مسكين مُدًّا[2]. ولا يجوز دفع الكفارة إلى مسكين واحد، ولا تجزئ القيمة عن الطعام والكسوة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب: قول الله-تعالى-: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا﴾، (رقم ٦٨٧٠).

(٢) الأُم للشافعي، (٥/ ٣٠٢).

وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم
مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ
فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

بيان الآيات:

الخطاب للمؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ الخمر: ما خامر العقل أي: غطاه، والميسر: القمار؛ كما أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عمر قال: «الميسر هو القمار»[1]. وكان الخمر والقمار من أفعال الجاهلية.

﴿وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ الأنصاب: حجارة كان المشركون يذبحون قرابينهم عندها تبركًا بها، والأزلام: قداح كانوا يستقسمون بها، وقد سبق ذكر معناها، وقد حرَّم الله الخمر على نحو متدرج، فأول التحريم قوله-عزَّ ذكره-: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ

(١) التفسير، (٤/١٩٧).

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فتخلى عنها بعض الصحابة كراهة، وبعضهم استمر على تعاطيها بغية أخذ منافعها، وترك آثامها، فصلى أحدهم الصلاة وهو في حال من شربها، فقرأ القرآن خطأ، فنزل قول الله-تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣][1]، فتركها بعض الصحابة، وقالوا: لا خير فيما يشغلنا عن الصلاة، واستمر بعضهم الآخر يشربها في غير أوقات الصلاة، حتى نزل قول الله-تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ ، فصارت حرامًا بشكل قاطع.

﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: أنها قذر من أقذار الشيطان ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير عائد إلى الرجس، والمراد: اتركوه وامقتوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذا فيه حث وترغيب لهم في

(١) أخرج أبو داود في كتاب الأشربة، باب: في تحريم الخمر، (رقم ٣٦٧١)، والترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة النساء، (رقم ٣٠٢٦)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: «صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا، فَدَعَانَا، وَسَقَانَا مِنَ الخَمْرِ، فَأَخَذَتِ الخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُونِي، فَقَرَأْتُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ». قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ-تَعَالَى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾»، قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

تركه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ فيه بيان من الله أن الشيطان يريد إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين نتيجة تعاطيهم الخمر والميسر وغيرهما من المحرمات، وفي هذا روي أن قبيلتين من الأنصار لما شربوا الخمر، وانتشوا منها، عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا من نشوتهم رأى بعضهم ما فعل بالبعض الآخر، فجعل بعضهم يقول: لو كان أخي يحبني ما فعل بي ما فعل، مع أنه لم يكن بينهم قبل شرب الخمر أي عداوة، فأنزل الله قوله الحق هذه الآية[(١)].

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والمعنى: أن من يشرب الخمر لن يذكر الله، ولن يصلي، وإن صلَّى لن يكون عارفًا بصلاته، ولا متقنًا لها.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ المعنى: أنه بعدما بيَّن الله لكم أضرار الخمر وآثامها، وأنها من أفعال الشيطان، فهل أنتم تاركون لها، أو أنكم ستتعاطونها كما كنتم من قبل؟. فلما نزلت هذه الآية بما

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (١٢/٥٧)، (رقم ١٢٤٥٩)، وأخرجه الحاكم، وصححه، وووافقه الذهبي، المستدرك (٤/١٤١-١٤٢)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح»، مجمع الزوائد (٧/١٨).

فيها من الوعيد الشديد قال عمر-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «انتهينا»[١]، وعندئذٍ أمر رسول الله-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أن ينادى في أسواق المدينة: «ألا إن الخمر قد حرمت»، فكسرت الدنان[٢].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ هذا أمر بطاعة الله ورسوله في اجتناب الخمر والميسر، وعدم تعظيم الأنصاب والأزلام، والحذر من عقاب الله في حال إتيان ما حرم.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: خالفتم ما نهيتم عنه ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: ما عليه إلا أن بلَّغكم بالتحريم، وستجزون إذا لم تجتنبوا ما حرَّم عليكم.

﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها، ويأكل الميسر؟، فأنزل الله هذه الآية[٣]، والمراد:

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة، باب: تحريم الخمر، (رقم ٣٦٧٠)، والترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة المائدة، (رقم ٣٠٤٩)، والنسائي في كتاب الأشربة، باب: تحريم الخمر، (رقم ٥٥٤٠)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب: صب الخمر في الطريق، (رقم ٢٤٦٤)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب: تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب، (رقم ١٩٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، (رقم ٤٦٢٠)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب: تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب، (رقم ١٩٨٠).

ليس عليهم إثم فيما طعموه من الخمر قبل نزول تحريمها، طالما أنهم اتقوا الله، وآمنوا به، وصدَّقوا شريعته، وما جاء به رسوله محمد-ﷺ-.

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ أي: اجتنبوها بعد التحريم ﴿وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ثبتوا على إيمانهم وتقواهم.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ﴾ توكيد لوجوب ثباتهم، وحسن أعمالهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم الخمر، ويشمل ذلك كل ما في حكمها من المخدرات والمفترات، وقد أثار قول الله-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ظنًّا عند بعض الأفراد، فقالوا: إن هذا الاستفهام للخيار، وهذا باطل من وجهين:

الأول: أن الله-عَزَّوَجَلَّ-بيَّن في الآية أن الخمر والميسر وقرابين المشركين رجس من عمل الشيطان، فكفى بذلك تحريمًا.

الثاني: أن المراد من الاستفهام الأمر، وليس التخيير، وقد فهم ذلك عمر بن الخطاب-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-بقوله: «انتهيت»، كما فهمه الصحابة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، ناهيك بما ورد في السنة من تحريم الخمر بكل

صفاتها.

- تحريم الميسر وكل ما في حكمه.
- تحريم قرابين المشركين، وكل ما كان فيه تعظيم لغير الله.
- بيان علَّة تحريم الخمر، ولعب القمار، وهي بث البغضاء والعداء بين شاربي الخمر ولاعبي القمار، وصدهم عن ذكر الله وعن إقامة الصلاة، وفي هذا كله إثم عظيم.
- أنه جاء التعبير بـ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، وهو أبلغ من التعبير بلفظ (حُرِّم)؛ لأنَّه يفيد التحريم وزيادة، وهو التنفير والإبعاد عنه بالكلية، يدفع كلَّ سبب داعٍ ومُحَفِّز إليه.
- الانتهاء فوراً من تعاطي المحرمات السابقة الذكر، ووَحَّد الخبر للنص على الخمر، والإعلام بأن أخبار الثلاثة حُذِفَتْ وقُدِّرَتْ؛ لأنَّها أهلٌ لأن يقال في كل واحد منها على حِدَتِها كذلك، ولا يكفي عنها خبر واحد.
- المداومة على تقوى الله في السر والعلن حتى الموت، وكرر التقوى مع الإيمان والعمل الصالح مرة، ومع الإيمان مرة، ومع الإحسان مرة؛ ليدلَّ على «أنَّ الاتقاء الأول هو تَلَقِّي أمر الله بالقبول والتصديق، والدينونة به، والعمل، والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات

على التصديق، والثالث الاتقاء بالإحسان، والتقرُّب بالنوافل»[١].

- وجوب طاعة الله، وطاعة رسوله، والحذر من عصيان ما أمرا به، وارتكاب ما نهيا عنه.

- تقرير رفع الله الإثم عمن ارتكب المعصية قبل تحريمها، او ارتكبها وهو لا يعلم هذا التحريم، ثم تاب بعد ذلك التوبة النصوح بشروطها الثلاثة، وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة لها؛ وشاهده قول الباري -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [النساء:١٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ

(١) تفسير ابن جرير الطبري، (٧/ ٥٢).

وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

بيان الآيتين:

الخطاب للمؤمنين وصحابة رسول الله -ﷺ-، وقد نزلت هذه الآية عام الحديبية.

﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي: كان الصيد يغشاهم في رحالهم وهم محرمون، فمنه ما هو كبير، ومنه ما هو فراخ، ومنه ما ينالونه بأيديهم، ومنه ما ينالونه برماحهم، وقد حرم الله صيده ابتلاء لهم، كما ابتلى الله اليهود بتحريم صيد الحيتان يوم السبت، فامتثلوا ما أمرهم الله به، فكانوا خيرًا من اليهود الذين عصوا أمره.

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾ أي: ليعلم من يمتثل أمره، فيتقي الصيد، ويعلم من لا يخافه، فيقتله ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: من صاد بعد أن حرم عليه ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ﴾ لما قال

الله في الآية السابقة: ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ خاطب المؤمنين عمومًا، وبيَّن لهم بشكل قاطع تحريم الصيد للمحرم بقوله: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ أي: لا تقتلوه وأنتم في إحرامكم لحج أو عمرة ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا﴾ المراد به: من يقتل الصيد وهو قاصد قتله عارف ما يفعل ﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: يكون الجزاء عليه بمثل الصيد الذي قتله، ففي بقر الوحش مثلًا بقرة؛ لأنها شبيهة بها، وهكذا في كل صيد مقتول يفدى بمثله.

﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: يحكم بالجزاء حكمان عدلان؛ ليريا ما يشبه الصيد المقتول من النعم، فيحكما به، وقد جعل الصحابة في النعامة بدنة، وفي بقر الوحش بدنة، وفي الحمامة شاة، وفي كل ما يشبه شيئًا من النعم مثله، فإن لم يوجد ما يشبهه ففيه القيمة(١).

﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ أي: يذبح الجزاء في الحرم، ويفرق على المساكين فيه.

﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي: تكون الكفارة إطعام

---

(١) انظر: السنن الكبرى للبيهقي، (١٠/٢٨٨)، (رقم ٩٩٥٧).

مساكين، وذلك مقابل المثل من النعم، بحيث تقوم قيمة الجزاء، فيشتري بها طعامًا يطعم منه كل مسكين مدّ برّ، أو ما في حكمه.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إن لم يجد فيصوم عن إطعام كل مسكين يومًا ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: وجبت عليه العقوبة لينال جزاء فعله في مخالفة أمر الله.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: أن الله تجاوز عمن قتل الصيد في الحرم في زمن الجاهلية ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: من استمر على قتل الصيد في الحرم بعدما علم بتحريمه فسوف ينتقم الله منه، وقد يكون هذا الانتقام في الدنيا أو في الآخرة؛ جزاء ارتكابه ما حرم الله عليه.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: عزيز في ملكوته، قادر على أن ينتقم ممن يخالف أحكامه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- ابتلاء الله -عز وجل- لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عام الحديبية حين كان يغشاهم الصيد بكثرة، فامتثلوا لأمر الله بعدم التعرّض له.
- بيان التحكيم في الصيد؛ إذْ لا يجوز للصائد أن يُكَفِّر بنفسه؛ لأنَّ وجوه المشابهة بين الصيد والنَّعَم كثيرة، فاحتاج ذلك إلى زيادة

التأمل، فقال: ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾.

- تحريم الصيد على من هو محرم، سواء كان في الحرم أم خارجه، فمن فعل ذلك فعليه جزاء مثل ما قتل من النعم كفارة لفعله، فمن صاد ظبيًا أو حمامة فعليه شاة تذبح في الحرم، وتفرق على مساكينه، ولا يحكم بذلك الفاعل على نفسه، بل يحكم به عليه اثنان من العدول، فإن لم يجد من النعم ما يشبه ما قتل من الصيد ففيه القيمة، أي: تكون الكفارة إطعام مساكين، بحيث تُقَوَّمُ قيمة الجزاء، فيشتري بها طعامًا، يطعم منه كل مسكين مدًّا من البر، فإن لم يجد فيصوم عن إطعام كل مسكين يومًا حسب عدد المساكين الذين يجب إطعامهم، ولا يدخل في التحريم صيد البحر.

ويجوز للمحرم قتل الفواسق من الدواب؛ لما ثبت في الصحيحين عن عائشة-رضي الله عنها-أن رسول الله-ﷺ-قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب جزاء الصيد، باب: ما يقتل المحرم من الدواب، (رقم ١٨٢٩)، ومسلم في كتاب الحج، باب: ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، (رقم ١١٩٨).

- أن الله-عَزَّ وَجَلَّ-شديد ينتقم ممَّنْ يتعدَّى حدوده، ويخالِفُ أمره، ويُصِرُّ على معاصيه، وقد أتى بالاسم الأعظم لما اقتضاه المقام من الرهبة والخوف والجلال.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

بيان الآية:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾أي: كل ما يصطاد منه من سمك ونحوه ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي: ما لفظه وطرحه، وهو المشهور عن ابن عباس، وقال به جمع من الصحابة، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن أبي هريرة-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قال: قال رسول الله-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿أُحلَّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ قال: «طعامه ما لفظه ميتاً فهو طعامه»(١).

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ﴾ أي: قوَّة لكم ولغيركم ممن يرتاد البحر من المسافرين، وقد سبقت الإشارة إلى حديث جابر-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «أن

---

(١) التفسير، (١١/ ٧٠)، (رقم ١٢٧٢٩)، قال الشيخ محمود شاكر: «إسناد صحيح، ورجاله ثقات حفاظ».

رسول الله -ﷺ- بعث بَعْثًا قِبَلَ الساحل، وَأَمَّرَ عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وأنا فيهم، فخرجنا، فلما انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة..الحديث»(١).

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: حرم عليكم صيد البر ما دمتم على إحرامكم.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمر منه -جلَّ ذكره- لعباده بالتقوى، أي: فيما أمرهم به من طاعته وطاعة رسوله، والحذر من معصيته ومعصية رسوله، وما نهوا عنه من شرب الخمر، ولعب القمار، وتعظيم الأوثان ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: إليه مرجعكم ومعادكم.

أحكام وفوائد الآية:

- بيان فضل الأُمة في إباحة صيد البحر وطعامه في حِلِّها وإحرامها.
- الحكم بحلية صيد البحر للمتحلل والمحرم على السواء، وحل ما جزر عنه، أو طفا عليه، خلافًا للإمام أبي حنيفة بتحريم ميتته(٢)، والأصل في حل طعامه قول رسول الله -ﷺ-: «أحلت لنا ميتتان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: حمل الزاد على الرقاب، (رقم٢٩٨٣)، ومسلم في كتاب الصيد، باب: إباحة ميتة البحر، (رقم ١٩٣٥).

(٢) الاختيار لتعليل المختار للموصلي الحنفي، (٥/ ١٥).

ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»[١].

- الحكم بكون ماء البحر طهورًا، وقد بينت ذلك السنة، فقد سأل رجل رسول الله-ﷺ-، فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر، ومعنا القليل من الماء، فإن توضَّأنا عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟، فقال رسول الله-ﷺ-: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»[٢].

- الحكم بحل صيد البر في حال عدم الإحرام، أما في حال الإحرام فلا يحلّ للمحرم أكله، سواء صاده بنفسه أم صيد له.

﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩ قُل لَّا يَسۡتَوِي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب: الكبد والطحال، (رقم ٣٣١٤)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب: الوضوء بماء البحر، (رقم ٨٣)، والترمذي في كتاب الطهارة، باب: ما جاء في ماء البحر أنه طهور، (رقم ٦٩)، والنسائي في كتاب المياه، باب: الوضوء بماء البحر، (رقم ٣٣١)، وابن ماجه في كتاب الطهارة، باب: الوضوء بماء البحر، (رقم ٣٨٧)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ أي: خلق هذا المكان ﴿ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي: ملجأً ومقصدًا وصلاحًا لهم، وقد حرم الله بيته الحرام، وعظَّمه، وجعل له محبة وهيبة في نفوس الناس، فيلجؤون إليه عند فزعهم، ويعتصمون فيه عند خوفهم، قال-تعالى-: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «يعني: قياماً لدينهم، ومعالم لحجّهم»(١).

﴿ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ المراد بذلك: الأشهر الحرم الأربعة التي حرَّمها الله، فعظَّمها العرب في نفوسهم، فكانوا يكفون فيها عن القتال، حتى إن الرجل يلقى قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه، فلا يتعرض له.

﴿ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ أي: ما يقلد من الهدي إشعارًا بأنه مهدى

---

(١) التفسير، (٩/٨).

إلى الحرم، والمراد أن البيت الحرام، والأشهر الحرم، والهدي، والقلائد، كانت بمثابة الولي أو السلطان الذي يحترمه الناس، أي: أنهم يحترمون هذه الشعائر مما يتيسَّر لهم في البيت الحرام وما حوله من الأمن والرخاء.

وحرمة البيت الحرام معروفة من الدين بالضرورة، وشاهدها: قول رسول الله-ﷺ-: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرًا، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»(١).

﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

أي: أن ذلك الذي ذكره الله ليعلم المخاطبون أنه يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم أحوالهم، وما تقتضيه مصالحهم، وحاجاتهم من الأمن وغيره.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ليعلموا كذلك أنه يعلم كل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب جزاء الصيد، باب: لا يعضد شجر الحرم، (رقم ١٨٣٢)، ومسلم في كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، (رقم ١٣٥٤).

شيء.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: وكما تعلمون أن الله يعلم ما في السماوات والأرض فاعلموا أنه شديد العقاب لمن خالف شرائعه، وأنه غفور رحيم لمن يطيعه ولا يعصيه.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي: ليس على الرسول إلا أن يبلغكم ما أرسل به، وعندئذٍ تقوم الحجة عليكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ أي: يعلم ما تعلنونه ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي: ما تسرونه في أنفسكم، فلا يخفى عليه منكم خافية.

﴿قُل﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد-ﷺ-أن يقول للناس: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ فبينهما فرق كبير، فالحلال لا يستوي مع الحرام، والدين الصحيح لا يستوي مع المعتقدات الفاسدة، والكلام الطيب لا يستوي مع الكلام البذيء ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ أي: أن المهم ليس في الكثرة، بل في العمل الطيب، فالمؤمنون-وإن كانوا قلة-خير من الكافرين-وإن كانوا كثرة-، والمال الحلال-وإن كان قليلًا-خير من المال الحرام-وإن كان كثيرًا-، وهكذا.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾ أي: اخشوا الله، واتقوه يا أصحاب العقول السليمة!، واجتنبوا كل خبيث من المال وغيره ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: تفوزون في دنياكم وأُخراكم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير منة الله-تعالى-على عباده أن جعل بيته الحرام مقصدًا لهم، وأمنًا وصلاحًا لهم، وجعل في قلوبهم هيبة واحترامًا له.
- أن الله ذكر في هذه الآية أمام العقاب وصفين من أوصاف الرحمة، وهما كونه غفوراً رحيماً، قال الرازي: «وهذا تنبيه على دقيقةٍ، وهي أنَّ ابتداء الخلق والإيجاد كان لأجل الرحمة، والظاهر أنَّ الخَتْمَ لا يكون إلا على الرحمة»[1].
- تقرير أنه ليس على رسول الله-ﷺ-إلا إبلاغ الرسالة إلى الخلق، وقد فعل ذلك-عليه الصلاة والسلام-، وأشهد الله، ثم أشهد العباد يوم حجة الوداع على ما قام به من البلاغ.
- الحكم بعدم المساواة بين الحلال والحرام مهما كانت كثرة الحرام، وينبني على هذا فسخ البيع إذا كان منشؤه فاسدًا كالربا، أو الرشا، أو الغش، أو الخداع، أو أي صورة من صور الفساد المانع من الحل.

---

(١) تفسير الرازي، (١٢/ ١٠٢).

- أنه يستنبط من الآية (٩٨) الوقف النبوي عند قوله-تعالى-: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، ينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥). (ح)

- التنبيه على لزوم الطيِّب في المعتقد والعمل، وخُصَّ أولو الألباب بالذكر لأنَّهم المتقدمون في مَيْزِ هذه الأمور، والذي لا ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم.

- أن تقوى الله فلاح للمؤمن في الدنيا، وفوز بالجنة في الآخرة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ
تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا
ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ
أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا
وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ
كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾.

بيان الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ في هذا نهي لأصحاب رسول الله -ﷺ- عن سؤال ما لا يلزم السؤال عنه حين أكثروا السؤال دون ضرورة له، وفي هذا روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كان قوم يسألون رسول الله -ﷺ- استهزاء، فيقول الرجل منهم: من أبي؟، ويقول الرجل الذي ضلَّتْ ناقته: أين ناقتي»؟[1].

كما روى علي -رضي الله عنه- أنه «لما نزل قول الله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله! أفي كل عام؟، فسكتَ، فقالوا في كل عام؟، قال: «لو قلت: نعم! لوجبت، ولو وجبت لم تقوموا بها، ولو لم تقوموا بها عُذِّبتم»، فأنزل الله -تعالى- هذه الآية»[2].

فاقتضى هذا ذم السؤال من غير لازم؛ وشاهده -أيضًا-: قول رسول الله -ﷺ-: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات،

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله -تعالى-: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾، (رقم ٤٦٢٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب المناسك، باب: فرض الحج، (رقم ٢٨٨٥)، من حديث أنس، وصححه الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه.

ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[١].

﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ أي: وإن تسألوا عن أشياء حين ينزل القرآن تبد لكم تكاليف، وتؤمروا بالقيام بها رغم صعوبتها عليكم، وعندما تعجزون عنها يعاقبكم الله، والمراد: أن الأفضل لكم ألا تسألوا عمّا لا حاجة ولا ضرورة لكم في السؤال عنه.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أي: عفا الله عما سألتم عنه مما لا حاجة لكم فيه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: يغفر الخطايا والسيئات، ومن صفاته العلية: أنه حليم عليكم فيما يصدر عنكم من كثرة السؤال.

﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي: قد سأل عن هذه الأشياء قوم قبلكم، ففرضت عليهم، فلم يطيقوها، ثم أصبحوا بعدم القيام بها كافرين؛ ذلك أنهم سألوها على وجه التنطع والتكلف، ولم يسألوها على وجه الاستفادة، وشاهده: قول رسول الله-ﷺ-: «إن أعظم المسلمين من المسلمين جرمًا من سأل عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، باب: ما ينهى عن إضاعة المال، (رقم ٢٤٠٨)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، (رقم ٥٩٣).

شيء لم يحرم على المسلمين، فحرم عليهم من أجل مسألته»[١].

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما شرع وحكم ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ البحيرة: التي يمنح درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يطلقونها من قيدها احترامًا لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء، وفي هذا روى أبو هريرة أن رسول الله-ﷺ-قال: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب»، والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل أنثى، ثم تثنى بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينها ذكر، والحامي: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ أي: أن هؤلاء المشركين ابتدعوا هذه الأشياء من عند أنفسهم، ومن تقاليدهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب: ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لايعنيه، (رقم ٧٢٨٩)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: توقيره-ﷺ-، وترك إكثار سؤاله، (رقم ٢٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، (رقم٤٦٢٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، (رقم ٢٨٥٦)، واللفظ له.

وعاداتهم الفاسدة افتراءً وكذبًا على الله، وما ذلك إلا لأنهم لا يعقلون، ولو كانوا عقلاء لما فعلوا ذلك، ونسبوه إلى الله كذبًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: إذا قيل لهم: اتبعوا شرع الله وأحكامه، فخذوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: نحن في غنى عن دعوتكم، ويكفينا ما كان عليه آباؤنا وأسلافنا؛ لأنهم كانوا على حق.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: أنهم يتبعون أهواء آبائهم وأسلافهم، ولو كانوا على باطل، فلا يعلمون من الحق شيئًا، ولا يهتدون إليه.

أحكام وفوائد الآيات:

- عدم جواز التنطع في السؤال؛ لقول رسول الله-ﷺ-: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثًا[(١)]، وقوله-عليه الصلاة والسلام-: «إن الله كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[(٢)].
- تحريم الابتداع في الدين، والحكم بأن كل عمل لا يرجع فيه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب: هلك المتنطعون، (رقم ٢٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، باب: ما ينهى عن إضاعة المال، (رقم ٢٤٠٨)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، (رقم ٥٩٣).

صاحبه إلى أحكام الله وشرعه فهو مردود عليه، وأن المبتدعين في الدين لا يعقلون؛ لأنهم لو كانوا عقلاء لما نسبوا إلى الله الكذب.

- تحريم اتباع المبتدعين والجهلة فيما يدعون إليه من البدع والكذب.
- التوازن بين التزام الأوامر والنواهي والوفاء بعهد الله، وبين عدم التشديد على النفس فيما لم يأمر به الله -تعالى-.
- غلبةُ أهل الإسلام، وإن قَلُّوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾.

بيان الآية:

الخطاب للمؤمنين ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي: عليكم الاهتمام بأنفسكم، وإصلاحها بالإيمان والتقوى والأعمال الصالحة.

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ أي: من ضلَّ عن دينكم، ولم يهتد بالهدى الذي جاء به رسولكم لن يضركم؛ لأنه لا يضر إلا نفسه ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ إلى الصراط المستقيم، وشاهده: أن المؤمنين كانوا

يتحسَّرون على أهل الكفر الذين لم تنفعهم المواعظ، وكانوا يتمنَّون دخولهم الإسلام، فخاطب الله المؤمنين بأن عليكم بأنفسكم، ولن يضركم ضلالهم إذا كنتم مهتدين، ولما كان بعض الصحابة يتأوَّل الآية على غير حقيقتها خطب أبو بكر-رضي الله عنه-فيهم، فقال: «أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه»[(١)].

وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ يقول: أطيعوا أمري، واحفظوا وصيتي»[(٢)].

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إليه مآلكم ومعادكم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: سوف تجدون حينئذٍ كل شيء مكتوبًا لكم أو عليكم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي، (رقم ٤٣٣٨)، والترمذي في كتاب الفتن، باب: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، (رقم ٢١٦٨)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم ٤٠٠٥)، والإمام أحمد في المسند، (١/ ١٧٧)، (رقم ١)، وصححه الترمذي والألباني.

(٢) التفسير، (٩/ ٤٩).

أحكام وفوائد الآية:

- أنه يجب على العبد أن يطهِّر نفسه في مطعمه ومشربه، وأن يزكيها بالأعمال الصالحة، وينقيها من أدران الآثام والمعاصي.
- أن فساد الناس لا يضر العبد، ولكن ذلك لا يعني سكوته على المنكر، بل يجب عليه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر-حسب قدرته-، فإذا فعل ذلك انتفت مسؤوليته، فلا يضره إذًا فساد الناس.
- تقرير البعث والنشور، ومجازاة العباد بأعمالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦
فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ

﴿١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ
أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾.

بيان الآيات:

ما زال السياق في مخاطبة المؤمنين؛ لإرشادهم لاتباع أحكام الله وأوامره.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «كان تميمٌ الداريُّ وعَدِيُّ بنُ بدَّاء رجلين نصرانيين، يَتَّجران إلى مكة في الجاهلية، ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النَّبي-ﷺ-حَوَّلا متجرهما إلى المدينة، فخرج بديل السهمي مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة، فخرجوا جميعا تجاراً إلى الشام، حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصية بيده، ثم دَسَّها في متاعه، وأوصى إليهما، فلما مات فتحا متاعه، فأخذا منه شيئاً-إناءً من فضة منقوشاً بالذهب-، ثم حجراه كما كان، وقدما المدينة على أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه، فوجدوا كتابه، وعهده، وما خرج به، وفقدوا شيئاً، فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له، ودفع إلينا، فقالوا لهما: هذا كتابه

بيده، قالوا: ما كتمنا له شيئاً، فترافعوا إلى النبيِّ -ﷺ-، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾، فأمر رسول الله -ﷺ- أن يستحلفوهما في دُبُر صلاة العصر: بالله الذي لا إله إلا هو، ما قبضنا غير هذا، ولا كَتَمْنا، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموَّه بالذهب، فقال أهله: هذا من متاعه؟، قالا: نعم!، ولكنا اشتريناه منه، ونَسِينا أن نذكره حين حلفنا، فكرهنا أن نُكَذِّب نفوسنا، فترافعوا إلى النبيِّ -ﷺ-، فنزلت الآية: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ فأمر النبيُّ -ﷺ- رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغيَّبا، ويستحقانه»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾ أي: أنه إذا حضر أحدكم الموت عليه أن يُشهد على وصيته اثنين ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين من أقاربكم أو من غيرهم.

﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ أي: ويجب عليكم الإشهاد على

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، (رقم ٢٧٨٠).

وصيتكم اثنين من غير المسلمين إذا كنتم في سفر، ولم تجدوا مسلمين يشهدون عليكم. وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: سمعت ابن المسيّب يقول: «﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: مسلمين ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أهل الكتاب»(١).

﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: بعد صلاة العصر حال اجتماع المسلمين، فإذا ارتبتم في عدالتهما وصدقهما، ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ أي: يحلفان أنهما لم يشتريا بأيمانهما ثمنًا قليلًا، أي: أنهما لم يخونا في شهادتهما، ولم يشتريا بها عرضًا من عروض الدنيا ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي: ولو كان المشهود عليه ذا قرابة لنا لن نحابيه ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا نكتم الشهادة لأنها أمانة ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أي: إذا كتمناها فسنرتكب إثمًا وخطيئة ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ فإن تبين أن هذين الشاهدين كذبا في شهادتهما، أو خانا الموصي بأن سرقا شيئًا من ماله ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ أي: يقوم اثنان

---

(١) المصنف، (٣٦٠/٨).

من المستحقين للتركة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: أن شهادتنا عليهما بالخيانة والسرقة أصح وأثبت من شهادتهما.

﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ أي: أننا لم نعتدِ عليهما في اتهامنا لهما بالخيانة والسرقة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: أننا لو كذبنا عليهما فيما قلناه سنكون من الظالمين ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: أقرب أن تكون شهادتهما صادقة، لا كذب ولا خيانة فيها.

﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أن يكون دافع هذين الشاهدين بالإتيان بالشهادة على وجهها الصحيح خوفهم من الفضيحة إذا كذبوا.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أقوالكم وأيمانكم ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما أمركم الله به من الأحكام ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي الذين أمرهم بالهدى فلم يهتدوا، وأمرهم بالحق فلم يمتثلوا.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحث على الوصية في حضر العبد وسفره، وشاهده: قول رسول الله-ﷺ-: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا

ووصيته مكتوبة عنده»[١].

- وجوب الإشهاد على الوصية، ويجوز للحاكم تحليف الشهود إذا شك في شهادتهم.
- جواز شهادة غير المسلم، ومنها: جواز إشهاد غير المسلم على وصية المسلم إذا تعذر وجود شاهد مسلم.
- تحليف الشاهد على أنَّه صادق في شهادته، وتخصيص الحَلِفِ في الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة التي نزلت لها.
- مشروعية اختيار الوقت الذي يؤثِّر في نفوس الشهود الذين حَلَفُوا الأيمان؛ رجاءَ أن يَصْدُقوا في كلامهم، فقد جُعِلت بعد الصلاة، وكونها عقب الصلاة للتغليظ والتهويل.

﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾.

بيان الآية:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: يوم القيامة، فيفزعون، فيقول لهم: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾ أي: ماذا أجابتْكم الأُمم التي أرسلتم إليهم؟؛

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب: الوصايا وقول النبي-ﷺ-: وصية الرجل مكتوبة عنده، (رقم ٢٧٣٨)، ومسلم في أول كتاب الوصية، (رقم ١٦٢٧).

وشاهده-أيضًا-قوله-عزَّ ذكره-: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ أي: يقولون: إن علمنا قاصر عن علمك الواسع، فنحن نعلم ما ظهر منهم من قبول الدعوة أو إنكارها، أما سرائرهم فأنت أعلم بها منا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي: أنت عالم الغيب المحيط بكل شيء من أفعال عبادك، وشاهد هذا: قول رسول الله-ﷺ-في شأن الكوثر-كما سبق ذكره -: «هو حوض ترد عليه أُمتي، فأقول: رب أُمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»(١).

أحكام وفوائد الآية:

- تقرير عظم يوم القيامة، وما فيه من الأهوال التي يذهل لها العباد، ومنهم الرسل-عليهم السلام-، فيسألهم الله-جلَّ جلاله-وهو أعلم بهم-عما أجابهم الذين دعوهم إلى عبادته وتوحيده، فيجيبون بلسان واحد عما ظهر لهم من أقوامهم من قبول دعوتهم أو إنكارها، أما سرائرهم فلا يعلمونها، وإنما يعلمها هو-جلَّ ثناؤه-.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة باب: حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، (رقم ٤٠٠).

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ
وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ
ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ
وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ
كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى
ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا
مُسۡلِمُونَ ١١١﴾.

بيان الآيتين:

لما بيَّن الله في الآيات السابقة حال عيسى، وأنه عبد من عبيده، وأن من يقول بألوهيته، أو يجعله ابنًا، أو شريكًا له يعد كافرًا، بيَّن-عزَّ ذكره-أنه يخاطب عيسى بقوله: ﴿ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾ أي: اذكر ما أنعمت به عليك من الكرامات، فقد خلقتك بكلمة، وبدون أب، خلافًا للمعتاد في سائر خلقي، وجعلتك نبيًا، وأنطقتك في المهد

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث برّأتها مما نسبه لها اليهود، وطهرتها،

واصطفيتها على نساء العالمين.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: جبريل ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ﴾ أي: كلَّمت الناس وأنت طفل صغير، خلاف الآخرين الذين لا يتكلمون في هذه السن، وكهلًا أي: كما كلّمت الناس في المهد كلّمتهم وأنت كهلٌ تدعوهم إلى الله.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ﴾ أي: علمتك الكتاب والحكمة أسرار الدين والتوراة التي أنزلت من قبلك على موسى، كما علمتك الإنجيل الذي أنزل عليك.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ﴾ أي: علَّمتك كيف تصور وتُشَكِّل من الطين على هيئة الطير، فتنفخ فيه فيكون طيرًا؟.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ﴾ أي: تبرئ بإذني الأكمه، أي: الذي ولد أعمى، والأبرص: من به مرض البرص، وهو بياض تحت الجلد.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىۖ﴾ أي: تخرجهم من قبورهم أحياء، حيث قال له بنو إسرائيل: ناد سام بن نوح، فوقف على قبره،

فناداه، فقام حيًّا.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: منعتهم من إيذائك حين اتهموك بأنك ساحر، وحاولوا قتلك، فرفعتك إلي.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ الحواريون: أنصار عيسى وأتباعه، والوحي: الإلهام، وليس بالمعنى الذي يوحي به إلى الملائكة والرسل، والمراد: ألهمتهم أن يؤمنوا بك ويصدقوك ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: قالوا لله: اشهد بأننا مسلمون.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير إنعام الله وفضله على عيسى ابن مريم-عليه السلام-بما أعطاه من المعجزات دلالة على نبوته.
- تكرار كلمة ﴿بِإِذْنِي﴾ تأكيداً لكون ذلك واقعاً بقدرة الله-تعالى-وتخليقه، لا بقدرة عيسى وإيجاده.
- أن لكلِّ عصر ما يناسبه من المعجزة، فاشتهر عصر عيسى-عليه السلام-بالطِّبِّ والعلوم، فأجرى الله على يديه ما يفوق الطِّب البشري

والعلوم والثقافة البشرية المعهودة، واشتهر عصر موسى-عليه السلام- بالسِّحر والشَّعوذة، فأيَّده الله-تعالى-بما يفوق سحر السحرة، باليد والعصا، وفَلْقِ البحر، وتفجير الماء من الحجر ينابيع، هي اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط (قبائل بني إسرائيل)، واشتهر عصر النبي محمد-صلى الله عليه وسلم-بسحر البيان في الكلام شعراً ونثراً وخطابةً، فأنزل الله عليه القرآن الكريم، وفيه أعلى البيان، وأسمى الفصاحة والبلاغة، فكان إعجاز القرآن البياني معجزة النبي-صلى الله عليه وسلم-إلى يوم القيامة.

- جواز نسبة الإنسان إلى أُمِّه إذا لم يكن له أب؛ لقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.
- أن اللقب الفاضل لجبريل هو روح القدس؛ فإنَّ القدس بمعنى الطهارة والنزاهة من كل عيب.
- أن المراد بالوحي الذي أوحاه الله إلى الحواريين الإلهام، وليس بمعنى الوحي الذي يوحي به إلى الملائكة والرسل.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١١٢ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا

وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ
رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا
وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى
مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ
أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

بيان الآيات:

المائدة: هي الخوان الذي يوضع عليه الطعام، وهذه من الكرامات التي امتنَّ الله بها على عيسى حين سأله أتباعه أن ينزلها عليهم، فنزلت، وبها سميت هذه السورة.

﴿**إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ**﴾ أي: أتباع عيسى ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ**﴾ أي: يكون فيها طعام نأكل منه كل يوم لحاجتنا إليه.

﴿**قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ وهذا جواب استغراب منه أن يسأل ربه هذا السؤال، فقال لهم: اتقوا الله، واعملوا، واحصلوا على معاشكم من جهدكم وعملكم، فلم يقتنعوا بكلامه، فقالوا: ﴿**نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا**﴾ أي: نحن في حاجة إلى الأكل منها، وهذا

يدل على فقرهم وعوزهم ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي: حين نراها تنزل من السماء.

﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: يزداد إيماننا برسالتك ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: نشهد أنك نبي، وأن الله أرسلك إلينا.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لما ألحُّوا على عيسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بهذا السؤال سأل ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء بقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: تكون لنا مناسبة .

﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: من يأتي بعدنا، فقيل: إنها نزلت عليهم يوم الأحد، فلهذا جعل النصارى يوم الأحد عيدًا لهم(١)، وأخرج الطبري بسند حسن عن السدي قال: «نتخذ اليوم الذي نزلت عيداً نعظّمه نحن ومَن بعدنا»(٢).

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي: قال عيسى في دعائه: وأن تكون هذه المائدة آية أي حجة عليهم ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي: امننْ علينا بفضلك ﴿وَأَنتَ

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، (ص٤٢٠) .

(٢) التفسير، (١٢٣/٩).

﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: أنت خير المتفضلين.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ هذا جواب من الله -ﷻ- لنبيه عيسى، قائلًا له: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ فكان وعدًا منه -جلَّ ذكره-، وقد أنزلها عليهم لحمًا وخبزًا(١).

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي: فمن جحدها أو كذبها من أتباعك وأُمتك

﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: سأذيقه عذابًا شديدًا لا أعذب به أحدًا في زمانكم، وقد كفروا بها حين قال بعضهم: أهي من طعام الدنيا أم من طعام الجنة؟، قال عيسى: «أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات، وتنتهوا عن تنقير ما أخوفني أن تعذبوا»(٢)، وقد عذبوا كما ورد في الأثر أنهم مسخوا قردة وخنازير(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة المائدة، (رقم ٣٠٦١)، بلفظ: «أُنْزِلَتِ المَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا».

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، (١٢٤٦/٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة المائدة، (رقم ٣٠٦١)، بلفظ: «أُنْزِلَتِ المَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا، وَأُمِرُوا أَلَّا يَخُونُوا وَلَا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ، فَخَانُوا، وَادَّخَرُوا، وَرَفَعُوا لِغَدٍ، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ».

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير سوء سلوك الحواريين بسبب سؤالهم إنزال مائدة من السماء عليهم؛ لكي يصدقوا نبوة عيسى ورسالته، واستنكاره-عليه السلام-لسؤالهم، وتوجيهه لهم أن يتقوا الله إن كانوا حقًّا مؤمنين.
- استجابة الله-عز وجل-لعيسى-عليه السلام-، حيث أنزل على قومه المائدة ابتلاء لهم، ولما شكوا فيها حين تساءلوا عما إذا كانت من طعام الدنيا أم من طعام الجنة مقتهم الله.
- الفرق بين طَلَبِ الحواريين وطَلَبِ عيسى ابن مريم؛ فالحواريون قدَّموا بشريَّتهم، فطلبوا من المائدة أولاً الأكل والطعام؛ فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، أما عيسى ابن مريم فقد أخَّر الطعام عن القيم المعنوية، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ وأَتَى عيسى بكلمة الرزق عند دعاء ربه، وهي عامةٌ تشمل كلَّ أنواع الرزق؛ لتشمل الطعام والشراب والملبس والعلم والحلم.
- مشروعية الأعياد الدينية لعبادة الله بالصلاة والذِّكْر شكراً لله-تعالى-.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى
وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا
لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ
أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا
مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا
مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ
فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ .

بيان الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ لما كان عيسى -عليه السلام- قد أرسل إلى قوم لم ينتفعوا بما أتاهم به من الهدى، وإنما ضلُّوا، فأشركوه وأُمَّه مع الله، فيناديه الله يوم القيامة بقوله: هل قلت للناس: اتخذوني وأُمي إلَـهين من دون الله؟. والمراد منه: إقامة الحجة على النصارى الذين قالوا بألوهيته هو وأُمه، فيكون جوابه -عليه السلام-: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ أي: أنه يستغفر الله، ويقول لربه: حاشا أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها، فأنت الرب،

وأنت الإلَه، وأنت الخالق، وأنا عبد من عبيدك.

وعن أبي هريرة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-قال: «تلقّى عيسى حُجّته، ولقّاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. قال أبو هريرة: عن النبي-ﷺ-: فلقّاه الله: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ كلها»[١].

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ أي: إن كنت قلته فأنت أعلم به، والله يعلم أنه لم يقله؛ لأنه مجرد رسول يبلغ الرسالة، وحاشاه-وهو بهذه الصفة-أن يدعي ما كذب به عليه النصارى، ولكن الله-عزَّ ذكره-أراد أن يوبخ النصارى على شنيع فعلهم.

﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ الجواب متصل من عيسى لربه، يقول فيه: أنت يا رب! تعلم ما في نفسي، وما كنت أجهر وأسر به، ولكني لا أعلم ما في نفسك؛ لأني لست إلا عبدًا من عبيدك، لا حول لي ولا طول إلا ما امتننت به علي ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، (٥/٢٦٠) سورة المائدة، (رقم ٣٠٦٢)، والنسائي في التفسير (١/٤٦٨)، (رقم ١٨٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره، (٥/٤٧٤)، (رقم ٩٩٢)، وصحَّحه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي، (٣/٤٨-٤٩)، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».

ﵟٱلۡغُيُوبِﵞ أي: أنت الذي تعلم ما كان في الكون كله، وما يكون فيه

ﵟمَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓﵞ أي: ما قلت لهم إلا ما أمرتني أن أقوله، وهو: ﵟأَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚﵞ أي: اعبدوه وحده لا شريك له، لا رب غيره، ولا إلَه سواه.

ﵟوَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖﵞ أي: كنت رقيبًا وحفيظًا عليهم وقت وجودي لديهم، وذلك بما أمرتهم به مما أمرتني به.

ﵟفَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚﵞ وفي هذا روى ابن عباس-رضي الله عنهما-أن رسول الله-ﷺ-قام فينا خطيبًا بموعظة، فقال: «يا أيها الناس! إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا ﵟكَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَﵞ [الأنبياء: ١٠٤]، ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم-عليه السلام-، ألا وإنه يجاء برجال من أُمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب! أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﵟوَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قال: فيقال لي: إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»(١).

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾ لما قال عيسى-عليه السلام-: إنه كان الرقيب عليهم قبل وفاته قال لربه: هؤلاء الذين عصوك هم عبادك، فإن عذبتهم فأنت ربهم. وفي قوله-عليه السلام-في مناجاته لربه براءة من عصيان قومه، وقد ذكر الطبري «أن قوله هذا هو على وجه التسليم لأمره والاستجارة من عذابه»(٢).

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القوي فيما تريد وتفعل، وأنت ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في قولك وفعلك.

أحكام وفوائد الآيات:

- إقامة الحجة على النصارى يوم القيامة، وذلك ببراءة عيسى-وأُمه-عليهما السلام-منهم، وإنكاره لما يقولونه من تأليهه وتأليه أُمه مع الله، أو إشراكهما في ربوبيته.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، (رقم ٤٦٢٥)، ومسلم في كتاب الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، (رقم ٢٨٦٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/٣٧٨).

- أن عقاب العباد أو العفو عنهم راجعان لمشيئة الله وحكمته وإرادته فيهم، فهو العليم بأحوالهم وسرائرهم.

- توبيخ النصارى يوم القيامة أمام الناس جميعاً على تأليه عيسى بن مريم وأُمِّه -عليهما السلام-.

- أدبُ عيسى -عليه السلام- يوم القيامة حين سؤاله، ورَدُّ عِلْمِ ذلك إلى الله -عز وجل-، فمن الأَولى أن يتأدب الخلق مع خالقهم، فهم أقل رتبةً ومنزلة من رتبة الأنبياء والمرسلين.

- ثراء أسلوب الاستفهام في دلالة المعنى وبيان مقاصده، وليس الاستفهام في الآية على حقيقته، بمعنى أن السائل لا يستفهم عن شيء لا يعلمه، ولكن يريد منه أن يلفت المسؤول إلى شيء يريده، وقد فَهِمَ عيسى -عليه السلام- السؤال على الوَجْه الذي ينبغي أن يُفْهَم به، وهو أنَّه واردٌ على سبيل استنطاقه بما يعلمه الله، ويَعْلمه هو، من ادِّعاء النصارى هذا الكَذِبَ على عيسى تكذيباً لهم وتبكيتاً، ورَدًّا على افترائهم هذا في حقِّ الله، وفي حقِّ عيسى -عليه السلام- تَبْرِئَةً له، وإقامة للحُجَّة عليهم؛ ولذا أجاب مُسْنِداً عِلْمَ ما في الضمير والعلم المطلق لله، نافياً ذلك عن نفسه؛ تنبيهاً للسامعين أنَّ سؤال ربِّه إيَّاه ليس طَلَبَ علمٍ، بل هو استنطاق له بما يَعْلَمُه

الله-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فالاستفهام إذاً للتقرير بما يعرفه عيسى-عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

- براءة عيسى-عَلَيْهِ السَّلَامُ-ممَّا نسبه قومه إليه.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

بيان الآيتين:

بعد مناجاة عيسى لربه أجابه-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي: هذا اليوم-يوم القيامة-هو اليوم الذي ينفع المؤمنين إيمانُهم وتوحيدُهم وطاعتُهم لربهم، فلهم على ما عملوا ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: سيدخلون الجنة، ويكون لهم الخلود فيها.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: رضي عنهم بما امتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: بما أثابهم على عملهم من دخول الجنة والخلود فيها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: هذا الذي آل إليه المؤمنون هو الفوز الذي لا فوزَ أعظمُ منه، وهو رضوان الله

عليهم.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾ لعلَّ المراد: أن النصارى لما جعلوا عيسى إلَهًا ردَّ الله عليهم بأنه هو المالك المطلق للسماوات والأرض ومن فيهنَّ، وهو المتصرف الدائم الذي لا يزول ولا يحول، وكل الخلق-ومنهم عيسى-تحت مشيئته وحكمه وتصرفه وإرادته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ أي: هو القادر على كل شيء، فتقدَّست أسماؤه وصفاته، وجلَّ جلاله، لا إلَه إلا هو.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير فضل الصدق، وفيه قول رسول الله-ﷺ-: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقًا..الحديث»(١).

- أن الله مالك السماوات والأرض، وكل من فيهما وما بينهما، فهو المعبود وحده، فمن عبد غيره فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: قول الله-تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، (رقم ٦٠٩٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، (رقم ٢٦٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

مكية، وعدد آياتها مئة وخمس وستون آية

وقيل: إن بعضها نزل في المدينة(١)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ
وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن
طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ
ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد لله-عَزَّ وَجَلَّ-المتفرد بالألوهية، فلا يحمد أحد بحق سواه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ في هذا بيان عن قدرته-عَزَّ وَجَلَّ-في خلق السماوات والأرض على النحو المحسوس المتجلي في هذا الكون بآياته من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار،

---

(١) غالب آيات هذه السورة عن المشركين، وكونهم يعدلون مع الله غيره، وفيها يبيِّن الله-تعالى-قدرته، ويسلي نبيه ورسوله محمداً-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عما يتعرض له في سبيل الدعوة إليه.

وكل ما فيه من الآيات البيّنات الدالَّة على قدرته وصنعه.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ المراد بالظلمات: سواد الليل، والمراد بالنور: بياض النهار وضوؤه، وقد خصَّهما الله بالذكر بعد ذكر خلق السماوات والأرض؛ ذلك أنهما من المحسوسات البينة التي يشهدها المرء فعلاً حين يتعاقب عليه الليل والنهار، فلا يستطيع إنكارهما.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: ومع هذه البينات المعجزات الدالَّة على قدرة الله وصنعه ونعمه على خلقه، يجعل الكافرون معه عدلاً، أي: شريكاً مُساوياً، وهذا من فسادهم وضلالهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ المراد به: آدم، خلقه الله من طين، ومنه تناسل الخلق، وشاهده-أيضاً-: قوله-جلَّ ذكره-: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [غافر:٦٧].

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «يعني أجل الموت ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى﴾ أجل الساعة والوقوف عند الله»[١].

---

(١) التفسير، (١١/ ٢٥٨).

﴿أَجَلًاۖ﴾ أي: أجل كل نفس، وشاهده: قوله-جلَّ ذكره-: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ أي: يوم القيامة، سمَّاه الله، فلا يعلمه إلا هو، كما قال-تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ أي: أن الذين يعدلون بربهم يشكون في أمر الساعة.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هو القائم بتدبير السماوات والأرض وكل ما فيهما من المخلوقات.

﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ أي: وهو في هذا المقام من التدبير والتصرف في خلقه يعلم ما تسرُّون في أنفسكم من الإيمان أو الكفر، ويعلم ما تجهرون به في أقوالكم وسائر تصرفاتكم ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ أي: مطَّلع على ما تكسبونه من خير أو شر.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الحمد لله وحده، وهذا يقتضي أن يحمده العباد حق حمده،

ويشكروه حق شكره على ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة التي يرونها في أنفسهم.

- تقرير قدرة الله-ﷻ-في خلق الكون وخلق الخلق، وتقدير أرزاقهم وآجالهم.
- أنه جمع الظلمات لتعددها وسيادتها في الكون، وأفرد النور لخصوصيته ومحدوديته في الوجود، وعدم تعدده[١].
- كثرة دلائل قدرة الله في كونه العظيم.
- أن القلوب مجبولة على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها، وبُغْضِ مَنْ أساء إليها.
- إنكار الله على الذين يعرفون قدرته، ويرونها في أنفسهم، ويعرفون أنه يعلم سرَّهم ونجواهم، ومع ذلك يشركون معه أصنامهم وأوثانهم التي لا تملك لنفسها ولا لهم ضرًّا ولا نفعاً.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا

(١) آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (٢٣٣-٢٥٤).

وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

بيان الآيات:

السياق في المشركين الذين يعدلون بربهم.

قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: وما يرونه من آية من آيات الله كخسوف القمر، أو كسوف الشمس، أو الرياح الدالَّة على تدبير الله ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لا يبالون بها، ولا يتعظون بها ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ومع إعراضهم عن الآيات كذبوا بالحق، أي: القرآن الذي جاء به إليهم رسول الله محمد-ﷺ-.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في هذا تهديد شديد لهم، أي: سوف ينالهم العقاب لقاء استهزائهم بالقرآن، وبما جاءهم من البينات.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ما زال السياق في المشركين وكفرهم وجحودهم لآيات الله، والمراد بالقرن: الأُمة، والمعنى: ألم يعتبروا بما أهلكنا من قبلهم من الأُمم؟.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى

﴿ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ أي: من القوة في الأموال والأولاد وبسط الرزق في الأرض ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ المراد به: إنزال المطر الكثير والمتكرر.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾ أي: كانت مياه الأنهار تجري في حقولهم وبساتينهم ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: بسبب ذنوبهم وكفرهم بالله.

﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: لما أهلكناهم جعلنا من بعدهم أناساً آخرين، والمراد: تحذير المشركين مما سيصيبهم من العذاب والهلاك، مثلما أصاب الذين من قبلهم، وكانوا أكثر وأشد منهم قوة.

أحكام وفوائد الآيات:

- التنديد بمن يعرض عن آيات الله، أو يكذب بالحق، أو يستهزئ به، وتقرير ما سيناله من العقاب، وهذا يشمل كل من يفعل ذلك في أي زمان أو مكان.
- الحسرة والندامة على مَنْ يرى دلائل قدرة الله ولا يؤمن بها، وكان السياق فيه العدولَ عن الخطاب إلى الغيبة، وهو التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، والإعراض عن خطابهم.

- وجوب الاعتبار بما حلَّ للأُمم السابقة من الهلاك بسبب إعراضهم عن الحق الذي جاءت به إليهم رسلهم، ومنهم: قوم هود وصالح ولوط وشعيب، وغيرهم من الأُمم الهالكة.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ
مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ١٠ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ أي: لو نزَّلنا عليك يا نبينا محمدًا كتاباً في قرطاس-أي: ورق الكاغد ونحوه-، فوضعناه أمامهم ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمسكوا به حسًّا، وشاهدوه بأعينهم ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: المشركون ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا إلا سحر، وليس كتاباً في قرطاس.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾ ما زال السياق في المشركين، فمع طلبهم أن تفجر لهم الأرض ينابيع حتى يؤمنوا قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾ أي: لو جاء مع رسول الله محمد-ﷺ-ملك نراه ونشاهده، والجواب عليه قول الله-جلَّ ذكره-: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إن الله لا ينزل إلى البشر ملكاً، فلو أنزل ملكاً أنزله في صورة رجل كحال جبريل حين ينزل بالوحي، ولو أنزل الله ملكاً، ثم لم يصدقوه لأهلكهم؛ لأن حكمته اقتضت أن من طلب آية، فجاءته، ثم لم يؤمن ولم يصدق بها، أهلكه الله، كما حدث للذين نزلت عليهم المائدة، ثم تساءلوا بينهم: أهي من طعام الدنيا أم من طعام الجنة؟، فكفروا بها، فمسخهم الله قردة وخنازير، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخرون عن العذاب.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: أن الملائكة خلقوا من نور، فلا يستطيع البشر أن يروهم إلا بعد أن يكونوا على صورة رجال ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: لو جعلنا الملك الذي ينزل عليهم رجلاً لألبس عليهم، وقالوا: هذا مثلك يا محمد!،

والمراد: أنهم مكذبون لرسول الله، لا تنفع فيهم المواعظ، ولا يستدلون بالآيات، ولا يصدِّقون البيِّنات.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في هذا تسلية لرسول الله -ﷺ- أن قوماً مثل هؤلاء المشركين قد استهزؤوا بالرسل الذين أرسلوا إليهم ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ أي: حلَّ بالذين سخروا واستهزؤوا ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: حلَّ بهم العذاب جزاء فعلهم.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذا أمر من الله لنبيه أن يقول لهؤلاء المستهزئين المكذبين بآيات الله ورسوله: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ أي: تدبَّروا، واعتبروا بما حدث للأُمم التي كذَّبت رسلها ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: كيف أهلكهم الله بسبب ذنوبهم وتكذيبهم لرسلهم؟، وأنتم لن تكونوا أحسن منهم إذا استمررتم على شرككم وكفركم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الذين ضلُّوا في أنفسهم، واستمرؤوا الشرك والكفر لا يصدِّقون بالآيات، فلو أُنزلت عليهم آية لأوَّلوها على غير حقيقتها، وحينئذٍ يهلكهم الله؛ لأن حكمته اقتضت إهلاك من يطلب آية ثم لا يؤمن

بها.

- أن التكذيب والجحود بآيات الله الكونية من صفات الكافرين، واشتمل القرآن الكريم على إعجاز علمي أثبت حقائق علمية قبل النهضة العلمية.

- أن الله لا يرسل إلى الخلق رسلاً من الملائكة؛ لأنه لو أرسلهم لقالوا: نريد أن يكون بشراً مثلنا، لهذا اقتضت حكمته أن يكون الرسل من بين الأُمم أنفسهم.

- أن تكذيب الرسل والاستهزاء بهم سمة عامة في الأُمم السابقة، وقد أمر الله رسله بالصبر في دعوتهم، كما قال-عز وجل-لنبيه ورسوله محمد-صلى الله عليه وسلم-: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

- وجوب الاعتبار بما حلَّ بالأُمم الماضية من الهلاك والعذاب بسبب كفرهم.

- السير في الأرض، وأَخْذُ العِبْرة من مصارع الأُمم السابقة وهلاكها.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ
يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: قلْ لهم يا نبينا محمدًا: لمن ما في السماوات والأرض؟، فإن أجابوك بأن قالوا: لمن هو؟ فقل لهم: ﴿لِّلَّهِ ۚ﴾، فإن اعترفوا أو سكتوا فالحجة قائمة عليهم.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ أي: فرض على نفسه ألا يعجل لهم العذاب، بل يعطيهم مهلة؛ ليتفكَّروا ويتدبَّروا، كما قال-عزَّ ذكره-: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ اللام:

للقسم، والمراد: أن الله سوف يجمعهم يوم القيامة بلا ريب ولا شك، فينبِّئهم بما كانوا يعملون من السيئات، ويُجازَوْنَ عليها.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ المراد: أن الذين ضيَّعوا أنفسهم بالشرك وبالمعاصي لا يصدِّقون بيوم القيامة.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ لما ذكر الله -جلَّ وعلا- أن له ما في السماوات والأرض، وأنه كتب على نفسه الرحمة، وسيجمع الخلق يوم القيامة للحساب والجزاء، بيَّن أن له كل ما سكن في الليل والنهار، فكل سكون في الليل أو حركة في النهار هو بتدبيره وحكمته.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: السميع لعلانية العباد، العليم بسرهم ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ المراد: أن رسول الله -ﷺ- لما جاء إلى المشركين بالرسالة كذَّبوه، ودعوه إلى عبادة أوثانهم، فأمره الله أن يقول لهم: حاشا أن أتَّخذ إلَهاً غير الله، فهو المعبود وحده، وكل عبادة لغيره باطلة، وشاهده قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مكوّنهما ومبدعهما

وصانعهما، فلا أعبد إلا إياه ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: هو الذي يعطِي ولا يُعْطَى، ويَرْزُقُ ولا يُرْزَقُ، وهو الغني المطلق، فليس بمحتاج إلى رزق، وقد بيَّن-تعالى-هذا بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: إني مأمور من الله-عَزَّ وَجَلَّ-أن أستسلم له بالطاعة والامتثال لأمره، والتبرُّؤ من الشرك وأهله.

والمراد: أول من أسلم من هذه الأُمة التي أرسلت إليها، وليس أول من أسلم من جميع الناس، كما بيَّنه-تعالى-في آيات كثيرة تدل على وجود مسلمين قبل وجوده-ﷺ-ووجود أُمته، كقوله عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله عن يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وإني مأمور ألا أكون من

المشركين، بل أتبرَّأ منهم.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ أي: إن الله أمرني أن أستسلم له، وألَّا أكون من المشركين، فإن عصيته فإني أخاف ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي: أخاف وأخشى أن يعذبني يوم الحساب والجزاء.

﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: من يصرف الله عنه العذاب يوم الحساب والجزاء ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ أي: غفر له، وعفا عنه ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: إن رحمة الله هي الفوز الذي يتمناه العبد يوم القيامة.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله كتب على نفسه الرحمة لعباده، وفيه حديث أبي هريرة-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أن رسول الله-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»[(١)].
- تقرير البعث والنشور يوم القيامة.
- سَعة رحمة الله-عَزَّ وَجَلَّ-بعباده، أوجبها على نفسه تفضلاً وإحساناً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله-تعالى-: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾، (رقم ٧٥٥٤)، ومسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله-تعالى-، وأنها سبقت غضبه، (رقم ٢٧٥١).

- اللجوء إلى الله -تعالى- لكشف الضر، فهو ثمرة التصديق به.

- أن كل ما في الكون من سكون وحركة إنما هو بتدبير الله وتصريفه.

- أن كل ولاية غير ولاية الله محرمة، فالله هو الولي لخلقه، فمن ابتغى ولاية غيره فهو خاسر مطرود من رحمته.

- أن الله -جلَّ ثناؤه- هو المعطي والمانع، فلا رازق إلا هو، ولا مانع إلا هو.

- وجوب الاستسلام لله بالطاعة، والبراءة من الشرك به.

- أن رحمة الله هي الفوز الذي يتمناه العبد.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ في هذه الآية

خاطب الله نبيه، والمراد: أن ما قد يصيبك من مرض أو فقر أو أذى من المشركين، فلن يكشفه إلا الله، فهو الذي ينفع ويضر، وينزل المرض، ويشفي منه، ونظيره قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي: وإن يمتنَّ عليك بالصحة والعافية والرزق ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو القادر على الضر والنفع ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: له الغلبة والقوة، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، خضعت لعظمته الرقاب، وذلت لجبروته الأعناق، لا يسأل عما يفعل، وهم يُسألون.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل أفعاله وتدبيره ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بما يعمله عباده في سرهم وعلانيتهم.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ لما قال المشركون لرسول الله -ﷺ-: من يشهد لك أنك نبي؟ أمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿أَيُّ شَيْءٍ

أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي: من هو أعظم شهادة؟، والجواب: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ أي: هو الشاهد على نبوتي، والمراد: أن شهادة الله أعظم شهادة، فهو الذي خلق الخلق، وهو الإلَه الذي له الألوهية، وهو المطلع على أعمال خلقه، فهو شهيد على أني قد بلغتكم ما أرسلني به إليكم، وهو عبادته وحده.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: وهذا القرآن المنزل من عند الله يشهد أني نبي ومرسل إليكم ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ أي: لأحذِّركم من سوء كفركم وشرككم ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أي: أنذر من بلغ منكم الحلم.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ﴾ سؤال توبيخ وذم، أي: إذا كنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى كتقديسكم اللات والعزى، فأنا لا أشهد معكم؛ لأن فعلكم شرك وكفر، وهذا هو معنى قوله-تعالى-: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾؛ لأن الله إلَه واحد، لا رب غيره، ولا إلَه سواه، وهو معنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أتبرَّأ منكم ومن شرككم وكفركم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الآية (١٧) أصلٌ في سلامة العقيدة وحسن اليقين، وصدق

الإيمان والثقة بأنَّ الله هو النافع وهو الضارُّ، فلا يجوز أن يلجأ الإنسان إلى الشفعاء والوسطاء والكَهَنَة والأولياء، بل يسأل الله-تعالى-وحده، ويُخلص في الدعاء، ويأخذ في الأسباب التي تُعين على دَفْعِ الضر، وجَلْب الخير.

- أنه لا يكشف الضر إلا الله، وهذا يقتضي من العبد وجوب اللجوء إليه في السراء والضراء، وفي الغنى والفقر، وفي الصحة والمرض، ولكن هذا لا يمنع العبد من فعل الأسباب، بل هي واجبة عليه، والله هو المقدر والمدبر.
- تقرير شهادة الله-ﷻ-لنبيه ورسوله محمد-ﷺ-بالنبوة والرسالة، ونزول القرآن عليه، وهذه أعظم وأجل شهادة.
- أن الله أنزل القرآن فيه البشارة والنذارة، وهذا يقتضي أن الحجة قائمة على العباد إذا لم يمتثلوا ما فيه.
- وجوب البراءة من الشرك وأهله.
- استشعار محبة الله، ومواجهةُ كلِّ مَنْ يشرك به بثقة ويقين، وأنَّ الله مع عبده المتوكِّل عليه، ويلاحظ في كل ما سبق أنَّ كلمة (قل) تأتي دائماً بعد كلمة (هو)، وكأنَّ المعنى استشعار المعية مع الله.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ

ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوۡمَ
نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ
تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا
مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ المراد: أن اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل يعرفون نبوة محمد ورسالته ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾ أنهم كما يعرفون أبناءهم ويميزونهم يعرفون محمداً-ﷺ-، وهذا توكيد لمعرفتهم له؛ لأن المرء لا يماري في معرفته لأبنائه.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: مالوا عن الحق إلى الباطل، وصدَّقوا شياطينهم، وكذَّبوا رسول الله محمداً-ﷺ-﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بنبوَّة ورسالة رسول الله محمد-ﷺ-، رغم علمهم بنبوته ورسالته في كتبهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ المراد: أنه لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: كذب على الله من قال: إن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء، أو كذب أحد رسله، كحال المشركين الذين قالوا: إن محمداً -ﷺ- ليس رسولاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: كذَّب بالقرآن ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يفلح من افترى الكذب، أو كذب بالآيات.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: يوم نجمعهم يوم القيامة، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ أي: نقول للذين جعلوا مع الله إلَهاً آخر: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم ينفعونكم، هل ينفعونكم الآن في هذا اليوم الذي يحاسب فيه الناس بما عملوا؟، فيرون أنه لا ينفعهم أحد كانوا يشركونه مع الله.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: ليس لهم حجة بعدما شاهدوا الهول في ذلك اليوم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي: أنهم ينكرون أنهم كانوا يعبدون من دون الله إلَهاً آخر، ويتبرَّؤون من عبادة الأصنام والأوثان، وعندئذٍ تنطق ألسنتهم وجوارحهم، فتشهد عليهم، وشاهده: قول الله -جلَّ ذكره-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]،

وعندئذٍ يتحسرون، وقد أخبر الله عنهم بقوله-عزَّ ذكره-: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بهذا خاطب الله نبيه ورسوله محمداً-ﷺ-أي تأمل كيف كذب المشركون على أنفسهم بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون عندها القرابين، ويعتقدون أنها تنفعهم وتقربهم إلى الله، فإذا رأوا هول يوم القيامة تنصلوا منها.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: وتأمَّل يا نبينا محمدًا! كيف خابت آمالهم وظنونهم، وزعمهم في شفاعة أصنامهم لهم؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن أهل الكتاب-وهم اليهود والنصارى-يعرفون نبوة رسول الله-ﷺ-ورسالته في كتابهم كما يعرفون أبناءهم، وهذا غاية الكمال في المعرفة، ولكنهم ينكرون الحق عمداً، ولهذا خسروا أنفسهم.
- أن من أعظم الظلم وأشده افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته.
- أن الكذب والاستكبار سببُ كفر المشركين بالله-عَزَّ وَجَلَّ-، وأكَّدوا

اعترافهم بحَلْفِ اليمين ﴿لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ رغبةً منهم أن ينفعهم ذلك، ويُنَجِّيهم من عذاب الله.

- أن المشركين حينما يرون يوم القيامة أن عبادتهم للأصنام لا تنفعهم ينكرون فعلتهم، فتنطق حينئذٍ جوارحهم، فتشهد عليهم بما كانوا يعملون.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: من المشركين من يسمع ما تقول ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ أي: أنهم في سماعهم لم يقصدوا الاهتداء والاسترشاد بما تقول، فلهذا جعلنا على قلوبهم أكنة أي: حُجُباً ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ أي: يفهموا ما قلت لهم ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ

﴿وَقْرًا﴾ أي: وجعلنا في آذانهم وقراً أي: صمماً بحيث لا يسمعوا ما قلت لهم، وليس المعنى أنهم لا يفقهون أو يسمعون ما كان رسول الله-ﷺ-يقوله، بل لأن كفرهم وسوء قصدهم وعدم اقتناعهم بما كان يقوله لهم جعلهم لا يفقهون القول الذي يهتدون به.

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ المراد: أنهم مهما يروا من الآيات الدالَّة على وحدانية الله لا يؤمنوا بها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي: يحاجّونك ويناظرونك ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي يقولون: لا تصدقوا محمداً فيما يقول من أن هذا قرآن منزل من عند الله، وإنما هو قصص وحكايات نقلها لكم عن الأوَّلين.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: أن المشركين ينهون عن تصديق رسول الله-ﷺ-ومتابعته، أي: يبعدون أنفسهم عنه، فيجمعون بذلك بين كفرين، كما ثبت عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «يعني: ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ يعني: يتباعدون عنه»(١).

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن، التفسير، (٩/ ٢٠١).

﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: أنهم بفعلهم هذا ما يضرون إلا أنفسهم، أما دين الله ونبوة نبيه فلن يضرهما أحد ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون بسوء فعلهم؛ لأن الله جعل على قلوبهم أكنَّة، وجعل في آذانهم صمماً.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن المرء إذا استمرأ الكفر، وأعرض عن آيات الله لم يعد يفهم القول الذي يهديه إلى الحق، ويبعده عن الباطل.
- أن من أشقى الناس من يعرض عن اتباع الحق، وينهى غيره عن اتباعه.
- أن من يعرض عن الحق إنما يضر نفسه ويهلكها، أما دين الله ونبوة نبيه فلن يضرهما أحد.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ
مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ
إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ
عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ

ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ المراد: أن المشركين حينما يوقفون على النار، فيرون عظم هولها يصابون بالحسرة والندامة والخوف ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ أي: ليتنا نرجع إلى الدنيا، فلا نكذب بآيات ربنا ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نؤمن إيماناً صادقاً حتى ينجينا من عذاب النار.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفونه من الشرك، وشاهده قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ هذا بيان من الله الذي يعلم سرائرهم أنهم لو ردوا إلى الحياة الدنيا كما تمنوا لرجعوا إلى الشرك ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: أنَّهم في قولهم وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليكونوا مؤمنين ليسوا صادقين، فالله يعلم كذبهم.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لو ردوا إلى الحياة الدنيا

لعادوا إلى شركهم، ولقالوا كما قالوا من قبل: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: إن حياتنا واحدة هي الدنيا، وليس لنا حياة أخرى.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ توكيد لكفرهم بيوم البعث ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لما ذكر الله -عزَّ ذكره- كفرهم بالبعث قال مخاطباً نبيه ورسوله محمداً -ﷺ-: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: بين يديه قال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: خاطبهم في توبيخ وتهديد: أليس هذا هو يومَ البعث الذي كنتم تنكرونه، وتقولون: إن هي إلا حياة الدنيا وحدها؟، فيقرون بما رأوا: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: هذا هو يوم البعث الذي جمعت فيه الخلائق، فيجيبهم الله بأن هذا هو اليوم الذي تجزون فيه لقاء كفركم ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن أهل الكفر يتمنون يوم القيامة أن يردُّوا إلى الحياة الدنيا؛ لكي يؤمنوا بآيات ربهم، وذلك حين يظهر لهم ما كانوا يخفونه من الكفر.

- توكيد كفر المشركين بالبعث، واستحقاقهم العذاب جزاء كفرهم به.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: خاب الذين أنكروا البعث ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: القيامة، والبغتة: الفجأة، أي: فاجأتهم القيامة وهم على كفرهم، فيندمون ويقولون: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ المراد: أنهم يندمون، ويتحسَّرون، ويتجرَّعون الألم لقاء تفريطهم، وعدم استعدادهم لهذا اليوم، كما ورد عن أبي سعيد الخدري-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-عن النبي-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قوله: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ قال: «يرى أهل النار منازلهم من الجنة، فيقولون: يا حسرتنا»[1].

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير، (١١/٣٢٦)، رقم (١٣١٨٦)، وصححه السيوطي، الدر المنثور، (٣/٩).

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: يحملون ذنوبهم ومعاصيهم على ظهورهم، وهذا مجاز لحملهم ذنوبهم، مثلهم في ذلك مثل من يحمل أثقالاً على ظهره ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس الذي يحملونه، والمراد به: ذنوبهم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لما ذكر الله-جلَّ وعلا-قولهم بأنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا، وأن الساعة إذا جاءتهم فجأة ندموا على ما فرَّطوا، بيَّن-جلَّ وعلا-أن الحياة الدنيا مجرد لعب ولهو، أي: يلعب المرء فيها، ويلهو مدة من الوقت، ثم يفارقها إلى الدار الباقية.

﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: أنها خير للذين يتقون الشرك والكفر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام إنكاري عليهم حين يلعبون ويلهون في الدنيا، ويتركون العمل للآخرة الباقية.

أحكام وفوائد الآيتين:

- خسران من ينكر لقاء الله، ولم يعمل صالحاً لذلك اليوم الذي لا ريب فيه، كما قال-ﷻ-: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر:٥٩] ، وقوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية:٢٧].

- أن الساعة لا تأتي إلا بغتة.

- أن الحياة الدنيا مجرد لهو ولعب، وأن الآخرة خير للمتقين، وهذا يقتضي أن العقلاء يجب ألا يغتروا بالحياة الدنيا.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ﴾ ورد في سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله -ﷺ- لما مرَّ بأبي جهل وأصحابه قالوا: يا محمد! نعلم أنك ما تكذب، ولكن لا نصدق ما جئت به، وقد حزن رسول الله -ﷺ- لتكذيبهم رسالة الله، فخاطبه الله أنه يعلم حزنه، ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ينكرون الرسالة، وهي الحق

الذي جاءهم من عند الله.

وقد روي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا، فقال له: والله إن محمداً لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟[(١)].

قلت: وعداء كفار قريش لم يكن أساسه جهلهم بما جاء به رسول الله-ﷺ-، فهم يعرفون أنه أمين فيما قال، وأنه رسول من عند الله، لا يمارون فيه، ولكنهم لا يريدون أن تكون النبوة في بني عبد مناف حسداً لهم، وما كان يكنه أبو جهل ومن معه هو سلوك أهل الكتاب، فهم يعرفون أن محمداً نبيٌّ ورسولٌ من عند الله، كما يعرفون أبناءهم؛ لأن التوراة والإنجيل بَيَّنَا ذلك بياناً واضحاً، ومع ذلك استبد بهم الحسد، فأنكروا رسالته، وقد كشف نفر منهم هذه الحقيقة بعد أن أسلموا، بدءاً من عبد الله بن سلام وصحبه، ولا يزال قوم منهم في هذا العصر-وخاصة من القساوسة والرهبان-يتركون دينهم، ويدخلون في الإسلام بعد أن تبين لهم أن محمداً-ﷺ-خاتم

(١) انظر: تفسير الطبري، (٩/٢٢٢)، وأخرجه الترمذي مختصراً، وحسَّنه.

الرسل، وأن دينه آخر الأديان، وأن موسى وعيسى -عليهما السلام- أخبرا عنه، وبشرا به.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ في هذا تسلية لرسول الله -ﷺ-، والمراد: أنه كما كذَّبك المشركون فقد كذبت من قبلك أُمم رسلها، كقوم إبراهيم، ونوح، وموسى، وهود، وصالح، وغيرهم من الأنبياء ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ أي: أنهم استعانوا بالله ثم بالصبر على قومهم وما نالهم من الأذى منهم، فاصبر مثلهم، وشاهده: قوله -جلَّ ذكره-: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ﴾ أي: أنهم صبروا حتى جاءهم النصر من عندنا، وكما كان لهم النصر سيكون لك.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أن وعد الله لأنبيائه ورسله بالنصر حقيقة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، فلا يقدر أحد أن يرد ما وعد الله به ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: من تاريخهم وأخبارهم ما يسليك.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: إذا صعب عليك توليهم

وعدم تصديقهم لما جئت به ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إن قدرت أن تعمل نفقاً أي: أخدوداً تأتي منه بآية لهم، أو إن قدرت أن تأتي بسلم تصعد به إلى السماء، فتأتيهم بآية يؤمنوا بها، فافعل، والمراد: أنك لا تستطيع ذلك ولو كنت حريصاً على إيمانهم، أو يكون المعنى: إنك يا نبينا محمدًا من حرصك على إسلام قومك لو كنت تستطيع حفر نفق في الأرض، أو تستطيع أن ترقى إلى السماء؛ لتأتي بآية يؤمنون بها، لفعلت.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: لو أراد لأتاهم بآية ليؤمنوا بها، ولكن حكمته ومشيئته اقتضت عدم ذلك؛ لأنه لو جاءتهم آية، ثم كفروا بها لأهلكهم وعذبهم، كما فعل بأصحاب المائدة الذين مسخوا قردة وخنازير لما كفروا بإنزال الله لها.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا تجهل، فتحزن عليهم، معطوف على قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.

أحكام وفوائد الآيات:

- حزن رسول الله-ﷺ-على عدم تصديق المشركين لما جاءهم به من الهدى؛ ذلك أنه-عليه الصلاة والسلام-كان حريصاً على أُمته

خوفاً عليها من الهلاك، كما حدث للأُمم السابقة حين كذبت رسلها.

- تسلية الله لرسوله محمد-ﷺ-عمَّا حدث له من قومه، وحثّه على الصبر، شأنه في ذلك شأن الرسل الذين كذبهم قومهم.
- عدم الاغترار بالدنيا، فإنَّها متاع قليل، والاستفهام في: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ للتنبيه والحثِّ على التأمل.
- تسلية الرسول-ﷺ-، وحَمْلُه على الصبر، أسوةً بإخوته المرسلين، وصُدِّرت الآية: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ بالقسم لتأكيد التسلية.
- أن بشرية الرسول-ﷺ-لا تتنافى مع نبوته، فهو بشر يجري له ما يجري للبشر من حزن وفرح.
- نهي الله-عز وجل-لرسوله محمد-ﷺ-عن الحزن على عدم إيمان المشركين.

﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي

ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إن الذين يستجيبون هم الذين يسمعون منك يا نبينا محمدًا سماع قبول لما تقول.

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أما المشركون فهم بمثابة الموتى، فهم الذين لا يستجيبون لمن يناديهم، وهؤلاء يبعثهم الله ليوم الحساب ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي: يعودون إلى الله، فينبّئهم بما كانوا يعملون، ويجازيهم عليه.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ القول للمشركين، أرادوا من رسول الله -ﷺ- أن ينزل عليهم آية من ربه حتى يؤمنوا، كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠]، فأمره الله أن يردَّ عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ أي: إن الله له القدرة المطلقة أن ينزل عليهم آية كما أنزلها على من قبلهم

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يدركون أن الله إنما

ينزل ما فيه مصلحة للعباد؛ لأنه لو نزلها عليهم، ثم كفروا بها لعذبهم، كما فعل بأصحاب عيسى.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ لما ذكر الله عِظَمَ قدرته بأنه الذي خلق السماوات والأرض، وأنه الذي جعل الظلمات والنور، وأن له ما سكن في الليل والنهار، وأنه قادر على أن ينزل آيةً، بيَّنَ أن من عظيم قدرته خلق الدواب والطيور، وقد جعلها أُمماً وأجناساً كما جعل بني آدم أمماً، وقد تكفَّل بأرزاقهم كما تكفَّل بأرزاق بني آدم، كما قال-جلَّ ذكره-: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]، ثم بيَّن-عَزَّوَجَلَّ-أنه جعل كل ما في الكون من الإنس والجن والدواب والطيور في اللوح المحفوظ، فلم يترك شيئاً إلا حفظه فيه، وهو أصل قوله-جلَّ وعلا-: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ وهذا بيان وتوكيد أن كل هذه المخلوقات سوف تحشر إليه، فيجازي كلًّا بما عمل بما في ذلك الدواب؛ وشاهده: قول رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها

يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[١].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ أي: أنهم صم لا يسمعون، وبكم لا ينطقون، فمع أن الدواب والطيور تعرف مصالحها فهؤلاء لا يعرفون مصالحهم ولا يهتدون.

﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في الشرك والكفر ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي: يضله عن الطريق المستقيم، بسبب ميله إلى الضلال وبعده عن الحق ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يجعله على الطريق المستقيم، والمعنى: أن الله لم يجعل الضلال قدراً عليه كما تزعمه القدرية، بل أضلَّه لكونه لم يطلب الهداية منه باتباع دينه وهداه.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنّ الذين يستجيبون لله هم المؤمنون الذين يسمعون دعوة رسول الله ﷺ لهم قولاً وعملاً؛ أما المشركون ومن في حكمهم فهم بمثابة الموتى الذين لا يستجيبون لمن يناديهم.
- أن الله لم يستجب للمشركين، فينزل عليهم آية؛ لأنه لو نزلها لما آمنوا، وحينئذٍ يعذبهم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم، (رقم ٢٥٨٢).

- أن كل الدواب والطيور في الأرض أُمم مثل بني آدم، وأن كل ما في الكون علويه وسفليه مدوَّن في اللوح المحفوظ.
- تأخير إرسال آيات الله-تعالى-للمشركين؛ لِعِلْمِ الله أنهم لا يؤمنون بها، وهنا قال: ﴿قَادِرٌ﴾، وفي مواطن أخرى في القرآن قال: (قدير)؛ لأنَّ (قديراً) من صيغ المبالغة على وزن فعيل، يأتي بها إذا عَمَّم القدرة، ولم يقيِّدها، قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾، أو أطلقها: ﴿وهو العليم القدير﴾، و(قادر على كل شيء) ليست من صيغ المبالغة، لكن يأتي بها إذا قَيَّدها بشيءٍ، كما في هذه الآية: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] فقد قُيِّدت بإنزال آية.
- أن جميعَ الأُمم بتنوع أجناسها خاضعةٌ لله-تعالى-.
- أنه تبيَّن للباحثين أنَّ كُلَّ نوع من أنواع الأحياء بأُممه وأفراده هو كيان خاص معزول عن غيره من الأفراد والأُمم والأنواع، وأنَّ كُلَّ صلات القربى المتعلقة به محصورة في أفراده، ولا تمتد إلى غيره من الأنواع، وهي حقيقة بدأت أعداد من نتائج العلوم المتلاحقة، مثل: علوم الوراثة، وعلم الأحياء الجزيئي، وعلم الكيمياء الحيوية،

وغيرها تتحدث عنها بوضوح[١].

- أن من يكذب بآيات الله لا يسمع، ولا ينطق، ولا يعرف مصلحته، خلافاً للدواب والطيور التي تعرف مصالحها.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ
أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ
مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ
أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾
فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا
عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا
هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا لهؤلاء المشركين: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة،

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم، زغلول النجار، (ص ٥١-٥٢).

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والمراد: أنهم يعترفون بربوبية الله، ويدعونه عند الشدائد، ولكنهم يشركون معه في ألوهيته، وقد أمر الله نبيه أن يقول لهم: لو أتاكم العذاب أو الساعة هل تدعون غير الله ينجيكم أو تدعون آلهتكم؟، فبما أنكم سترجعون إلى الله يوم القيامة فلماذا تشركون معه غيره؟.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بيان من الله عنهم بأنهم لا يدعون إلا إيّاه

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ أي: يقبل دعاءكم إن شاء، فيكشف الضر الذي نزل بكم ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: تنسون عندئذٍ آلهتكم التي لا تغنيكم شيئاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: سبق أن أرسلنا رسلاً إلى أُمم قبل أُمتك ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: الشدائد من الفقر والجوع ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: الأمراض والأسقام، والمعنى: أن الله أرسل رسلاً إلى أُمم سابقة، فخالَفوهم، فعاقبهم الله في أموالهم وأبدانهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يرجعون إليه، وينيبون.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ بمعنى: هلَّا إذا جاءهم

الابتلاء تضرَّعوا وأنابوا إلينا ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: تحجَّرت وغلظت ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: أن سبب عدم تضرّعهم هو تزيين الشيطان لهم عملهم.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: لما أعرضوا عما جاءهم من الهدى تناسياً منهم

﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: أعطيناهم كل شيء من الأموال وغيرها، استدراجاً وإمهالاً لهم، وشاهده: قوله-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: فرحوا بما آتيناهم من أصناف الأموال ظنًّا منهم أن هذا من رخاء الله عليهم ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ أي: عاقبناهم فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ أي: قانطون من كل خير ورحمة ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ أي: انتهوا، وانتهى من بعدهم، فلم يبقَ لهم عقب ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: له الحمد والثناء والشكر على قضائه بعقاب الظالمين.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنّ المشركين يشركون في الرخاء، فإذا أصابتهم ضرَّاء لجؤوا إلى الله، ونسوا فعلهم، وهذا من العجب العجاب لحال الإنسان الذي لا يذكر الله إلا في الضرَّاء، وفي هذا قال-عَجَلَّ-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النحل:٥٣-٥٤].

- في الآية (٤١) إخبار عن أمرٍ مستقبليٍّ في وقوع العذاب، فيجب الالتجاء إليه بالدعاء، فيُكشف إن شاء-تعالى-.

- أن الأُمم التي قست قلوبها عن ذكر الله، وزيَّن لها الشيطان أعمالها، تعرَّضت لسخط الله وعقابه.

- أن الأُمم التي تغفل عمَّا جاءها من الحق، ثم تستمر على فسقها، فإن ما يعطيها الله من النعم إنما هو استدراجٌ لها، ثم يأخذها بغتة.

- أن الظلم في الأرض سبب في هلاك الظالمين.

- دعوة الناس إلى التوبة، ومحاسبة النفس قبل فوات الأوان، وقَدَّم الكشف مع تأخُّره عن النسيان كتأخُّره عن الدعاء؛ لإظهار كمال

العناية بشأنه، والإيذان بترتبه على الدعاء.

- أن نزول البلاء من أسباب تَضَرُّع العبد لربه، وصِدْق العودة إليه -عَزَّ وَجَلَّ-.

- أن سنة الله مضت في إهلاك الظالمين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا لهؤلاء الظالمين المكذبين لله ولرسوله: لو سلب الله منكم نعمة السمع والبصر والعقل، فأصبحتم عميًا صمًّا، ولا عقول لكم، فهل يقدر أحد غير الله أن يردَّ ذلك لكم؟.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: كيف نبين الآيات ونوضحها إعذاراً لهم؟ ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ أي: أنهم رغم هذه الآيات البينات يعرضون، ويميلون عن الحق إلى الباطل.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾ أي: إن جاءكم عذاب الله بغتة أي: فجأة، أو ظاهراً ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: هل يهلك إلا أنتم لشرككم وكفركم؟، أما المؤمنون فلا خوف عليهم من الهلاك؛ لأن إيمانهم بالله ورسوله يحميهم، وينجيهم من عذاب الله.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ أي: ما نرسل المرسلين إلا ليبشروا من آمن بالله ورسوله بأن تكون لهم العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، ومنذرين بأن من كذب الله ورسوله سيكون له سوء العاقبة في الدارين ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: من آمن من الناس بالله ورسوله، وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم من يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا؛ وشاهده: قول الله-عزَّ ذكره-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ لما ذكر الله-جلَّ ذكره-أن المؤمنين لن يخافوا ولن يحزنوا، بيَّن أن الذين كذبوا بآيات الله سوف ينالهم العذاب جزاء تكذيبهم وفسوقهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير نعمة الله على العبد بالسمع والبصر والقلب وسائر أعضاء الجسم، وهذا يوجب عليه شكر الله على نعمه عليه.
- أن الله لا يهلك إلا الذين ظلموا أنفسهم بارتكابهم ما حرَّم عليهم.
- أن من سنن الله هلاك الظالم عاجلاً أو آجلاً.
- افتقار رسول الله محمد-ﷺ-إلى ربه، فهو بشر لا حول ولا قوة له إلَّا بالله العلي العظيم.
- أن مهمة الرسل البشارة للمؤمنين بما لهم عند ربهم من الثواب، والنذارة للمكذبين بأن لهم العذاب، فالمؤمنون لا يخافون، ولا يحزنون من هول يوم القيامة، خلافاً للمكذبين الذين يلاقون العذاب والمهانة في ذلك اليوم العظيم.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ

وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ هذا توجيه من الله لنبيه أن يقول لهؤلاء المكذبين: ليس عندي خزائن الله، فهذه الخزائن لا يملكها إلا هو ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: لا أعلم من الغيب شيئاً، فلا يعلم الغيب إلا الله ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: لست مَلَكاً كحال الملائكة، وإنما أنا بشر يوحى إليَّ من عند الله.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ﴾ أي: أتقيد بما يأتيني من الوحي من عند الله، فلا أخرج عنه أبداً.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ﴾ استفهام تقريري، معناه: أنه لا يستوي من اتبع الحق مع من اتبع الباطل، كما أن الأعمى لا يستوي مع المبصر ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتفكرون في مخلوقات الله وآياته؛ لكي تهتدوا وترجعوا عن ضلالكم.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أنذر بالقرآن الذين يخافون من عذاب الله يوم الحشر.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: أنذر بالقرآن الذين يخافون من عذاب الله يوم الحشر، ويعرفون أنه ليس لهم من دونه ولي، أي: قريب لهم ولا شفيع يشفع لهم.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لعلَّهم بهذا الإنذار يؤمنون إيماناً ينفعهم في الدنيا، وينجيهم من عذاب الله في الآخرة.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن رسول الله -ﷺ- بشر مثل سائر البشر، غير أنه يوحى إليه، كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت:٦].
- أن بشرية الرسول -ﷺ- تقتضي عدم علمه بالغيب، وعدم معرفته بأسرار الكون وتصريفه، فكل ذلك مرده إلى الله، لا يعلمه إلا هو.
- أن علم الغيب مَرَده إلى الله -تعالى-، والاستفهام في ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ للإنكار، والمراد: إنكار استواء مَنْ لا يعلم ما ذُكِرَ من الحقائق، ومَنْ يعلمها.
- وجوب الإنذار بالقرآن للذين يخافون من عذاب الله.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ لما قال المشركون في مكة لرسول الله -ﷺ- بأنهم لا يرضون أن يجالسوا أو يخالطوا المؤمنين من أصحابه كصهيب وخباب وبلال وعمار، وغيرهم -رضي الله عنهم-، أنزل الله هذه الآية، كما ثبت عن ابن مسعود -رضي الله عنه-[(١)].

ويؤكد ذلك ما رواه سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: «كنا مع رسول الله -ﷺ- ستة نفر، فقال المشركون لرسول الله -ﷺ-: اطرد هؤلاء عنك، لا يجترئون علينا. قال: كنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله -ﷺ- ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله -عز وجل- هذه الآية»[(٢)].

وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال:

---

(١) أخرجه الطبري بسند جيد.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص، (رقم ٢٤١٣).

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ يعني: يعبدون ربهم ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ يعني: الصلاة المكتوبة(١) ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: توحيده وطاعته.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم في جزائهم ومعاشهم ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: وليسوا مسؤولين عنك ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن طردتهم كنت من الظالمين، وفي هذا تنبيه لرسول الله -ﷺ- بأن عليه أن يعصي المشركين الذين أرادوا طرد المؤمنين الذين كانوا معه يناصرونه في دعوته، ويتحملون الأذى في سبيل إيمانهم به، في نفس الوقت الذي كان فيه المشركون يكذبونه ويعاندونه، ويحادون الله أشد المحادة، ولأن الله يعلم حال هؤلاء المؤمنين وحال أولئك المشركين حذر رسوله من طاعتهم.

قلت: كان رسول الله -ﷺ- حريصاً على إسلام كبار قريش؛ لما في ذلك من كف لأذاهم؛ ولما فيه من قوة للإسلام بسبب كثرة أتباعهم الذين سوف يتبعونهم، فيدخلون في دين الله، ولكن الله يعلم أحوال هؤلاء وسرائرهم، سواء كان الذين قالوا هذا من المشركين أم أجلاف

(١) التفسير، (٢٦٣/٩).

العرب الذين كانوا يحتقرون الضعفاء من المؤمنين، ويعتقدون أن عزتهم في قومهم أو أموالهم تقربهم إلى الله، وما علموا أن المقرب عند الله هو من آمن به وبرسوله، وأن سلمان الفارسي وخباباً وصهيباً أكرم عند الله من هؤلاء المشركين، وهؤلاء المستكبرين لا عبرة بنسبهم، ولو أنهم أعلى في نسبهم وحسبهم لو كان النسب هو المعيار.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم﴾ من عادة الطغاة والمستكبرين أنهم يحتقرون من عداهم من الضعفاء والفقراء، ويعتقدون أنهم أحقّ بالرئاسة وبالشرف وبالمثوبة على عملهم، ولو كان هذا العمل كله ظلماً وطغياناً، ومن حكمة الله وإرادته في خلقه أن الضعفاء والمساكين ينتصرون في نهاية الصراع؛ لهذا كان المشركون في مكة- وحتى أجلاف العرب-يحتقرون ضعفة المسلمين من الفقراء ومن يوصفون بالعبودية، كبلال، وسلمان، وصهيب، وغيرهم، وفي هذا يقول الله-جلَّ ذكره-: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ أي: كيف أنعم على هؤلاء، وهم الأرقّاء والفقراء، ونحن السادة والأغنياء؟، ونظيره قول قوم صالح: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر:٢٥].

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ والمراد: أن الله أعلم بمن

يطيعه ويشكره، فيهديه إلى الحق، وهو أعلم بمن يعصيه، فيذله ويهينه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تحريم إبعاد المؤمنين، وتقريب الكافرين.
- بيان أنّ أتباع الرسل هم من الفقراء والمستضعفين.
- فضل التلطُّف والرفق بالمستفتين عن أمور الدين.
- ابتلاء بعض الناس ببعضهم، فيكون فيهم الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء؛ ليعلم الله-وهو العليم-من الذي يكفر؟، ومن الذي يشكر منهم؟.
- إكرام الله للمستضعفين الذين نهى الله نبيَّه-ﷺ-عن طَرْدِهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسَّلام.
- فضل الصبر على أهل الفسق والضلال من أسئلتهم المضلِّلة.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ

ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا
وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا
عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ
خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ
ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لعلَّ المراد بهم: الذين نهى الله عن طردهم.

﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ قد يكون المراد: توجيه الله لنبيه أن يبلغهم سلامه، أو يكون أمر الله أن يبدأهم بالسلام، فكان رسول الله -عليه الصلاة والسلام- إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال: «الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»[1]، وقد روى عائذ بن عمرو: «أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها؟، فأتى النبي-

(١) أسباب النزول للواحدي، (ص ٢١٩).

ﷺ-، فأخبره، فقال: «يا أبا بكر! لعلَّك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟، قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي»[(١)].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: أنه-جلَّ وعلا-فرض على نفسه أن يرحم خلقه إحساناً لهم وتفضلاً عليهم.

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: من عمل ذنوباً غير قاصد ولا مبتغ لها ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ أي: تاب من هذه الذنوب، وأصلح توبته ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر له ذنوبه، ويرحمه برحمته ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نبيّنها واضحة ظاهرة للعيان، تبين لعباد الله أمور دينهم ودنياهم ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ليتبيَّن ما عليه المجرمون من الضلال عن طريق الحق.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ هذا أمر من الله لنبيه محمد-ﷺ-أن يقول للمشركين: لقد نهاني ربي أن أعبد الأصنام التي تدعونها من دون الله، كما نهاني ربي أن أطرد

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب: من فضائل سلمان وصهيب وبلال-رضي الله عنهم-، (رقم ٢٥٠٤).

المؤمنين الذين اتَّبعوني.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ وهذا أمر آخر، أي: قل لهم: ولن أتبع أهواءكم؛ لأنها ضلال وغواية ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي: لو اتبعت أهواءكم لضللت، ولن أكون إذاً من المهتدين.

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ أي قل للمشركين: إني على هدى وبصيرة من ربي فيما يوحيه إليّ من الحق، وكذَّبتم به طغياناً وكفراً.

﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ أي: من العذاب الذي تستهزئون به، وشاهده: ما ذكره الله من قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال:٣٢].

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي: إنَّ الحكم لله وحده، فهو الذي يملك إنزال العذاب بكم أو تعجيله أو تأجيله ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي: يحكم بالحق ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ أي: الحاكمين.

﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ أي: قل يا رسولنا

محمدًا للمشركين: ليس لدي العذاب الذي تستعجلون به، ولو كان الأمر بيدي لجزيتكم بما تستحقونه، ولكن الأمر بيد الله.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هو العليم بكل ظالم، وسوف يجازيه على ظلمه.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنه يجب على الحاكم أو ولي الأمر الاهتمام بالمؤمنين، والرفق بهم، وهذا يقتضي أن من جاء مؤمناً بالله يجب تقريبه، وترغيبه، وإشاعة البشرى في نفسه، فإن كان قد عمل سوءاً نتيجة جهل فيجب إبلاغه بأن الله سيرحمه إذا تاب منه، وأصلح، وأخلص التوبة لله.
- تحريم عبادة غير الله، وتحريم اتباع أهل الضلال والأهواء.
- أن الرسول-ﷺ-مبلِّغ عن ربه، لا يملك شيئاً من أمور الكون.
- أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون على بينة، وهذا يقتضي أن يكون الدعاة على علم فيما يدعون إليه.

﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ

ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ
لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ
إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ المراد: أن المغيبات هي من علم الله وحده، ومن قال من الجن أو الإنس: إنه يعلم الغيب، فهو كاذب، وفي حديث ابن عمر أن رسول الله -ﷺ- قال: «مفاتح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر؟ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت؟، ولا يعلم متى تقوم الساعة؟ إلا الله»[1].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يعلم علم يقين وإحاطة بجميع الموجودات في البر والبحر ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي:

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾، (رقم ٤٦٩٧).

يعلم ما تسقطه الأشجار والنباتات من الأوراق، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ويعلم بعلمه المحيط سائر الحبات التي تنبت في الأرض مهما بلغت من الاختفاء في أعماقها ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أن كل الأشياء التي في البر والبحر، وما يسقط من أوراق الشجر أو النبات، أو ما في بطون الأرض مدون في اللوح المحفوظ.

ما زال السياق في أحوال المشركين والكفار، والخطاب لهم، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ يراد به النوم، والوفاة نوعان:

النوع الأول: وفاة كبرى، وهي التي ينتهي فيها أجل الإنسان، ويبقى ميتاً إلى أن يبعثه الله يوم يبعث الخلائق.

النوع الثاني: وفاة صغرى، وهي المرادة في هذه الآية، وفي الآية الأخرى قوله-جلَّ ذكره-: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يقبض أرواحكم عن القيام بالأفعال والتصرفات ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: يعلم ما تفعلون في النهار من الخطايا.

﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ أي: يبعثكم في النهار من نومكم ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ أي: إلى أن تستكملوا أجلكم ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يظهر لكم أعمالكم في الدنيا؛ ليجازيكم عليها.

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ﴾ القاهر اسم من أسماء الله الحسنى ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ﴾ المراد فوقيته العالية، وتصرفه في خلقه بإرادته وحكمته ورحمته ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ أي: يرسل عليكم ملائكة يحفظون الأعمال، ويكتبونها؛ لتعرض يوم القيامة، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]، وقوله-جلَّ ذكره-: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: إذا انتهى أجله ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ المراد به ملك الموت وأعوانه الذين يخرجون الروح؛ فيقبضها ملك الموت، وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: «تَلِي قَبْضَتَهَا الرُّسُلُ، ثُمَّ تَرْفَعُهَا إِلَيْهِ، يَقُولُ: إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ»[1].

﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-

---

(١) التفسير، (٢/٥٠).

رضي الله عنهما-قال: «لا يضيعون»[١] أي: فيما وكلوا به من قبض الروح، وحفظها حيث أراد الله لها.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عرضوا يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: ردُّوا إلى الله خالقهم؛ لأنه ربهم وإلَهُهم الحق ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي: أنه المتفرّد بالحكم في حسابهم وجزائهم ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ أي: سوف يسرع في حسابهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وأن كل ما في الكون علويه وسفليه وما بينه مدوَّن في اللوح المحفوظ.
- أن الله يتوفى الإنسان، سواء كانت الوفاة وفاة أبدية إلى يوم القيامة، أم كانت وفاة مؤقتة وهي النوم.
- سَعَةُ عِلْمِ الله-ﷻ-في كونه الكبير، وقدَّم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ وذلك لاختصاصه-سبحانه-بعلم الغيب، وأكَّد ذلك الاختصاصَ بأسلوب القصر، فقال: ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، واكتفى بحال السقوط في ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ دون الاكتفاء بغيرها من الأحوال لشدَّة ملاءمتها، ولأن التغيير فيها أظهر،

---

(١) التفسير، (٢٩٣/٩).

فهو أوفق لما سِيقت له الآية.

- أن الله أعلم باستحقاق الظالمين الإمهال، أو بتعجيل العذاب.
- أنه في ظلام التربة وتحت الثرى توجد الحبوب والبذور والثمار المزروعة والبرية الكامنة لعشرات السنين، والتي لا تنبت إلا عندما يحين موعد إنباتها، وتتهيأ لها العوامل الداخلية والخارجية (البيئية) المساعدة على الإنبات، وتوجد في ظلمات الأرض كورمات القلقاس الرطبة أو الطرية، ودرنات البطاطس، وجذور البطاطا، وريزومات الموز والغاب، وجذور النباتات العادية الوتدية والليفية، والجذور المتدرنة كاللفت والبنجر والجزر، وتوجد ثمار نبات الفول السوداني في التربة[١].
- تقرير واقعة البعث للحساب والجزاء.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ

(١) (http://www.nazme.net/ar/index.php?p=show_articles&id=773).

أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل
لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

بيان الآيات:

ما زال السياق -أيضاً- في أحوال المشركين، فقول الله -عزَّ ذكره-: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ استفهام تقريري، والمعنى: أنه لا أحد ينجيكم من أهوال البر والبحر إلا الله ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ أي: في حال الشدائد والمصاعب تدعون الله، وتتضرَّعون إليه جهاراً وخفية أن ينقذكم مما حلَّ بكم من الأهوال، وتقولون إذا الله أنجانا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: من الشاكرين له على ما أنعم به علينا من النجاة.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي: أنه القادر على أن ينجيكم مما يصيبكم من الأهوال والشدائد ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي: إنه إذا نجَّاكم أشركتم معه غيره، فأنتم في حال الشدائد تتوسَّلون وتتضرَّعون إليه، وتدعونه أن ينجيكم حتى تطيعوه وتوحدوه، وإذا أنجاكم جحدتم نعمته، وأشركتم معه غيره، وفي هذا توبيخ لهم، وإنكار لفعلهم وجحودهم وكفرهم.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ لما ذكر-جلَّ وعلا-حال المشركين، وأنهم يدعونه في حال الشدة، ويشركون به في حال الرخاء، ذكَّرهم أنه هو القادر على أن يبعث عليهم عذاباً من فوقهم كالريح العاتية، والمطر المدمر، والصواعق القاتلة، كما فعل بالأُمم السابقة كقوم نوح، وعاد، وثمود، أو يبعث عليهم عذاباً من تحت أرجلهم، كالخسف والزلازل وانهيار الأرض، وشاهده: قوله-جلَّ ذكره-: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٨].

﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ أي: يجعلكم متفرقين في أفكاركم وأهوائكم، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «يعني بالشيع الأهواء المختلفة»(١).

﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ أي: تفتنون بالتقاتل بينكم، وهذه الآية عامة في الكفار وفي المسلمين.

قال الإمام القرطبي: «قلت: وهو الصحيح، فإنه المشاهد في الوجود، فقد لبسنا العدو في ديارنا، واستولى على أنفسنا وأموالنا مع

(١) التفسير، (٩/ ٣٠٠).

الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضاً، واستباحة بعضنا أموال بعض، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن[(١)]».

وقد نقل ما رواه مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أُمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأُمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأُمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»[(٢)].

وقد ثبت عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ..الآية﴾ **قال رسول الله -ﷺ-: «أعوذ بوجهك»، قال:** ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿أَوْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٧/ ٩ - ١٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب: هلاك هذه الأُمة بعضهم ببعض، (رقم ٢٨٨٩).

يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾ قال: «هذا أهون»، أو «هذا أيسر»[(١)].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: انظر يا نبينا محمدًا!: كيف نبين للمشركين الدلائل والبينات؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يوحدون الله، ويتبرَّؤون من الشرك به.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ المراد بهم كفار قريش، والمراد: تكذيبهم بالعذاب ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّۚ﴾ أي: الذي لا شكَّ فيه.

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: قل لهم لست عليكم بحفيظ، وإنما أنا منذر لكم، ومبلغكم ما جاء من عند الله.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ﴾ أي: لكل شيء وقت، كما قال-ﷻ-: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وأخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن مجاهد قال: «ما كان في الدنيا فسوف ترونه، وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم»[(٢)] ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد من الله بأنهم سوف يعلمون جزاءهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، (رقم ٤٦٢٨).

(٢) التفسير، (٤/١٣١٤).

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير سلوك المشركين بأنهم يدعون الله في الضرَّاء، وينسون دعاءه في السرَّاء، وذلك بعبادتهم لأصنامهم وأهوائهم.
- أن وفاة الإنسان شبيهة بالنوم؛ ولذلك أُطلق على النوم وفاة، وهذا من الإعجاز العلمي الذي أثبته العلم الحديث، فإنَّ النوم والموت عملية متشابهة، تخرج فيها النَّفْسُ، وتعود في حالة النوم، ولا تعود في حالة الموت.
- التحذير من الاختلاف المؤدي إلى الانقسام والاقتتال.
- في الآية (٦٥) دليل صحيح على الوقوف النبوية، فصحَّ عن جابر-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله-ﷺ-: «أعوذ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله-ﷺ-: «هذا أهون» أو «هذا أيسر»»[(١)]، ويستنبط من هذه الآية والرواية ثلاثة وقوف نبوية.

---

(١) صحيح البخاري، (٨/١٤١)، (رقم ٤٦٢٨)، كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾.

- يستنبط -أيضاً- الفترة الزمنية للوقف وذلك من خلال الفترة التي يستغرقها الدعاء، وهو مقدار بضع ثوانٍ.
- أنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، ولا منقذ إلا هو، وأن من استعان أو استعاذ أو لجأ إلى غيره يطلب نفعه فقد ضلَّ ضلالاً يستوجب عدم المغفرة له مع خلوده في العذاب.
- أن اختلاف الأُمة وانقسامها سبب في تقاتلها وظهور الفتن فيها.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ
يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ
ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم
مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ
بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ
عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ
مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الخطاب لرسول الله-

ﷺ-ولأمته، والمراد بهم: الذين يستهزئون بآيات الله، كما كان المشركون والمنافقون يفعلون.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لا تخالطهم ولا تجالسهم.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ أي: حتى يكون حديثهم غير الاستهزاء بآيات الله ورسوله ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: إن وسوس لك الشيطان، فنسيت نهينا لك عن مجالستهم، ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أي: بعدما تذكر النهي ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد بهم: المشركون.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي: ليس على المتقين من إثم إذا اجتنبوهم، فلم يجالسوهم، أو يخوضوا معهم، والمراد بالمتقين محمد-ﷺ-وأصحابه، وكل من كان على طريقهم.

﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ﴾ المراد: إذا صاروا يستهزئون وأنتم بينهم فاتركوهم؛ ليكون في ذلك ذكرى لهم؛ ليتركوا الخوض.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾ الخطاب لرسول الله-ﷺ-بالأمر له أن يتجنَّب مجالسة الذين يستهزئون بدين الله

﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ أي: اغتروا بوجودهم في الحياة الدنيا،

وما لديهم من الأموال والأولاد.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ المراد: ذَكِّره بالقرآن حتى لا تهلك النفس بما كسبت من الآثام، وشاهده-أيضاً-: قول الله-جلَّ ذكره-: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لن يكون لها حينذاك ناصر ينفعها، ولا شفيع يشفع لها.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: لو بذلت كل فداء لم ينفعها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: الذين هلكوا بسبب ذنوبهم ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الماء الشديد الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أنهم سيجزون بهذا الشراب وبالعذاب بسبب كفرهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم مجالسة من يستهزئ بالله، أو بأحكامه، أو نبيه، أو بأحد من رسله، أو بأي حكم من أحكام الإسلام؛ وشاهده: قول الله في حق المنافقين لما استهزؤوا برسول الله-ﷺ-وصحبه: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم

﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ٦٦﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، والنهي عام في مجالسة الكافر، والفاسق، وصاحب البدعة، وصاحب المنكر، ومن كان في حكم هؤلاء في كل زمان ومكان، وشاهده: هذه الآية، وقول الله-تعالى-: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ [النساء: ١٤٠].

- وجوب التذكر بالقرآن حتى لا تهلك النفوس بسبب ارتكابها للخطايا والآثام.
- أن الذين يهلكون بسبب ذنوبهم وآثامهم لهم عذاب أليم يوم القيامة.

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ

يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ ما زال السياق في الرد على المشركين بقولهم للمؤمنين: اتبعونا واتركوا دين محمد.

فأمر الله رسوله أن يقول لهم: نحن لا ندعو ما لا ينفعنا ولا يضرنا، فالذين تعبدونهم أوثان وأصنام صماء، لا تنفع، ولا تضر، وما يعبدها إلا جاهل أو عديم العقل.

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: هل نرجع إلى الشرك والكفر بعد إذ هدانا الله للإسلام؟، وهذا استفهام إنكاري.

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ أي: إذا تبعنا ما قلتم سنكون مثل الذي غلبته الشياطين، واستبدَّت به الغيلان، يدعونه باسمه واسم أبيه، فيتبعها، ثم يرى أنها ألقته في المهلكة؛ ليموت منها جوعاً وعطشاً، بعد أن أصبح حيرانَ لا يدري ما يفعل.

﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ أي: له رفقة مؤمنون يدعونه إلى اتباع الطريق القويم، فيأبى عليهم.

﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ أي: لا هدى إلا هداه، فمن ابتغى غير ذلك فقد ضلَّ سواء السبيل ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: إننا مأمورون بأن نسلم قلوبنا ووجوهنا لله رب العالمين، الذي لا رب لنا غيره، ولا معبود لنا سواه.

﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ﴾ أي: وكما أُمِرْنَا أن نسلم لله رب العالمين أُمِرْنَا أن نقيم الصلاة التي فرضها الله علينا، وأن نتقيه في أعمالنا وأقوالنا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: هو الخالق الذي تحشرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: خلقهما وكونهما بالعدل، فهو المستحق للعبودية وحده.

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ أي: حين يقول للشيء: كن يكون، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ أي: إن ما قاله ويقوله هو الحق الذي لا مراء فيه

﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي: أنه مالك كل شيء في الوجود.

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ أي: نفخة البعث؛ ليقوم الناس من

قبورهم؛ ليشهدوا الحساب والجزاء، والصور: قرن يُنفخ فيه، كما ثبت عن النبي -ﷺ- من حديث عبد الله بن عمرو[(١)].

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: هو العالم وحده بالغيب، فلا يعلمه إلا هو ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ أي: يعلم الشهادة، ويعلم كل ما في الوجود، لا يعزب عنه شيء في السماوات والأرض، مهما كان صغيراً أو كبيراً ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تصرفه ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ بأحوال خلقه، وما ينفعهم وما يضرهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن العاقل لا يدعو من لا يملك ضراً ولا نفعاً.
- تحريم الردة عن دين الإسلام، ومن يفعل ذلك فله جزاءان في الدنيا والآخرة، فجزاء الدنيا: تطبيق حكم الردة عليه، أما جزاؤه في الآخرة فالعذاب المهين.
- أنه لا هدى إلا هدى الله، فمن يهده الله يشرح صدره للإسلام.
- أن كافة العباد مكلفون بالدخول في الإسلام، ومن لم يفعل فلا دين

(١) أخرجه أبو داود في السنن، (٤/٢٣٦)، كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور، (رقم ٤٧٤٢)، والترمذي في كتاب صفة القيامة، باب: ما جاء في شأن الصور، (رقم ٢٤٣١)، وحسَّنه، وأخرجه ابن حبان في الإحسان، (١٦/٣٠٣)، وأخرجه الحاكم، ووافقه الذهبي، المستدرك، (٢/٤٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (رقم ٣٧٥٧).

له.

- أن الردَّة من نزغات الشيطان.

- المداومة على إقام الصلاة، وتقوى الله، فهي زاد المتقين، وخُصَّ من المأمورات الصلاةُ في: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى.

- وجوب إقامة الصلاة بأركانها وشروطها، ووجوب تقوى الله في السر والعلن، وذلك بالائتمار بأمره، والانتهاء عما نهى عنه.

- تقرير واقعة الحساب والجزاء.

- أن يوم القيامة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله -تعالى-.

﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ
وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ
قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ
أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ

وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

﴿٧٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ خاطب إبراهيم-عليه السلام-أباه منكراً عليه شركه بقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي: هل تعبد الأصنام من دون الله؟.

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ أي: أجد أنك ومن معك ممن يعبدون الأصنام ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قد حدتم، وضللتم الطريق المستقيم، الذي هو إفراد الله وحده بالعبادة، وقد ذكر الله ما دار من المحاورة بين نبيه إبراهيم-عليه السلام-وبين أبيه العابد للأصنام، وقوله-جلَّ ذكره-مثنياً عليه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ

عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

وكان هم إبراهيم -عليه السلام- أن ينقذ أباه مما هو فيه من الضلال، مدفوعاً في ذلك بعاطفة الابن تجاه أبيه، إلا أن أباه قد استحوذ عليه الضلال، فأبى دعوة ابنه له، بل كان يتوعَّده برجمه وطرده فيما حكاه الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]، فلما يئس إبراهيم من أبيه وقومه قال: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: خلق السماوات والأرض، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس- رضي الله عنهما-(١)، والمعنى: أن الله عرَّف نبيه إبراهيم ربوبية ربه وألوهيته، وهداه لهذه المعرفة، فصار حنيفاً مسلماً، يدعو أباه وقومه إلى وحدانية الله، ونبذ الشرك وعبادة الأصنام ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ أي: ليوقن بما أراه الله من ملكوت السماوات والأرض.

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ أي: لما أظلم عليه ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أي:

---

(١) التفسير، (٩/٣٤٨).

نجماً .

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ والمعنى: أن قومه كانوا يعبدون النجوم والأجرام، ويعظّمونها، فأراد-عليه السلام-إبطال اعتقادهم بالنظر المحسوس، والاستدلال بالمعقول، فبدأ بالنجم، وهو كوكب الزهرة، وقال: هذا ربي، أي: على اعتقادهم، فلما غاب النجم قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أي: لا أعبد هذا؛ لأن من كان هذا شأنه لا يمكن أن يكون ربًّا.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ أي: طالعًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أي: حسب زعمهم واعتقادهم ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: سأكون من غير المهتدين، إشارة إلى أن من يعبد هذا القمر سيكون ضالًّا؛ لأنه لا يستحق أن يكون ربًّا.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ﴾ أي: طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ أي قال لهم: هذا ربي، فهي أكبر مما قبلها ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ قال لهم: إني بريء مما تشركون، والمراد: أن هذه الكواكب التي رأيتموها تغيب لا يمكن أن تكون ربًّا، فأنا بريء ممن يعبدها،

فهو بهذا قرَّب الحجة على قومه بعد أن أثبت أن من يغيب لا يمكن أن يكون ربًّا، وأن الذي يُسيِّر هذه الكواكب حين تطلع وحين تغيب هو المستحق فعلاً للعبادة، ثم قال لهم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: إني أعبد الرب الذي دلَّ العقل والنظر على أنه الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهما، وأنه الذي أبدعهما وصنعهما، فهو المستحق للعبادة ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الضلال الذي أنتم عليه وهو الشرك ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لست من الذين يشركون مع الله غيره كما تفعلون.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب محاربة الشرك، وعدم محبة أهله، ولو كانوا من الأقربين، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].
- أهمية الاستدلال بالمحسوسات في حال الدعوة إلى الله؛ لما في ذلك من تقريبها لعقول المدعوين.
- جواز جدال المشركين وإقامة الحجة عليهم؛ لعلهم يهتدون. وعندما فرغت القلوب بما أُلقي من حجج إبراهيم، وأدلة بطلان آلهة

الكواكب، وتهيَّأت قلوبهم لقبول الحق، ختمت الآية بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ إذ لم يبق في العالم العُلْوِيِّ كوكب أكبر من الشمس، فقال مستنتجاً ممَّا دَلَّ عليه الدليل العقلي: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

- وجوب الجهر بالبراءة من الشرك وأهله.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ﴾ أي: أنهم جادلوه في توحيده لله ومحاربته للمشركين ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ أي: كيف تجادلونني هذه المجادلة الباطلة؟؛ لأن الإقرار بألوهية الله وتوحيده ليست محلًّا

للجدال.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ أي: دلَّني ربي على الحق، وبصَّرني به، فأنا مؤمن بالله غير مشرك به ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: لا أخاف من أصنامكم التي تعبدونها من دون الله.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۚ﴾ أي: لا أخاف أن ينالني سوء أو مكروه من آلهتكم أو من غيرها، إلا إذا شاء ربي أن يصيبني.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ أي: له القدرة المطلقة على ذلك، والمعنى: أنهم خوَّفوه إذا أصرَّ على محاربة آلهتهم أن تصيبه بسوء، فردَّ عليهم أنه لا يخاف إلا من الله، ولا يخشى إلا إيّاه؛ لأنه ربه وإلَهه.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تعقلون، فتميّزوا بين الحق والباطل، فتعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، وتنتهوا عن عبادة الأصنام التي لا تنفعكم؟.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ استفهام إنكاري عليهم، أي: لا أخاف من أصنامكم التي أعرف أنها حطام ميت لا معنى ولا قيمة لها.

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: كيف أخاف من

الأصنام، وأنتم لا تخافون من الله الذي يملك نفعكم وضرَّكم؟.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ أي: لم يقم لكم حجة على إشراك أحد معه، وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «كل سلطان في القرآن حجة»(١).

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هل الموحّد لله المخلص له العبادة أو الذي يشرك مع الله غيره كما تفعلون؟، وقد صدَّقه الله، وقضى بصدق حجته عليهم وصوابها، فقال-عزَّ ذكره-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: أن الذين آمنوا بالله وحده، ولم يلبسوا إيمانهم بشرك

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أي: هم الذين سيكونون آمنين في الآخرة من العذاب ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدنيا بتوحيدهم لله وطاعته، ونفي الشرك عنه، وصحَّ عن ابن مسعود-رضي الله عنه-قال: «لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قال أصحابه: وأيُّنا لم يَظْلِمْ؟، فنزلت: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»(٢).

---

(١) التفسير، (٤/ ١٠٩٧).

(٢) صحيح البخاري، (٨/ ١٤٤)، كتاب التفسير، سورة الأنعام، (رقم ٤٦٢٩).

أحكام وفوائد الآيات:

- الندب إلى مجادلة أهل الضلال، إما لتحقيق هدايتهم، أو إقامة الحجة عليهم، وكان من سنة الأنبياء والمرسلين جدال المنكرين والمكذبين لهم؛ وذلك لإقناعهم برسالة الله لهم؛ لإنقاذهم من الهلاك.

- أن الجدال يجب أن يكون بالحسنى، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ- لنبيه ورسوله محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله -عزَّ ذكره-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

- الدعوة إلى الله بالرِّفْقِ واللِّين والحجة والبرهان، وبان ذلك بقوله: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ﴾، ولم يقل: (فأينا) تعميماً للمعنى.

- فِقْهُ أدب الحوار مع المخالفين، ولو كانوا مشركين.

- أن أصحاب الذنوب والخطايا هم الذين يخافون من أفعالهم، أما

المؤمنون فلا يخافون؛ لأنهم يؤمنون أن الله معهم بعلمه وقدرته.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾ آتيناها إبراهيم، أي: ألهمناه إيَّاها، وهي قوله: وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله؟.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ أي: بما نعطيه من نشاء من عبادنا من الفهم وقوة الحجة على من يجادله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فيما يقدره بحكمته وإرادته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ هذا بيان لما مَنَّ الله به على

إبراهيم جزاء عبادته له وحده، ودعوته إلى التوحيد، ومحاربة الشرك وأهله، فوهب له إسحاق وهو في حال الكبر هو وزوجته، ووهب لإسحاق يعقوب، فتناسلت منهما الذرية.

﴿كُلًّا هَدَيْنَاۚ﴾ أي: كل واحد منهم مَنَّ الله عليه بالهداية.

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ﴾ هذا بيان من الله-ﷻ-بأنه هدى من قبلهم نوحاً ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: ممن هدى من ذريته: ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه بيان أنهم محسنون، وذلك بطاعتهم لله، وتوحيدهم له، فجعلهم مهتدين.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيان-أيضاً-من الله-ﷻ-أنه هدى هؤلاء الأنبياء، وجعلهم من الصالحين؛ وذلك لصلاحهم في أنفسهم، وقيامهم بدعوة قومهم إلى الله، وإخلاص العبودية له وحده، وتحذيرهم من عقابه إذا لم يستجيبوا له، وأخرج الطبري بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-قال: «إدريس هو إلياس، وإسرائيل هو يعقوب»[١].

---

(١) التفسير، (٩/ ٣٨٣).

وكما هدى أولئك الأنبياء هدى آخرين منهم ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ﴾ ثم قال -عزَّ ذكره-: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: فضَّلناهم على أهل زمانهم بما تميَّزوا به من التقوى والصلاح والزهد في الدنيا، والتجرد لدعوة الناس إلى دين الله.

﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ﴾ المعنى: هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: اخترناهم للنبوة ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو الدين الخالص لله وحده، لا شريك له.

أحكام وفوائد الآيات:

- في الآية (٨٣) إخبار مستقبلي في رَفْعِ درجات عباده في الدارين -إن شاء تعالى-.
- أن الله يلهم عباده المتقين قوة الحجة والبرهان في دعوتهم إلى الله.
- أن الله يمتن على أهل التوحيد والإحسان بمنن كثيرة كالرزق، والولد، والهداية إلى الصراط المستقيم، كما قال -عَجَّلَ-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].
- جزاء مَنْ صبر ودعا إلى الله -عَجَّلَ- أن يكلأه بالحفظ والرعاية.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ

لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟
بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ أي: ذلك الهدى الذي وهبه الله لهؤلاء الرسل هو هدى منه لهم.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أنهم لو عبدوا غير الله لخسرت أعمالهم، والمراد: أن من أشرك مع الله غيره أيًّا كانت صفته سيحبط عمله، ويكون من الخاسرين، وشاهده: قول الله-عَزَّوَجَلَّ-لنبيه ورسوله محمد-ﷺ-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ﴾ المراد بهم الأنبياء الذين ذكرهم في الآيات السابقة، وما أوتوا من الكتاب، كصحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل.

﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: إن يكفر بهذه الآيات وبالقرآن المشركون في مكة ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا﴾ أي: عهدنا بالإيمان بها ﴿قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ والمراد بهم: المهاجرون الذين هجروا مكة من أجل دينهم، والأنصار الذين ناصروا وآمنوا بهذا الدين، وقد ثبت نحوه عن ابن عباس كما في تفسير الطبري.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ المراد بهم: الأنبياء الذين ذكرهم الله في الآيات السابقة ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ أي: اتَّبعْ طريقتهم في توحيد الله والإيمان به، وفي أصول الدين كالإيمان بالكتب المنزلة، وبالرسل، وبالبعث، وغير ذلك من أصول الإيمان التي تتفق فيها الديانات السماوية.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ أي: لا أطلب منكم مالاً على القرآن حين أبلغكم به ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: بشرى للمتقين منهم بالثواب، ونذارة للعاصين بالعقاب.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الشرك يحبط العمل لا محالة.
- وجوب الإيمان بالكتب المنزلة على الأنبياء-عليهم السلام-، وهذا من أركان الإيمان، والإيمان كذلك أن القرآن قد نسخ هذه الكتب.

- أثر القدوة الصالحة في الدعوة إلى الله.
- أن على الداعية الإخلاص والاحتساب وابتغاء الأجر من الله.
- تحريم أخذ الأجرة على الدعوة إلى الله، إلا إذا لم يكن للداعي مصدر رزق يسترزق منه، فيجوز له أخذ الأجرة بقدر حاجته، أما الأنبياء والرسل-عليهم السلام-فلم يأخذوا أجراً على دعوتهم، بل كانوا يكتسبون من عملهم.

قلت: مسألة التعبد بشريعة من قبلنا، وللعلماء في ذلك قولان:

القول الأول: عدم جواز ذلك؛ لأن الله-سبحانه وتعالى-قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، فلا يجوز التعبد إلا بما جاء به الإسلام، وقال بذلك بعض أصحاب الإمام مالك والشافعي(١).

القول الثاني: جواز ذلك، واستدل بقصة أخت الربيع أُم حارثة، فقد جرحت إنساناً، فاختصموا إلى رسول الله-ﷺ-، فقال-عليه الصلاة والسلام-: «القصاص القصاص»، فقالت أُم الربيع: يا رسول الله! أيقتص من فلانة؟، والله لا يقتص منها، فقال رسول الله-ﷺ-: «سبحان الله يا أم الربيع! القصاص كتاب

(١) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني للنفراوي، (٢/١١٩)، وحاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني، (٢/٥٠٩)، ونهاية المطلب في دراية المذهب للجويني، (٩/٤١).

الله» قالت: لا والله، لا يقتص منها أبداً، قال: فما زالت حتى قبلوا الدية، فقال رسول الله-ﷺ-: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»، فأحال-عليه الصلاة والسلام-على قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥][(١)].

كما استدل بما ورد في صحيح البخاري أن مجاهداً سأل ابن عباس عن سجدة في سورة (ص)، فقال: «سألت ابن عباسك أفي (ص) سجدة؟، فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ثم قال: هو منهم»، زاد يزيد بن هارون ومحمد بن عبيد وسهل بن يوسف عن العوام عن مجاهد: قلت لابن عباس، فقال: «نبيكم-ﷺ-ممن أمر أن يقتدى بهم»[(٢)].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب: الصلح في الدية، (رقم ٢٧٠٣)، ومسلم في كتاب القسامة، باب: إثبات القصاص في الإنسان وما في معناها، (رقم ١٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾، (رقم ٤٦٣٢).

﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ أي: ماعرفوه حق معرفته ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ ثبت عن ابن عباس ومجاهد: أنها نزلت في كفار قريش(١).

وقيل: إن الذي قاله مالك بن الصيف اليهودي حين خاصم رسول الله -ﷺ-، فقال له-عليه الصلاة والسلام-: «أنشدك بالذي أنزل التوراة والإنجيل، أما تجد في التوراة إن الله يبغض الحبر السمين؟، سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود» -وكان هذا حبراً سميناً-، فغضب، والتفت إلى عمر، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له قومه: ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك؟، فقال: إنه أغضبني، وقد أبعدوه، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف(٢).

قال ابن كثير: «والأول أصح؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون

(١) تفسير الطبري.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، (٤/١٣٤٢)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٩/٣٩٣)، وأسباب نزول القرآن للواحدي، (ص٣٧٥).

إنزال الكتب من السماء»(١).

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ في هذا ردّ على قول اليهودي مالك بن الصيف: إنه لم يُنزل على أحد شيئاً، والمراد به التوراة.

﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: ضياء لليهود، يسترشدون بها لعبادة الله وحده .

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي: أنهم جعلوا التوراة في ورق، يبدون ما يرونه منها، ويخفون ما يرونه حسب أهوائهم .

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: علَّمكم محمد-ﷺ-مما أوحى الله إليه ما لم تعلموا وأنتم أصحاب التوراة، ولم تعلمه حتى آباؤكم من قبل، وشاهده-أيضاً-: قول الله-عزَّ ذكره-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن قتادة قال: «هم اليهود

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٣٧٥)، تحقيق: حكمت بشير، طبعة دار ابن الجوزي.

والنصارى، قوم آتاهم الله علماً، فلم يقتدوا به، ولم يأخذوا به، فذمَّهم الله في عملهم ذلك»[١].

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا لليهود: الله الذي أنزل الكتاب على موسى، وهو التوراة، وأنزل على الكتاب، وهو القرآن.

﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ أي: بعد أن تبلغهم هذا اتركهم يخوضون في باطلهم، وما عليك إلا أن دعوتهم.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ المراد به: القرآن. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ المراد: أن الله بارك فيه؛ ليكون نافعاً لمن آمن به، وصدَّق به، واتَّبع ما فيه من الأحكام.

﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: أنزله مصدقاً للكتب التي أنزلت من قبل فيما يتعلق بتوحيد الله، ونفي الشرك عنه ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي: لتنذر به أُم القرى (مكة)، والمراد: أهلها في تحذيرهم من الاستمرار في الشرك ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ أي: تنذر أهل الأرض، وثبت نحوه عن ابن عباس كما في تفسير الطبري.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ المراد بهم: من اتَّبع

---

(١) التفسير، (٤/ ١٣٤٣).

رسول الله-ﷺ-، وآمن به، وصدَّق برسالته.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: قائمون بها، محافظون على أدائها في أوقاتها، كما أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن قتادة قال: «على وضوئها، ومواقيتها، وركوعها، وسجودها»(١)، وخصَّ الصلاة بالذكر لأنها عماد الدين، ومن يُضَيِّعْها يُضَيِّعْ دينه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- سوء سلوك بعض أسلاف اليهود، وإنكارهم لنزول التوراة، كما فعل مالك بن الصيف، وإرشاد الله لنبيه ورسوله محمد-ﷺ-في الرد عليه وعلى من قال بقوله.
- أن الله أنزل كتابه المبين يصدق الكتب السابقة فيما يتعلق بتوحيد الله وطاعته، ونفي الشرك عنه، كما أن هذه الكتب تصدقه.
- بيان فضل الله على العرب، بجَعْلِ كتابه العظيم بلغتهم، وجعل نبيِّهم-ﷺ-منهم.
- الثناء على الذين يؤمنون بالقرآن، وعلى إيمانهم بالبعث، وعلى محافظتهم على الصلاة.

---

(١) التفسير، (٤/ ١٣٤٦).

- أنه ثبت علميًّا تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي: أنَّ اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً، وأنَّ هذه المدينة المقدسة تُعَدُّ مركزاً لليابسة، ولا يوجد انحراف مغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة وعند جميع الخطوط الموازية له باستثناء حالة واحدة، ويظهر ذلك خصوصية خط طول مكة المكرمة بانطباق الشمال المغناطيسي على الشمال الحقيقي، ومن هنا كان اختيار خط طول مكة المكرمة كخط طول أساسي للكرة الأرضية، وإعادة إسقاط خطوط طول الكرة الأرضية بدءاً منه، أي: بالنسبة إلى مكة المكرمة؛ لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهلاً[١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ

(١) آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، (ص ٥٥٧-٥٧٠).

كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى-أي: اختلق-على الله الكذب.

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ المراد به: مسيلمة الكذاب في اليمامة، وزوجته سجاح، والأسود العنسي في اليمن، الذين زعموا أنهم أنبياء، وأن الوحي ينزل إليهم.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قيل: إنها نزلت في عبد الله بن سعد أبي سرح، كان يكتب الوحي لرسول الله-ﷺ-، ثم ارتد، وعاد للمشركين في مكة»[1]؛ والسبب كما ذكر المفسرون: أنه لما نزل قول الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] دعاه رسول الله-ﷺ-، فأملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] عجب في تفصيل

(١) تفسير ابن أبي حاتم، (١٣٤٧/٤).

الخلق، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، فقال رسول الله-ﷺ-: «هكذا أُنزل عليَّ»، فشكَّ عبد الله حينئذ، وقال: لقد أوحي إلي كما أوحي إلى محمد، فارتدَّ عن الإسلام، فلما دخل رسول الله-ﷺ-مكة أمر بقتله، ففرَّ إلى عثمان، وكان أخاه من الرضاعة، فغيَّبه حتى أتى به رسول الله-ﷺ-فاستأمنه له، فصمت رسول الله-ﷺ-طويلاً، وقد أسلم بعد ذلك، فحسن إسلامه، وقد ولاه عثمان مصر، وفتحت إفريقية على يديه. وقيل: إنه دعا ربه أن يجعل خاتمة عمله في صلاة الصبح، وقد قبل الله دعوته، فلما صلَّاها وسلم عن يساره قبض الله روحه(١).

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي: لو رأيت الظالمين في شدة الموت وأهواله، والمراد بهم: اليهود المكذبون للوحي، والمتنبئون الذين يزعمون أنه يوحى لهم ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: لكي يقبضوا أرواحهم، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَالْبَسْطُ: الضَّرْبُ، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ»(٢).

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي، (ص٣٧٥-٣٧٦)، ومعالم التنزيل للبغوي، (ص٤٣٣)، وزاد المسير لابن الجوزي، (ص٤٥٤)، والسيرة الحلبية لأبي الفرج الحلبي، (٣/ ١٣٠).

(٢) التفسير، (٩/ ٤١٠).

﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ أي: أنقذِوها من العذاب الذي ينتظرها إن كنتم تقدرون على ذلك، وفي هذا توبيخ لهم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أي: هذا هو اليوم الذي تجزون فيه العذاب المهين جزاء أعمالكم السيئة ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: تجزون بالعذاب جزاء كذبكم على الله، واستهانتكم بأحكامه ﴿وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: وتجزون اليوم العذاب بما كنتم تعرضون عن آيات الله إعراض المتكبر المتجبر.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ أي: آحاداً، أي: على الصفة التي خلقناكم فيها لا تملكون شيئاً ﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ أي: تركتم وراءكم في الدنيا الأموال والأولاد التي أعطيناكم إياها، لا ينفعكم منها شيء، كما أخرج الطبري بسند حسن عن السدي: «﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ﴾ من المال والخدم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ في الدنيا»(١).

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ﴾ أي: الذين كنتم تعبدونهم من الأصنام والأوثان ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ المراد بهم الذين جعلوهم شركاء لله.

---

(١) التفسير، (٤١٦/٩).

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: انتهت الصلة التي بينكم وبينهم ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ أي: ذهب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الأصنام ونفعها، وشاهده: قول الله-جلَّ ذكره-: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

أحكام وفوائد الآيتين:

- تحريم الكذب على الله، وأنه لا أحد أظلم ممن يكذب عليه-عَزَّ وَجَلَّ-.
- تعليم الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-محاجَّةَ المشركين والردَّ عليهم.
- شدة سكرات الموت إلا من هونه الله عليه.
- تقرير العذاب والهوان للذين يتقولون على الله، ويستكبرون عن عبادته.
- تحريم ادعاء النبوة، وأنه لا أحد أظلم ممَّنْ يدعيها.
- انتفاء الشفاعة يوم القيامة إلا لمن أذن الله أن يشفع، وأوَّل الشفعاء نبينا ورسولنا محمد-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَلَا

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ
ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ
نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ
ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ المراد به: الشق الذي يكون في وسط حبة النبات، كحبة البر ونواة التمر.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب

﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾ أي: البيضة من الدجاجة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: أن الذي خلق الحب والنوى، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي هو الله الخالق القادر، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي: كيف تحيدون عن الحق، وتميلون إلى الباطل؟.

﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ أي: الذي خلق الضوء، وجعله ضياء للخلق في معاشهم ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ أي: الذي جعل الليل راحة لهم يسكنون فيه .

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ أي: ومن آيات الله أن الشمس والقمر يجريان بحساب متقن لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، أو يضطَّرب؛ وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «يعني: عدد الأيام والشهور والسنين»[(١)].

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي: كل هذه الأشياء تجري بقدرة الله وتسييره وحكمته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ أي: ومن كمال قدرته، وعظيم صنعه أن جعل لخلقه النجوم والأجرام ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾ **أي:** لترشدكم وأنتم ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ حتى لا تضلوا السير

---

(١) التفسير، (٩/٤٢٠).

فيهما ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: بينَّاها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم يعلمون قدرة الله وآياته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ المراد به: آدم-عليه السلام- ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: كنتم مستقرين في الأرحام ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في صلب آبائكم، كما ثبت عن ابن عباس في تفسير الطبري.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: بيَّنَّاها، وأوضحناها للذين يفقهون حقيقة قدرة الله في خلق الخلق من أصلاب آبائهم وأرحام أُمهاتهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ المراد به: المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: جميع النباتات وأصنافها، وشاهده-أيضاً-: قوله-جلَّ ذكره-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: جعلنا من الماء كل شيء أخضر من النباتات في مختلف أنواعها.

﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي: يركب بعض هذا الحب على بعض في شكل متناسق كحال سنابل القمح وسائر الثمرات.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: أن النخل يطلع

قنوانًا، أي: عذوقا من الرطب قريبة من تناولكم، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل»[1].

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنۡ أَعۡنَابٍ﴾أي: وأخرجنا لكم جنات من العنب المختلف في ألوانه وأصنافه﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾أي: أن الزيتون والرمان متشابه في الورق والأغصان، وغير متشابه في الثمر.

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ أي: تفكَّروا في إنشائنا لهذه الجنان والثمار، وقدرتنا على تكوينها نفعاً لكم في دنياكم .

﴿وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ أي: وانظروا كذلك إلى نضج هذه الثمار، وما فيها من المنافع لكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: إن هذه الآيات لا يصدق بها إلا المؤمنون الذين وقر الإيمان في قلوبهم، فعرفوا صنع الله وما وهبه لخلقه من المنافع والأرزاق.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان قدرة الله-ﷻ-في صنع أكبر المخلوقات، كالسماوات والأرض،

(١) التفسير، (٩/٤٤٦).

وصنع أصغرها كشق نواة التمرة، أو حبة القمح.

- امتنان الله على خلقه في خلق الضوء لهم، وجعل الليل سكناً لهم، والنهار مبصراً لهم، وجعل الشمس والقمر يجريان في نظام دقيق.
- امتنان الله على خلقه بأن جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، ومن مظاهر قدرته-عز وجل-: إنزال المطر من السماء، وإنبات النبات في مختلف مظاهره وأشكاله، وكل هذه المظاهر تدرك بالمحسوس والمشاهد، وهي دلالة واضحة للذين يعقلون بأن الذي صنعها وقَدَّرها هو الله-ﷻ-المستحق وحده للعبادة والتعظيم.
- جاء التعبير بفالق الإصباح وجعل الليل سكناً إشارة إلى تبادل كل من النهار والليل، وإلى جعل النهار لعمارة الأرض، وأصبحت حركات كل من الأرض والقمر والشمس معلومة بدقة كبيرة، لدرجة أن الساعات الزمنية تضبط اليوم على حركاتها بحساب محكم دقيق يُعِين الإنسان على إدراك الزمن وحسابه(١).
- تسخير النجوم لتكون دلائل يَهْتَدي بها المسافرون ليلاً، وبدأ في قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ بالأهمِّ عند الإنسان-وهو الصباح-، ثم أتبعه بالليل، ثم

---

(١) آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (ص ٥٠٣-٥١٢).

بَيَّنَ ما يفلق ظلمة الليل، فيبسط الإصباح -وهي الشمس-، وبَيَّنَ أنَّها والقمر جُعِلا لحساب مصالح الناس.

- أن كلَّ تلك الدلائل وسائل في إثبات وحدانية الله، وأتى بالضمير (هو)، ثم الاسم الموصول (الذي) في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ للحصر، وتأكيد أنَّ مُسَبِّبَ تقرير إنزال الماء هو الله العليم بمصالح عباده.

- جاء هذا التسلسل المُعْجِز من الحَبِّ المتراكب، إلى ثمار كل من النخل والأعناب والزيتون والرمان؛ ليجمع كل أنواع الغذاء الأساسي للإنسان ولأنعامه(١).

- اكتشف علماء النبات أنَّ في النبات مادة خضراء، وأن هذه المادة الخضراء يخرج منها المواد الكربوهيدراتية التي هي أساس لتكوين جميع المواد المكونة للثمار والأشجار والزروع(٢).

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ

---

(١) مقالات الدكتور زغلول النجار، (ص ٦٩٦).

(٢) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح، (ص٩٥).

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ المراد بهم مشركو العرب، فإما أن يكونوا يعبدون الجن، بمعنى: أنهم يلجؤون إليهم في جلب النفع لهم، أو دفع الضر عنهم، أو يكون المراد: أنهم ما عبدوا الأصنام إلا طاعة للجن، وشاهده: قول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١].

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: أن الله هو الذي خلق الجن، كما خلق المشركين.

﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ والمراد: أن المشركين كذبوا حين قالوا: الملائكة بنات الله، كما كذب اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، كما كذب النصارى حين قالوا: المسيح ابن الله، وهذا ضلال مبين.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لا علم لهم بذلك، وإنما هو جهلهم وضلالهم ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تقدَّس في أسمائه وصفاته، وتنزه عن الولد، وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً .

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: صانعهما وخالقهما ومبدعهما

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد؟

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ أي: أن الولد إنما يكون من زوج وزوجة، وحاشا الله أن يكون على هذه الصفة، فهو متفرّد في ذاته القدسية، وصفاته العلية.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ﴾ أي: هو خالق كل شيء في الوجود، ومن يخلق المخلوقين لا يكون مثلهم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ توكيد بأن الذي خلق كل الأشياء وعَلِمَها لا يمكن أن تكون له صاحبة أو ولد من خلقه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ لما ذكر الله-تعالى-أنه منزه عن الصاحبة والولد، وأنه بديع السماوات والأرض قال: ذلكم الله ربكم المتعالى في ملكوته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: لا يوجد إلَه إلا هو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: الذي خلق الخلق، وقدر أرزاقهم ومحياهم ومماتهم وبعثهم ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي: أدُّوا عبادته، وتوحيده، وطاعته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ أي: رقيب وحفيظ.

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: لا يدركه بصر، ولا يحيط برؤيته

بشر في الدنيا، والأصل فيه قوله-عزَّ ذكره-في كتب متقدمة لموسى لما سأله الرؤية: «يا موسى! إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده»(١)، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى:٥١]، والأصل فيه ما ذكره مسروق عن عائشة-رضي الله عنها-أنها قالت: «من حدَّثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب؛ فإن الله-تعالى-قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾»(٢).

أما في الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم، حيث أخبر عن ذلك بقوله-عزَّ ذكره-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: يعلم كل شيء في الوجود، ولا يخفى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، (١٥٥٩/٥)، وأبو نعيم في الحلية، (٢٣٥/١٠)، وانظر: تفسير القرآن العظيم، (١٥٤/٢)، والبداية والنهاية لابن كثير، (١١٢/٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، (رقم ٤٨٥٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: معنى قول الله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، (رقم ١٧٧).

عليه منه خافية ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: الرفيق المتلطف بعباده ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأحوالهم وأعمالهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- بيان أنّ من الإنس من عبد الجن، وأشركهم مع الله في العبادة، ويدخل في هذا قدماء المشركين والكفار، كما يدخل فيه السحرة الذين يطيعون الجن، فيذبحون لغير الله.
- التنديد بالذين ينسبون الولد لله، كما كان مشركو العرب يقولون: إن الملائكة بنات الله، وما يقوله اليهود بأن عزيزاً ابن الله، وما يقوله النصارى بأن عيسى ابن الله، فتنزه الله، وتقدَّس عما ينسبه إليه الظالمون.
- تقرير توحيد الربوبية والألوهية.
- أن الله لا يُرى في الدنيا، أمَّا في الآخرة فيراه المؤمنون، وهذا غاية ما يتمنونه وهم في دار كرامته.
- ثبوت رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة، فنَفْيُ الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخصُّ أوصاف الرؤية دَلَّ على أنَّ الرؤية ثابتة، ولو أراد نفي الرؤية لقال: «لا تراه الأبصار» أو نحو ذلك.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ
عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ
وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ١٠٥ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٦ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ
أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧﴾.

بيان الآيات:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ﴾ البصائر الآيات والبينات التي جاءت من عند الله على لسان رسوله محمد-ﷺ-، ويستدل بها العقلاء على الإيمان بالله وتوحيده، واتباع شرعه.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ أي: من استدلَّ بها، وآمن بالله وبرسوله فقد نجا ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ﴾ أي: من أعرض عن هذه البينات فقد هلك، وشاهده: قول الله-تعالى-: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ﴾ [الإسراء:١٥].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي: ليس من مهمتي حفظكم، فلست إلا مبلغاً لرسالة ربي ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ أي: نفسرها، ونفهمها لمن يريد الهداية، كما قال-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ

ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ أما الذين لا يهتدون، ولا يرغبون في بيان الحق الذي جئت به يا نبينا محمداً! فيقولون: إما أنك ﴿دَرَسۡتَ﴾ أي: نلت الدرس من غيرك، حتى لا ينتفعوا بما جئت به، كقولهم: ما هذا إلا أساطير الأولين، أو يقولون: لقد دارست أهل الكتاب، فتعلمت منهم، ولم يوح إليك من عند الله بشيء، وهذا منتهى الكفر والضلال.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي: تبيين القرآن وتصريفه ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: الذين وهبهم الله العقول التي يستبصرون بها طريق الهدى من الضلال ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أي: القرآن.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: المتفرد بالألوهية، ولا تحزن على فعلهم وكفرهم، فذاك متروك لله ليحاسبهم عليه ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهذا الأمر قبل نزول آية القتال.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ أي: أن شركهم كان بمشيئته؛ لعلمه أنهم لا يهتدون ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾ أي: لا تستطيع حفظهم من عذاب الله ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي: أنك مبلغ لهم ما أوحي إليك، ولست وكيلاً عنهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله قد أرسل البينات لخلقه على لسان رسوله ونبيه محمد-ﷺ-، فمن اتبعها فقد سلك الطريق السوي الذي يوصله إلى السعادة في الدارين، ومن تولى عنها فقد سلك طريق الضلال الذي يؤدي به إلى الهلاك.
- أن الله-عَزَّ وَجَلَّ-فسَّر الآيات، ويسَّرها لمن يبتغي الحق الذي جاء به رسوله-ﷺ-، أما الذين لا يريدون اتباع هذا الحق فيتهمون الرسول بالكذب-عياذاً بالله منهم-.
- وجوب اتباع كتاب الله وسنة رسوله محمد-ﷺ-، والإعراض عن أقوال الكفار وأهوائهم وأباطيلهم.
- تسلية رسول الله-ﷺ-بألا يحزن على إشراك المشركين وكفرهم، فلو شاء الله عدم إشراكهم لما أشركوا، ولكنهم ضلوا في أنفسهم، فأضلهم.
- استحالة رؤية الله في الدنيا، وجوازها في الآخرة لعباده المتقين.
- أن آيات القرآن تبصرة لِـمَنْ أخذ بها في طريق النجاة.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ

عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾.

بيان الآية:

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تتعرَّضوا بالسب للذين يدعون من دون الله ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ وفي هذا ثبت عن ابن عباس: «أن كفار قريش قالوا لأبي طالب: إما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا، وإما أن نسب إلَهكم ونهجره، فنزلت الآية»(١).

﴿عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ أي: جهلاً وضلالاً ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ أي: وكما زيَّنا لهؤلاء تعظيم أصنامهم والدفاع عنها فقد زيَّنا مثل هذا العمل لغيرهم من الأُمم السابقة.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ﴾ أي: معادهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: سيلقون ما كانوا يعملونه، فيحاسبون عليه.

أحكام وفوائد الآية:

- حرمة القول والفعل الذي يؤدِّي إلى سبِّ الله ورسوله.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، (٤/١٣٦٦)، والطبري في تفسيره، (٩/٤٨٠).

- أن الأصل منع ما يؤدي إلى المحظور، ودرء المفسدة أولى من جلب المنفعة، والتعرض للكفار بالسب قد يؤدي إلى المحظور، وهو سب الله، أو سب رسوله محمد-ﷺ-، أو سب الإسلام، فمتى كان الكفار في قوة وسلطة من أمرهم وجبت موادعتهم حتى لا يؤدي التعرض لهم إلى مفسدة أكبر من المصلحة في التعرض لهم بالسب ونحوه، وسد الذرائع مما توجبه أحكام الشريعة، ولهذا قال رسول الله-ﷺ-: «من الكبائر: شتم الرجل والديه»، قيل: يا رسول الله! هل يشتم الرجل والديه؟، قال: «يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أُمه، فيسب أُمه»[1].

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ
قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ
١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠ ۞وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ١١١﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه، (رقم ٥٩٧٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، (رقم ٩٠).

بيان الآيات:

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: حلفوا ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: غايتها، ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: لو جاءتهم معجزة من المعجزات التي تُعطى للأنبياء ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: يصدِّقونها.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمدًا: إن مرجع هذه الآيات إلى الله ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لعلَّه دخل في نفوس المؤمنين أن تنزل على المشركين آية من الله حتى يؤمنوا، فأنزل الله هذه الآية، أي: ومايدريكم أيُّها المؤمنون أنه إذا جاءتهم آية يؤمنون بها؟، بل هم يسألونها تعنتاً وتعجيزاً، وليس هدفهم الاستهداء والاستنارة بها إلى الطريق الحق.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ لما ذكر الله-ﷻ-أنهم حلفوا أيمانًا مغلظة بأن يؤمنوا إذا جاءتهم معجزة ذكر حقيقة أحوالهم، وعدم هدايتهم، ولو قالوا ما قالوا، فقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: نحول بينهم وبين الإيمان؛ لعدم صدقهم فيما يقولون عن رغبتهم في الإيمان إذا جاءتهم معجزة.

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: أنهم لا يؤمنون كما لم

يؤمنوا بالقرآن أول ما نزل ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: نتركهم في ضلالهم حيارى لا يهتدون سبيلاً.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ أي: لو أرسلنا لهم الملائكة، فرأوهم بأعينهم ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: لو أحيينا الموتى، فكلموهم جهاراً ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي: لو أتيناهم بما طلبوه من الآيات والمعجزات

﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: مع كل ذلك لن يؤمنوا إلا أن يشاء الله أن يهديهم، فهو الهادي، ومصرف القلوب، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قوله: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ «يقول: معاينة»[1].

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾أي: يجهلون في طلبهم الآيات حكمة الله وتدبيره في عباده.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن مجرد القول لا يدل على صدقه، فقد يقول قائل: إنه مؤمن، ويحلف أيماناً مغلظة، ولكنه ليس كذلك، ولأن الله يعلم عدم

---

(١) التفسير، (٩/ ٤٩٥).

صدقه يحول بينه وبين الإيمان، فيجعله حيران لا يهتدي إليه سبيلاً.

- أن الهداية بيد الله-ﷻ-، والمعجزات قد يراها الإنسان، ولا يؤمن بها.
- أن الذين لا يصدّقون في قولهم لن يؤمنوا، حتى لو رأوا الملائكة جهاراً، أو كلمهم الموتى، أو أوتوا ما طلبوا من الآيات.
- في الآية (١١١) إخبار عن أمر مستقبلي في حال الكافرين فيما لو أجاب الله-ﷻ-طَلَبَهم، فأنزل إليهم الملائكة من السماء، وأحيا لهم الموتى فكَلَّموهم، وجُمِع لهم كلُّ شيء طلبوه، فعاينوه مواجهةً، فهم لن يصدِّقوا، ولن يعملوا بما دعاهم إليه محمد-ﷺ-، إلا مَنْ شاء الله له الهداية.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ في هذا تسلية لرسول الله-

ﷺ-عما أصابه من قومه، والمراد: أنه كما تعرَّضت يا نبينا محمدًا للعدوان من قومك فقد حدث لكل نبي قبلك أعداء.

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي: أعداء من هذين الجنسين ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾ الإيحاء هنا بمعنى: التمويه والوسوسة التي يقوم بها شياطين الجن إلى شياطين الإنس، ويزخرفون لهم الباطل؛ ليغروهم به، وشاهده: قول رسول الله-ﷺ-: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟، قال: «وإيَّاي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بحق»(١).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ أي: ما فعلوا هذا التمويه؛ لأن كل شيء بحكمته وإرادته ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: اتركهم وما يفعلونه من التمويه، فإن الله ناصرك، وسيلقون جزاءهم على كذبهم.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: لتميل إليه ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لتميل إلى كذبهم وتمويههم قلوب الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، (رقم ٢٨١٤).

الله عنهما-قال: «تزيغ إليه أفئدة»[١].

﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي: ويرضوا بهذا الكذب، وليرتكبوا بفعلهم تلك الخطايا والسيئات.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الله جعل لكل نبي أو داعية إلى الدين عدوًّا من شياطين الإنس والجن، يكيدون له ويعادونه، وقد تصل هذه العداوة إلى حد القتل، كما حدث لبعض أنبياء بني إسرائيل، وفي هذا التقرير تسلية لرسول الله-ﷺ-عما وجده من قومه.
- تحريم الخداع والتمويه بالباطل، وأنه لا يصغي له إلا الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور.
- قال ابن عاشور: «جِيء في صلة الموصول بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ للدلالة على تمكُّنهم في ذلك الاقترافِ، وثباتهم فيه»[٢].

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ

(١) التفسير، (٩/ ٥٠٤).
(٢) التحرير والتنوير، (٧/ ١٠).

بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا
وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ
مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ
إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ
أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا للمشركين الذين كذبوك: أأطلب غير الله حكماً بيني وبينكم، وهو الحكم الحق الذي خلقكم ورزقكم؟.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ أي: بيَّن لكم في القرآن عظيم قدرته وسلطانه، ودلائل آياته ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المراد بهم: اليهود والنصارى ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك تنزيلا بيناً، لا شك فيه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: لا تكوننَّ من الشاكِّين في علمهم أنه منزل من عند الله، فهم يعرفون ذلك حقيقة، كما يعرفون أبناءهم، وشاهده: قول الله-جلَّ ذكره-: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ

أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: أحكامه

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ أي: صدقاً في الوعد؛ لأنه لا يخلف الميعاد، وعدلاً فيما حكم وقضى به، كما ثبت عن قتادة في تفسير الطبري، وشاهده: قوله ﷻ --: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨] .

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لا معقب لما حكم وقضى به.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقوله عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بسرائرهم وخفاياهم.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الكفار والمشركين ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: عن الطريق الذي هداك الله إليه، وهو طريق الإسلام ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: إن هؤلاء الكافرين لا يعرفون إلا الظن الكاذب الذي لا يستند إلى علم.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: إن علمهم هو مجرد التخمين والخرص الذي لا يوصل إلى حقيقة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ﴾ أي: إن ربك يا نبينا محمدًا! يعلم من يضل عن سبيله من الخلق، وسوف يجازيه

على هذا الضلال ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وهو أعلم كذلك بالذين يريدون الهداية، فيرشدهم إليها.

أحكام وفوائد الآيات:

- قال ابن عاشور: «تقديم ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿أَبْتَغِى﴾ لأنَّ المفعول هو محلُّ الإنكار، فهو الحقيق بموالاة همزة الاستفهام الإنكاري»[1].

- تحريم التحاكم إلى غير الله، والمراد به: كتابه وسنة رسوله محمد -ﷺ-، كما قال -تعالى-: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

- أن أحكام الله المنزلة في كتابه وعلى لسان رسوله محمد-ﷺ-كلها حق وصدق وعدل.

- أنه لا راد ولا معقب لما حكم الله به، وقضى به على عباده.

- أن الله يعلم بعلمه المطلق مَنْ يضل عن سبيله من الخلق، ومَنْ يدعو إليه، وسوف يجازي كلًّا بعمله.

- بيانُ المنهج الصحيح في التلقي والقبول، وهو تحكيم شرع الله-عَزَّ وَجَلَّ- في كلِّ أمرٍ من الأمور، وفي كلِّ ما يَرِدُ إلينا من رُؤى وأفكارٍ نحتكمُ

(١) التحرير والتنوير، (٧/ ١١).

فيها إلى شرعِ الله، فهو الحَكَمُ والميزانُ، وهو الفُرقانُ الذي يُرشِدنا إلى الحقِّ.

- البشرى بأنَّ أحكام الله-تعالى-محققة وباقية.
- تَجَنُّبُ الاغترار بما عليه أهل الكفر والضلال والبدع والأهواء، مهما كَثُرَ عددُهم، وشاع ضلالُهم، وقَوِيَتْ شوكتُهم؛ فإنَّ مصيرهم إلى الزوال.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨
وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم
مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ
بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ
ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ
يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ
لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ
أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾.

بيان الآيات:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ هذا أمر من الله لعباده أن

يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من المطعومات وغيرها مما هو في حكمها.

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: «أتى أُناسٌ النبيَّ -ﷺ-، فقالوا: يا رسول الله! أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟، فأنزل الله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾»[1].

﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: في حال كونكم مؤتمرين بشرعه وأحكامه.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ المراد: ما الذي يمنعكم من أكل ما ذكر اسم الله عليه ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾؟، المراد: لماذا لا تأكلون مما ذكر اسم الله عليه، وقد بيَّن لكم الله الحلال والحرام من الطعام والشراب؟.

﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ أي: فصَّل لكم الحلال والحرام حيث حرَّم عليكم الميتة والدم وغيرهما، إلا إذا اضطررتم إلى ذلك؛ للحفاظ على أنفسكم من المجاعة أو العطش.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ﴾ أي: إن كثيراً من المشركين ومن في

(١) أخرجه الترمذي في السنن، (٥/٢٦٣ - ٢٦٤)، كتاب التفسير، باب سورة الأنعام، (رقم ٣٠٦٩)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

حكمهم من الكفار يضلون الناس ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ أي: يتكلمون عن الذبح، وعن الحلال والحرام بجهل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: هو العليم باعتدائهم، وكذبهم على الله.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ أي: اجتنبوا المعاصي في علانيتها وسرها؛ لأنها إثم وخطيئة في أي صورة كانت عليها، وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «أي: قليله وكثيره، وسره وعلانيته»(١)، وشاهده: قول الله-عزَّ ذكره-: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد صحَّ عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله-ﷺ-عن البر والإثم، فقال: «البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطّلع الناس عليه»(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: إن أهل المعاصي سيجزون على ما يقترفونه منها، سواء فعلوا ذلك سرًّا أم علانية.

---

(١) التفسير، (٩/ ٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، (٤/ ١٩٨٠)، (رقم ٢٥٥٣).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: إن الله حرَّم عليكم أن تأكلوا ذبيحة لم يذكر اسم الله عليها .

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: الذبح بغير التسمية باسم الله، وشاهده من السنة أحاديث كثيرة، منها: قول رسول الله-ﷺ-: «من ذبح قبل الصلاة-المراد الأضحية-فليذبح مكانها أخرى، ومن كان لم يذبح حتى صلينا فليذبح على اسم الله»(١)، وقوله-عليه الصلاة والسلام-: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكل»(٢).

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ أي: إن الشياطين يلهمون الكذب والتمويه وغرور القول لأوليائهم والمصدقين لهم ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بالباطل، كقول المشركين للمسلمين: أنتم تزعمون أنكم تتبعون أحكام الله ومرضاته، فما لكم تأكلون ما ذبحتم، ولا تأكلون ما قتل الله-يقصدون الميتة-؟، فقال الله-عزَّ ذكره-: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي: في قولهم بأكل الميتة .

﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: مثلهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب: قول النبي-ﷺ-: «فليذبح على اسم الله»، (رقم ٥٥٠٠)، ومسلم في كتاب الأضاحي، باب: وقتها، (رقم ١٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب: التسمية على الذبيحة، ومن ترك متعمداً، (رقم ٥٤٩٨)، ومسلم في كتاب الأضاحي، باب: جواز الذبح بكل ما أنهر الدم، (رقم ١٩٦٨).

أحكام وفوائد الآيات:

- قال الدكتور محمد جميل الحبال: «تَوَصَّل فريق طبي سوري بعد ثلاث سنوات من التجارب لدراسة الفرق بين الذبائح التي ذُكر اسم الله عليها، ومقارنتها مع الذبائح التي تُذبح بنفس الطريقة، ولكن بدون ذِكْرِ اسم الله عليها، وأكَّدت الأبحاثُ أهميةَ ذِكْر اسم الله (بسم الله، الله اكبر) على ذبائح الأنعام والطيور لحظة ذبحها، فقد أثبتت النتائج المظهرية المخبرية أنَّ نسيج اللحم المذبوح بدون تسميةٍ وتكبيرٍ، من خلال الفحوصات المظهرية والاختبارات النسيجية والزراعات الجرثومية أنَّها مليئة بمستعمرات الجراثيم، ومحتقِنة بالدماء، ولون اللحم أحمر قاتم يميل إلى الزرقة، لا يصلح للاستهلاك البشري (غير صحي)، بينما كان اللحم المكبَّر عليه خالياً تماماً من الجراثيم وصحيًّا، ولا يحتوي نسيجه على الدماء، ولونه طبيعي وسليم. وقد لوحظ أنَّ لحوم الأضاحي التي تُذبح بمناسبة عيد الأضحى المبارك في بلاد المسلمين كافة-ولا سيما في البلد الحرام (الحج)-تكون صحيَّة ولذيذة الطعم، حيث إنَّها مباركة بالتكبيرات، وذِكْرِ اسمِ الله عليها من كل مكان في هذه

الأيام المباركة والمكان الشريف»(١).

- عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فنسخ، واستثنى من ذلك قال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥]»(٢).

- وجوب التسمية عند ذبح الأنعام وكل ما في حكمها، وهذا واضح بدلالة صريح الآية بأن ترك التسمية فسق، فإن ترك التسمية فله حالتان:

الحالة الأولى: إذا كان تركها ناسياً غير متعمد حلَّت ذبيحته عند أكثر العلماء؛ لأن الناسي لا يسمى فاسقاً؛ ذلك أن النسيان مما يجوز على الإنسان، ويعذر فيه؛ لقول رسول الله-ﷺ-: «إن الله تجاوز عن أُمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(٣).

الحالة الثانية: إن ترك التسمية عامداً لم يحل أكل ذبيحته، والاحتجاج بحديث البراء بن عازب-رضي الله عنه-أن النبي-ﷺ-قال: «اسم

(١) ينظر: تفسير المدينة، (١/٣٧٦).

(٢) أخرجه أبو داود، السنن، (رقم٢٨١٧)، كتاب الأضاحي، باب في ذبائح أهل الكتاب، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، (٩/٢٨٢)، من طريق أبي داود به، وحَسَّنه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، (رقم ٢٠٤٣)، وحسنه النووي في الأربعين النووية، (رقم ٣٩)، وصححه الألباني.

الله على كل قلب مؤمن يسمي أو لم يسمِّ»[١] لا يصح؛ لأن هذا الحديث ضعيف.

هذا في خصوص التسمية عند ذبح الأنعام، أما في العموم فإن المسلم يسمي الله عند أكله؛ لقول رسول الله -ﷺ- للغلام: «سمِّ الله، وكل بيمينك»[٢]، كما يسمي الله عند وضوئه؛ لقوله -عليه الصلاة والسلام-: «لا وضوء لمن لا يذكر اسم الله عليه»[٣]، كما أن المسلم يسمي الله عند مجامعته لأهله[٤]، وفي الكثير من أقواله وأفعاله؛ طلباً لبركة الله وعونه.

- حل ما اضطر إليه العبد لإنقاذ نفسه من الهلاك، ومن ذلك: أكل الميتة ونحوها.
- تحريم اتباع أهل الباطل وأهل الأهواء.

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، (٥/٥٣٣)، (رقم ٤٨٠٣)، وضعفه، والبيهقي في السنن الكبرى، (١٩/١٨٥)، (رقم ١٨٩٢٧)، دون قوله: «سمى أو لم يسم»، وقال: «حديث منكر».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب: التسمية على الطعام والأكل باليمين، (رقم ٥٣٧٦)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما، (رقم ٢٠٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب: في التسمية على الوضوء، (رقم ١٠١)، وابن ماجه في كتاب الطهارة، باب، (رقم ٣٩٩)، كلاهما عن أبي هريرة، والترمذي في كتاب الطهارة، باب: في التسمية عند الوضوء، (رقم ٢٥)، وابن ماجه في كتاب الطهارة، باب، (رقم ٣٩٧)، كلاهما عن أبي سعيد الخدري، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

(٤) أخرج البخاري في كتاب الوضوء، باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، (رقم ١٤١)، ومسلم في كتاب النكاح، كتاب: ما يستحب أن يقول عند الجماع، (رقم ١٤٣٤)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أن النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، لَمْ يَضُرُّهُ».

- وجوب ترك الإثم في ظاهره وباطنه.
- تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، ما لم يكن ذلك نتيجة السهو.
- تحذير الله -تعالى- من الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام، ويُرَدِّدها أدعياؤه المُغْرِضُونَ من شياطين الإنس والجن، ويَتَلَقَّفها بعضُهم من بعضٍ؛ ليَقْدَحُوا في الشريعة الغرَّاء.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ في هذه الآية ضرب الله مثلاً للتفرقة بين المؤمنين والكافرين، أي: أن من كان قبل الإسلام غارقاً في الغواية والإثم، ثم هديناه للإسلام، فاتبع ما أمرنا به، وانتهى عما

نهينا عنه ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ وهو القرآن، فيحل الحلال ويحرم الحرام، فالجواب أنه ليس ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهو الغارق في الجهل والضلال، فيحرم الحلال، ويحل الحرام، ونظيره قول الله-تعالى-: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر:٢٢].

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: أصبح غارقاً فيها، لا يستطيع الخروج منها. ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أن الشيطان زيَّن للمشركين سوء أعمالهم، فأرداهم في الغواية والضلال.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ في هذا تسلية لرسول الله محمد-ﷺ-عما أصابه من المشركين، أي: أن ما أصابك من كبار كفار قريش كأبي لهب، وأبي جهل، قد حدث للأنبياء قبلك ممن عصاهم قومهم، وتصدَّى لهم كبارهم بالتكذيب، ونظيره قوله-تعالى-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ [الفرقان:٣١].

﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي: ليفسدوا فيها ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: ما يفسدون إلا أنفسهم؛ لما سينالهم من الحساب والجزاء على إجرامهم وتكذيبهم للرسل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي:

بعاقبة فسادهم؛ لفرط جهلهم، وسوء إدراكهم.

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾

ما زال السياق في أحوال المشركين وسلوكهم وذكر جهلهم، فإذا جاءهم برهان من الله وموعظة قالوا: لن نؤمن بما قيل حتى نكون أنبياء تنزل علينا الملائكة، مثل ما كانت تنزل على الرسل، ونظيره-أيضاً-: ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ [الفرقان:٢١].

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ أي: هو العالم بمن يكلفه بالرسالة من خلقه، فلو علم فيهم خيراً لكلف أحداً منهم بالرسالة، ولكنه كلَّف بها محمداً-ﷺ-؛ لعلمه أنه أهل لها؛ لصدقه وأمانته وعفافه وطهره .

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: سينال المشركين والمجرمين الذين قالوا هذا القول صغار أي: ذلَّة وهوان عند الله يوم يعرضون عليه ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ أي: عذاب أليم ﴿بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: يخدعون، ويموّهون، ويجادلون بالقول الباطل.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن المؤمن حي في الدنيا والآخرة، بمعنى: أنه حي في الدنيا باطمئنانه فيها، ورضاه بما حباه الله به من الهداية، وحي في الآخرة بما يناله فيها من النعيم المقيم، وهذا على خلاف الكافر الذي حياته ظلام في الدنيا؛ لبعده عن طريق الله، وظلام في الآخرة بما يناله من الهوان والعذاب.

- تسلية رسول الله -ﷺ- عمَّا أصابه من قومه؛ لأن ما أصابه منهم سبق أن حدث للأنبياء قبله.

- أن من يفسد ويمكر في الأرض يرتد عليه مكره وفساده.

- أن كثيرًا من البلاد لا تخلو من مجرمين يفسدون فيها، كما قال-تعالى-: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

- أن الرِّسالة ليست ممَّا يُنال بالأماني ولا بالتَّشَهِّي، ولكنَّ الله يعلم مَنْ يصلح لها، ومَنْ لا يصلح، ولو عَلِمَ مَنْ يصلح لها، وأراد إرساله لأرسله.

- غباء وجهل المشركين، وكونهم لا يؤمنون إلا إذا أنزل الله عليهم، مثل ما ينزل على أنبيائه، والحكم بأن العذاب سينالهم جزاء عدم

إيمانهم.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

بيان الآية:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾ لقد بيَّن الله لعباده سننه وأحكامه في عباده، فمن يشرح صدره لأوامر الله ويتبعها فإنه يرحمه، ويرأف به، ويوفقه للإسلام، فتنشرح لذلك نفسه، ويطيب خاطره، وهذا دليل سعادته.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي: أن من يضيق صدره بأوامر الله فإن نفسه تكتئب وتضيق.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ أي: أنه من شدَّة ما يعانيه من الضيق بسبب فقده الإيمان يتكلف ما لا يستطيع، مَثَلُهُ في ذلك مَثَلُ من يحاول الصعود إلى السماء، وهو محال، وهذا دليل على شقائه.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: جعل الله اضطراب العقل وسوء البصيرة على الذين لا يؤمنون به.

وقد صحَّ فيما رواه الطبري عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾ قال: «عذاب الله»(١).

أحكام وفوائد الآية:

- أن من أسباب الصدودِ ودواعي الإعراض: صنيع أكابر المجرمين من مكرٍ وصَدٍّ عن سبيل الرشادِ وطغيانٍ واستبداد، ومن أسبابِ صدودِهم: ما في صدورهم من كِبْرٍ وحسدٍ وجهالةٍ، وما تحمله نفوسهم من مطامحَ ماديَّةٍ، ومفاهيمَ خاطئة.
- أن من يتبع أوامر الله، وينتهي عن نواهيه يشرح الله صدره للإسلام، فتطمئن نفسه، ويكون على نور من ربه، كما قال-ﷻ-: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر:٢٢].
- أن من يعرض عن أوامر الله، ويرتكب محارمه، يضيق صدره، وتكتئب نفسه، ويضطرب عقله، وتعمى بصيرته.
- أن الآية الكريمة دلَّت على نوع من الإعجاز العلمي في القرآن، وهو أنَّ الضغط الجوي يَخِفُّ كلما ارتفع الإنسان في الجو حتى يتلاشى، وأنَّ الإنسان كلما صَعِدَ إلى السماء ضاق صدره حتى يصل لدرجة

(١) التفسير، (٥٥٢/٩).

الاختناق، فتشبيه الحالة المعنوية بهذه الحالة الحسية التي لم تكن معروفة عند نزول القرآن دليل على هذا الإعجاز.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ الخطاب لرسول الله محمد-ﷺ-، والمراد: أن ما أنت عليه وأتباعك إنما هو صراط الله المستقيم الذي ارتضاه لكم ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: بينّاها، ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: من كان لهم علم ووعي وفهم لما أنزل الله من هذه الآيات.

﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ أي: ضمن الله للمتذكرين دار الله، أي: الجنة التي وصفها بدار السلام ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: ناصرهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: جزاء لهم على إيمانهم وتذكرهم لآيات الله.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن النبوةَ منحةٌ إلهيةٌ، ورحمةٌ ربانيةٌ، يختصُّ اللهُ بها مَنْ يشاء

من عباده، فالرسلُ هم أصفى الناس معدناً، وأحسنُهُم خُلُقاً، وأخلصُهم لله.

- أن الله ارتضى لرسوله محمد-ﷺ-وأتباعه الصراط المستقيم الذي من سلكه فاز في الدارين، ومن ضل عنه هلك فيهما، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

- أن الذين يتذكرون آيات الله، ويستقيمون على طريقه المستقيم، يجزون بدخولهم الجنة دار الكرامة عند ربهم.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ

أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ
بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ وَمَا رَبُّكَ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: يوم تحشر الخلائق يوم القيامة ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ المراد: ينادي الله الجن، فيقول: قد استكثرتم من إضلال الإنس وإغوائهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ والمراد: أن الإنس استمتعوا من الجن حيث زيَّنوا لهم المعاصي، واستمتع الإنس بالجن، فكانوا إذا نزلوا وادياً استعاذوا من الجن، وشاهده قول الله-عزَّ ذكره-: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

قوله: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾ أي: يوم البعث ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: منزلتكم التي لا تخرجون منها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: كتب عليكم البقاء فيها أبد الآبدين ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فهو المرجع والحكم في كل شيء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ أي: نسلّط بعض الظالمين على بعض، كما هو الحال في تسلط شياطين الجن على الإنس ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب سوء أعمالهم.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: يقال للجن والإنس يوم يحشرهم الله: ألم يأتكم رسل منكم يبلغونكم رسالة الله إليكم؟، وقد كان هذا البلاغ للإنس عن طريق الرسل، كما كان للجن عن طريق رؤسائهم الذين كانوا يستمعون للرسل، ومنهم رسول الله -ﷺ-، وشاهده: قول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١]، وقوله -عزَّ ذكره-: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: يُفَصِّلون لكم ما أنزلته من الآيات ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾ أي: كان رسلنا يحذِّرونكم من هذا اليوم الذي تحاسبون فيه، وتجزون على أعمالكم.

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ أي: يقولون: إن الرسل بلَّغونا رسالة الله ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أن الذي منعهم من الإيمان وتصديق الرسل هو مَا سَوَّلَه لهم الشيطان من الغرور بالحياة الدنيا ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: أقرُّوا، واعترفوا بكفرهم وضلالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إرسال الرسل إلى الإنس والجن ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: أن ربك يا محمد! لم يكن يهلك أهل القرى قبل أن يرسل إليهم رسلاً؛ لأن من حكمته وإرداته في خلقه ألا يظلم أحداً منهم، وشاهده: قوله-عزَّ ذكره-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾ [النساء: ٤٠]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي: لم يأتهم نذير من قبل يدلهم على الهدى ويبصرهم الحق ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ أي: لكل واحد من الجن والإنس درجات حسب عمله في الخير أو الشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ

عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: أنه عالم بكل عمل يعمله الإنس والجن، وسوف يحاسبون عليه.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير ما يجري بين كفرة الجن والإنس من التعاون على الخبث والضلال، كما هو الحال في تعاونهم على السحر ونشر الفساد.
- تولي الظالمين بعضهم بعضاً جزاء أفعالهم، فمن يستسلم من الإنس لشياطين الجن يسلطه الله عليه، فيتولاه.
- في الآية (١٣١) إثبات قاعدة العذر بالجهلِ، وذلك من رحمةِ الله وعدله.
- أن الله-ﷻ-قد أعذر الإنس والجن بإرسال الرسل لهم، فمن اتبعهم فقد عصم نفسه، وأنجاها، ومن أعرض عما جاؤوا به فقد أهلكها.
- أن لكل من الإنس والجن جزاءه على عمله من الخير أو الشر.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ

مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: الغني في ذاته العلية، والغني عن خلقه، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨].

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: الرحيم لمن أطاعه واتقاه، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ ي: إن يشأ يستأصلكم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: يخلق خلقاً آخر غيركم، لا يكونون مثلكم في المعصية ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته، كما أنشأ آخرين من قبلكم، وشاهده: قوله-عزَّ ذكره-: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء:١٣٣]، وقوله-تقدَّست أسماؤه-: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ أي: إن الذي توعدون به أيها المشركون المكذّبون لرسالة الله وما جاء به نبيه آت لا محالة. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لن تعجزوا الله في شيء.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمدًا: ابقوا على عملكم من الكفر، وهذا تهديد لهم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: باق على ما أنا عليه من الإسلام والإيمان بالله، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: سوف ترون يوم الحساب أن العاقبة الحسنة ستكون للمتقين، وأن العاقبة السيئة لكم بسبب شرككم وكفركم.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ توكيد أن المشركين لا ينتصرون، وقد تحقَّق ذلك، فانتصر رسول الله-ﷺ-وأتباعه، وانهزم المشركون، فكان لهم الخسران والهوان في الدنيا والآخرة.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله-عَزَّ وَجَلَّ-غني عن عباده، فلا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم.

- أن وعد الله للمشركين بالعذاب واقع لا محالة، وقد يكون هذا

العذاب معجلاً لهم في الدنيا، أو مؤجلاً لهم في الآخرة.

- أن الله-تعالى-قادر على إبادة الخلق والإتيان بغيرهم.

- تهديد المشركين بالعذاب إذا استمروا على شركهم، وهذا الحكم عام في كل زمان ومكان.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا
لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦ وَكَذَٰلِكَ
زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ
وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ
١٣٧ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ
بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا
ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ
هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ
فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ
ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً
عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾.

بيان الآيات:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ ثبت عن ابن عباس-رضي الله عنهما-في تفسير هذه الآية: «أن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً، وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه، وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئاً، جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمر الذي جعلوه لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله، فسقى ما سمي للوثن، تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله، فقال الله-تعالى-: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾»[(١)].

وقيل: المراد أنهم إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم أوثانهم، وإذا ذبحوا لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله[(٢)].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٥/ ٤٠ – ٤١)، والدر المنثور، (٣/ ٨٨ -٨٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٧/ ٩٠).

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي: بئس عملهم، فالله-جلَّ وعلا-لا يقسم له من خلقه، فهو خالقهم، وخالق نباتهم وأنعامهم وزروعهم، فتعالى اللهَّ وتقدَّس عما يقول الظالمون.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾

لما بيَّن الله-جلَّ وعلا-ما زينته الشياطين للمشركين من جعلهم لله نصيباً، ولأوثانهم نصيباً من الحرث والأنعام، بيّن أنهم زينوا لهم كذلك قتل أولادهم خشية الفقر ووأد البنات خشية العار ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ أي: ليهلكوهم، وليلبسوا عليهم دينهم، أي: يخلطوا عليهم دينهم بالباطل.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ أي: أن فعلهم هذا هو بإرادة الله وحكمته ومشيئته ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ أي: اتركهم وما يفعلون، فلست إلا مبلغاً لهم، وسوف يحكم الله في ذلك، وهو خير الحاكمين.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ أي: محجورة لأوثانهم، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «فَالْحِجْرُ: مَا حَرَّمُوا مِنَ الْوَصِيلَةِ، وَتَحْرِيمُ مَا حَرَّمُوا»[١]؛ ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ أي: لا يأكل منها إلا من يشاؤون من المقربين لهم، أو هي الوصيلة، كما قال-ﷻ-: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ

(١) التفسير، (٩/٥٨٠).

بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة:١٠٣].

﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ أي: أنعام يتركونها قرابين للأوثان، فلا يركبها أحد منهم أو من غيرهم ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أي: يذبحونها للأوثان، وليس لله.

﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ أي: يكذبون على الله أنه أمرهم بهذا ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: سيلقون يوم القيامة جزاء كذبهم.

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ هذا جهل من جهالتهم، وعمى من عماهم، وضلال من ضلالهم، فيجعلون اللبن وأجنة الأنعام مما يباح لذكورهم، ويحرم على نسائهم.

﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ أي: إن كانت الأجنة ميتة أباحوها لذكورهم ونسائهم ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي: سيجزيهم الله على كذبهم وافترائهم على الله، وزعمهم أن هذا من أحكامه ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾ في شرعه وأحكامه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يفعله عباده.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا ﴾ أي: باء بالإثم والخسران في الدنيا هؤلاء الذين قتلوا أولادهم بحجة الخوف من

الفقر، أو الخوف من العار، وما يفعل هذا إلا السفهاء الذين ضلُّوا عن الطريق المستقيم، فأضلَّهم الله.

﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فيما شرعوه من شرعهم الباطل في السائبة والوصيلة والحامي.

﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: كذباً وزوراً بادّعائهم أن هذا من أحكام الله ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ أي: أنَّهم بفعلهم هذا كفروا، ولم يهتدوا بما جاءهم من أحكام الله.

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم ما كان يفعله أهل الجاهلية من البدع والضلال.
- تحريم قتل النفس بغير حق، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة أو العار، وهذا يشمل ما تفعله بعض دول المسلمين من تحديد النسل خوف الفقر.
- أن الله وَصَفَ المشركين بأوصافٍ سبعة، هي: الخسران والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة، وكلٌّ واحدٍ منها سبب تام في حصول الذم[١].

---

(١)التفسير الكبير للرازي، (٥/ ١٦١).

- وَضْعُ المرأة المُزْرِي، وحقوقها الضائعة في تلك الجاهلية الجهلاء، والتقاليد البالية التي لم تَسْلَمْ المرأةُ مِنْ عَنَتها، فعانت من ظلم أقربِ الناسِ إليها، وعاشت مَهيضةَ الجناح، كسيرةَ الفؤاد حتى أشرقت شمسُ الإسلام.

- تحقيق الفعل بـ﴿قَدْ﴾ في الآية (١٤٠) للتَّنبيه على أنَّ خُسْرانَهم أمر ثابت، فيفيد التحقيقُ التَّعجيبَ منهم، كيف عَمُوا عمَّا هم فيه من خسرانهم؟.

- إبطال أعمال الجاهلية في تحريم ما أحلَّه الله، ويشمل ذلك كل عرف أو عادة تتعارض مع أحكام الله، ومن ذلك: الذبح عند القبور، والتقرب إلى أصحابها من الأولياء.

﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٤١﴾.

بيان الآية:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ أي: هو الذي خلق ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾

أي: بساتين مرفوعات عن الأرض، والمراد بالتعريش: الرفع ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: غير مرفوعات.

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي: يختلف من حيث الطعم والذوق ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي: متشابه الورق واللون ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في الطعم ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي: مما يثمر النخل والزيتون والرمان.

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قد يكون المراد الزكاة، وهي: العشر ونصف العشر، وقد يكون المراد الصدقة، وقد يكون المراد الاثنين معاً، فالزكاة فرض، أما الصدقة من الثمار فمما يحبه الله، خاصة من يأتي وقت الثمار، وهو يتطلع إلى شيء منها، وقد ذم الله أصحاب الجنة الذين يجنون الثمار في خفية حتى لا يراهم المساكين، وشاهد هذا: قوله-عزَّ ذكره-: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم

مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القلم: ١٧ - ٢٤].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ قد يكون معطوفاً على الأكل في قوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾، وقد يكون المراد النهي عن الإسراف في الصدقة، أي: أن الله يبغض المسرف.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب إخراج الصدقة مما تنبت الأرض، وقد اختلف في حكم المخرج منها الوارد في هذه الآية، أهي الزكاة المفروضة أم الصدقة من غيرها؟، فقال فريق: إن المراد الزكاة المفروضة، أي: العشر فيما سقت السماء، وما سقي بنضح ونحوه نصف العشر[١]، وقيل: إن المراد حق في المال من غير الزكاة، ندب الله إليه، وقيل: إن هذا منسوخ بآية الزكاة، فهذه الآية مكية، وآية الزكاة مدنية.

وقد استدلَّ الإمام أبو حنيفة بهذه الآية، فأوجب الزكاة في كل ما تنبت الأرض، إلا الحطب، والحشيش، والقضب، والتين، والسعف، وقصب السكر[٢]، وقال صاحباه: لا يجب العشر إلا فيما له ثمرة

---

(١) أخرج البخاري في كتاب الزكاة، باب: العشر فيما يسقى من ماء السماء، (رقم ١٤٨٣)، عن ابن عمر عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا العُشْرُ، وَمَا سُقِيَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ العُشْرِ».

(٢) البناية شرح الهداية لبدر الدين العيني، (٣/ ٤١٧).

باقية إذا بلغ خمسة أوسق[١]، وخالفه في ذلك آخرون، وقالوا: لا زكاة إلا في الحنطة والشعير والزبيب والتمر، وعند الإمام مالك تجب الزكاة في كل ما هو مقتات مدخر[٢]، وعند الإمام الشافعي تجب الزكاة في كل يابس يدخر، ويقتات مأكولاً، باستثناء الزيتون[٣]، أما الإمام أحمد فيرى مثل ما رآه الإمام أبو حنيفة إذا كان يوسق[٤]؛ استدلالاً بقول رسول الله -ﷺ-: «ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة»[٥].

أما الوقت الذي يجب فيه الحق المراد في الآية فقيل: إنه وقت جذاذ الثمر أو صرامه، وقيل: يوم الطيب؛ لأنه قبل أن يكون طيباً لا يصح للأكل؛ لأنه ليس بطعام، وقيل: إن وقت إخراج الحق بعد خرص الثمار[٦].

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ

(١) البناية شرح الهداية، (٣/٤١٨).
(٢) شرح الزرقاني على مختصر سيدي خليل، (٢/٣٣٣).
(٣) مغني المحتاج للشربيني الخطيب، (١/٢٨١).
(٤) الكافي لابن قدامة، (٢/١٣١ - ١٣٤).
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: «ليس فيما دون خمس ذود صدقة»، (رقم ١٤٥٩)، ومسلم في كتاب الزكاة، (رقم ٧٩٧).
(٦) التفصيل في زاد المسير لابن الجوزي، (ص٤٧٢).

ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا
ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣
وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ
أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ
ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ
عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ
إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا
أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ
ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾.

بيان الآيات:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ أي: وكما أنشأ جنات معروشات وغير معروشات جعل من الأنعام حمولة، والمراد بها: الإبل بما تحمله من الأثقال، ونظيره قوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: ٧].

﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾ أي: صغار الأنعام، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «فَأَمَّا الْحَمُولَةُ فَالْإِبِلُ وَالْخَيْلُ وَالْبِغَالُ

وَالْحَمِيرُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْفَرْشُ فَالْغَنَمُ»[١].

﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: كلوا من الثمرات والزروع ومن الأنعام ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: لا تتبعوا ما سنّه الشيطان لأوليائه من تحريم بعض الأطعمة واللحوم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ما زال السياق في جهل المشركين من العرب، وضلالهم في عاداتهم حين حرموا أنواعاً من الأنعام، فأبطل الله هذه العادات، وأمر المؤمنين ألا يتبعوها، وبيَّن لهم أنه أباح لهم من ﴿ٱلضَّأْنِ﴾ ومن ﴿ٱلْمَعْزِ﴾ ذكورها وإناثها ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، وهذا رد على عادتهم الباطلة، في قولهم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾.

﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمدًا: أفيدوني إن كان لديكم علم عن تحريمكم على أزواجكم ما في بطون الأنعام، وتحريمكم للبحيرة والسائبة والوصيلة.

---

(١) التفسير، (٩/ ٦٢٠).

﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ وهذا كما سبق قوله-ﷻ-في الضأن والمعز ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ أي: هل شهدتم بأعينكم أن الله وصَّاكم بما تفعلونه من تحريم ما أحلَّه لكم؟.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يفتري على الله الكذب، ويحرم ما أحلَّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين يتَّبعون أهواءهم، فيحرّمون ما أحلَّ الله طاعة لأهوائهم.

ما زال السياق في الرد على لجاج المشركين وأباطيلهم، فأمر الله نبيه محمداً-ﷺ-أن يقول لهم: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ أي: لم أجد فيما أوحاه الله إليَّ محرماً ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ أي: آكل يأكله إلا هذه الأشياء، اللهم ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ أي: ما مات دون تذكية شرعية ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ أي: مصبوباً، وليس هو ذاك الذي اختلط باللحم أو العظم ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ أي: أن لحم الخنزير نجس ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ أي: ذبح، ولم يذكر اسم الله عليه، ثم استثنى الله من تحريم هذه الأشياء بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ أي: من ألجأته

الضرورة لإنقاذ نفسه من الهلاك، كما أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «مَنْ أَكَلَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَهُوَ مُضْطَرٌّ فَلا حَرَجَ، وَمَنْ أَكَلَهُ وَهُوَ غَيْرُ مُضْطَرٍّ فَقَدْ بَغَى وَاعْتَدَى»(١).

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن الله يتجاوز عن أكله هذه المحرمات ما دام ذلك لإنقاذ نفسه وهو غير باغ ولا عاد.

أحكام وفوائد الآيات:

- اختلف بعض العلماء حول ما أبيح وما حرم من الحيوانات، وقالوا في ذلك أقوالاً عن السباع وهوام الأرض والحيات والعقارب، والذي لا جدال فيه: أن الله حرَّم الميتة أيًّا كانت موتتها، وقد فصَّل أنواعها في كتابه العزيز، وهي: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣]، كما حرم الله بنص القرآن الدم المسفوح، ولحم الخنزير، وكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وقد بيَّنت السنة أنواعاً من المحرمات، فحرَّم رسول الله -ﷺ- لحوم الحمر الأهلية(٢)،

---

(١) التفسير، (١/٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب: لحوم الحمر الإنسية، (رقم ٥٥٢١)، ومسلم في كتاب الصيد، باب: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، (رقم ٥٦١).

وكل ذي ناب من السباع[١]، وكل ذي مخلب من الطير[٢]، وكل ما جاز قتله-كالعقرب والحية والفأرة[٣] حرم أكله.

- دَلَّت الآيات على تَضارُب المشركين وتناقضهم، وهذا شأن مَنْ يركب الأهواء، ويحتكم إلى الجهل، ويُسَلِّم بالأقاويل الواهية.

- قال الفخر الرازي: «سُلِكَ في التفصيل طريق التوزيع؛ تمييزاً للأنواع المتقاربة، فإنَّ الضأن والمعز متقاربان، وكلاهما يُذبح، والإبلَ والبقرَ متقاربة، والإبلُ تُنْحَرُ، والبقر تُذبح، وتُنحر-أيضاً-»[٤].

- قال المحققون: «إذا ثبت أنَّ مَنْ افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد، فمَن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد، ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد، كان وعيدُه أشدَّ وأشقَّ»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب: أكل كل ذي ناب من السباع، (رقم ٥٣٣٠)، ومسلم في كتاب الصيد، باب: تحريم أكل ذي ناب من السباع، (رقم ١٩٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصيد، باب: تحريم أكل كل ذي مخلب من الطير، (رقم ١٩٣٤).

(٣) أخرج البخاري في كتاب جزاء الصيد، باب: ما يقتل المحرم من الدواب، (رقم ١٨٢٩)، ومسلم في كتاب الحج، باب: تحريم أكل ذي ناب من السباع، (رقم ١١٩٨)، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ-ﷺ-قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا»، وفي لفظ البخاري: «العقرب» مكان «الحية».

(٤) التحرير والتنوير، (٧/٩٦).

(٥) ينظر: التفسير الكبير للرازي، (٥/١٦٧).

- أن طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي: الكتاب والسنة.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾.

بيان الآيتين:

لما ذكر الله-تعالى-ما حرَّم على أُمة محمد-ﷺ-ذكر ما حرَّم على اليهود في قوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ أي: حرَّمنا على اليهود كل ما له ظفر من الدواب والطير، كالإبل والبط والإِوَزِّ، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «هو البعير والنعامة»[(١)].

﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: ما علق في باطنها من الشحوم، كما أخرج الطبري بسند حسن عن السدي قال: «الثرب وشحم الكليتين، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِنَّمَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ،

---

(١) التفسير، (٩/ ٦٣٩).

فَنَحْنُ نُحَرِّمُهُ»[١].

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ استثناء من التحريم، وهو ما كان على الظهر من الشحم، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «ما علق بالظهر من الشحوم»[٢].

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهي المرابض، وتشمل الأمعاء ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ أي: أحلَّ لهم ما اختلط من الشحم بالعظم ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ﴾ أي: أن السبب في هذا التحريم عليهم هو مجازاة لهم بسبب عصيانهم لما أمرناهم به من الأحكام.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ هذا بيان عن عدل الله في حكمه في اليهود ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: إن كذَّبك-يا نبينا محمدًا-اليهود والمشركون فيما تدعوهم إليه من توحيد الله، وطاعته، واتباع أحكامه ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ أي: إن رحمته واسعة للتائبين من ذنوبهم، فيرحمهم ويتوب عليهم، ويكفّر ما سبق من سيئاتهم إذا صلحوا ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أما إن استمروا على تكذيبهم فسيدخر لهم العذاب في الآخرة.

---

(١) التفسير، (٩/٦٤٢).

(٢) التفسير، (٩/٦٤٣).

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الله حرم على اليهود أنواعاً من الطيبات بسبب ذنوبهم.
- أن رحمة الله واسعة، فمن تاب إليه قبل توبته، أما من استمر على كفره وفسقه فإن بأس الله لا يرد عنه.
- رحمةُ الله بأُمَّة الإسلام؛ إذ لم يُشَدِّد عليهم كما شَدَّد على اليهود، بل خَفَّف عنهم، ويَسَّر أَمْرَهم.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ إخبار من الله لرسوله بأن كفار قريش قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾

يريدون البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، والمراد: أنهم يقولون: لو أن الله أرسل إلى آبائنا رسولاً ينهاهم عما كانوا يفعلونه لما حدث منا ما حدث؛ ذلك أنا وجدناهم على هذه الطريقة، فاتبعناهم.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: أن من كانوا قبلهم من الأُمم السابقة قالوا مثل هذا القول تبريراً لتحريمهم ما أحل الله لهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ أي: نزل بهم عذابنا جزاء فعلهم.

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمدًا: هل عندكم حجة غير ما قلتم؟؛ لأن حجتكم هذه لا تنفعكم، فالله لم يأمركم بما عملتم، وقد أعطاكم من العقل ما تفكرون به ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الكذب فيما تقولون ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ أي: تزعمون صحة حجتكم، ودليلكم هذا باطل من أساسه.

﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ يأمر الله نبيه محمداً-ﷺ-أن يقول لهم: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ أي: الدليل الذي يزيل الوهم والشك، فحجته بيّنة في أنه فاطر السماوات والأرض، وخالق الخلق أجمعين، وأنه الإلَه الحق، وأنه يهدي من يشاء، وأن ما يفعله خلقه إنما هو بمشيئته وإرادته وحكمته.

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أن من حكمته أن يبيّن للناس طريق الهدى، ويقيم عليهم الحجة بما يبينه لهم من الآيات، فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ونظيره قوله-جلَّ وعلا-: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا لهؤلاء المشركين الذين يقولون إن الله حرم عليهم الوصيلة والبحيرة: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: أقيموا وأحضروا شهداءكم ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ أي: يشهدون أن الذي حرَّمتموه كان بناء على حكم من الله أو أمر منه ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾ أي: لا تصدقهم، ولا تتبعهم؛ لأن ما يقولونه كذب وافتراء على الله.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَٰتِنَا﴾ فيه تنبيه وتحذير من الله لرسوله محمد-ﷺ-ألا يتبع أهواء المشركين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ هذا وصف للمشركين بأنهم ينكرون البعث والحساب، ويشركون مع الله غيره.

أحكام وفوائد الآيات:

- بطلان حُجة من يحتج بالقدر على فعل المعصية؛ لأن الله-جلَّ

وعلا-بيَّن لعباده على لسان رسله-وآخرهم وخاتمهم محمد-ﷺ- ما يجب عليهم من الأحكام التي تدلهم على الخير، وتنهاهم عن الشر، فمن فعل منهم الخير فقد ائتمر بما أمره الله به، ومن فعل منهم الشر فقد عصى ما أمره الله به، وكل منهم يستحق جزاءه على ما عمل، وقد بيَّن الله ذلك في قوله-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقوله-جلَّ ذكره-:﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد: ١٠].

- أن الظن والخرص لا يغني من الحق شيئاً، وأن حجة الله بالغة في أنه الإلَه الحق.
- أنه-عَزَّ وَجَلَّ-قادر على هداية الخلق أجمعين، ولكنه لم يفعل ليرى من يطيع أمره، ومن يعصيه.
- جواز الشهادة ومشروعيتها، وعدم قبول شهادة أهل الكذب.
- تحريم اتباع أهل الأهواء وأهل الباطل.
- أن تلك الوصايا الخالدة جمعت بين ترسيخ العقيدة الصحيحة، وتقرير الأحكام الشرعية، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.
- أن الآياتُ الكريمةُ تَضَمَّنت دعوةً إلى تَعَقُّلِ مقاصد الأحكام الشرعية، وتَبَصُّرِ حِكَمِها البالغة، ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحِرْصِها على صلاحِ النفسِ والمجتمعِ.

﴿۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ
شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا
تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ
أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾.

بيان الآيتين:

ما زال السياق في مجادلة المشركين، وقد أمر الله نبيه محمداً -ﷺ- أن يبيِّن لهم ما فرضه الله عليهم من الأحكام والفرائض العظيمة بقوله -عزَّ ذكره-: ﴿**قُلْ تَعَالَوْاْ**﴾ أي: أقبلوا ﴿**أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ**﴾ أي: أبيِّن لكم ما حرَّمه الله عليكم.

﴿**أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ**﴾ والمعنى: أن الشرك بالله مما حرَّمه وعظَّم تحريمه، وتوعَّد صاحبه بعدم المغفرة، ووعد بالمغفرة لما دون الشرك من الذنوب والمعاصي إن شاء، وشاهده: قوله -عزَّ ذكره-: ﴿**إِنَّ**

ﭐللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]، وفي حديث أبي ذر-رضي الله عنه-أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: «أتاني جبريل، فبشَّرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أُمتك دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟، قال: وإن زنى وإن سرق؟، قلت: وإن زنى وإن سرق؟، قال: وإن زنى وإن سرق؟، قلت: وإن زنى وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق»(١).

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًاۖ﴾ أي: وأمركم أن تبرُّوا والديكم، وتحسنوا إليهم، والبر بالوالدين والإحسان إليهم معروف من الدين بالضرورة، ففي كتاب الله قوله-عز وجل-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًاۚ﴾ [الإسراء:٢٣]، والبر بهما، والإحسان إليهما حتى لو كانا كافرين؛ لقول الله-عزَّ ذكره-: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان:١٥]، وفي السنة ما رواه ابن مسعود-رضي الله عنه-قال: سألت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: أي العمل أفضل؟، قال: «الصلاة على وقتها»، قلت:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب: الثياب البيض، (رقم ٥٨٢٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار، (رقم ٩٤).

ثم أيٌّ؟، قال: «بر الوالدين ..الحديث»[(١)].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وهذا تحذير مما كان يفعله العرب في جاهليتهم من قتل أولادهم خشية الفقر، ووَأْدِ بناتهم خشية العار، وحكم-جلَّ وعلا-أنه يرزق الآباء والأولاد، وقد تكفَّل بذلك في قوله-عزَّ من قائل-: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود:٦]، أما في السنة فما رواه ابن مسعود-رضي الله عنه-أنه سأل رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»، قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أيٌّ؟، قال: «أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك..الحديث»[(٢)].

كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «الْإِمْلَاقُ: الْفَقْرُ، قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْفَقْرِ»[(٣)].

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الفواحش: كل ما حرَّمه الله على عباده كالزنا، والخمر، ونحو ذلك من الموبقات،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها، (رقم ٥٢٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان كون الإيمان بالله-تعالى-أفضل الأعمال، (رقم ٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قول الله-تعالى-: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، (رقم ٤٤٧٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، (رقم ٨٦).

(٣) التفسير، (٩/٦٥٨).

وشاهده من كتاب الله: قوله-ﷻ-آمراً نبيه أن يبلغ أُمته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]، ومن السنة: قول رسول الله-ﷺ-: «لا أحد أغير من الله، ولذلك حرَّم الفواحش ما ظهر فيها وما بطن»(١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا نهي للتأكيد على التحريم القطعي لقتل النفس، سواء كانت مؤمنة أم معاهدة، وشاهد هذا: قول رسول الله-ﷺ-: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إلَه إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٢)، وقوله-عليه الصلاة والسلام-: «من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة»(٣).

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذه المحرمات ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أمركم وفرض عليكم.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ المراد: أن على ولي اليتيم أن يصلح أموال موليه واستثمارها لما فيه نفعه، وهذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، (رقم ٤٦٣٤)، ومسلم في كتاب التوبة، باب: غيرة الله-تعالى-، وتحريم الفواحش، (رقم ٢٧٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب قول الله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، (رقم ٦٨٧٨)، ومسلم في كتاب القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم، (رقم ١٦٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب: إثم من قتل ذمياً بغير جرم، (رقم ٦٩١٤).

يقتضي عدم جواز الاتجار فيها إلا إذا كان ذلك مظنة فائدته، كما يقتضي عدم جواز إقراضها لنفسه أو لغيره؛ لما في ذلك من احتمال فقدها ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: قوَّته في بدنه ورشده في عقله، وهذان الأمران متلازمان، فلو كان قويًّا في بدنه، ولم يرشد في عقله، فلا يجوز توليته ماله.

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: أوفوا واعدلوا عند كيلكم ووزنكم في بيعكم وتجارتكم، كما أخرج الطبري بسند حسن عن مجاهد قال: «﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل»[1]، وقد توعد الله المطففين في كيلهم ووزنهم، فقال-عزَّ ذكره-: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦].

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا تكلف إلا طاقتها، والمراد: ما يجب عند التعامل من الاحتياط، والاحتراز من تطفيف الكيل والوزن مما هو في مقدور البائع.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ أي: يجب أن يكون العدل هو غايتكم

---

(١) التفسير، (٩/ ٦٦٥).

في البيع والشراء وسائر القضايا ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ أي: لو كان الحق يترتب على ولدكم أو أقاربكم؛ لأن الحق لا يتجزَّأ، فهو واجب الأداء في أي وقت، وفي كل محل.

﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ أي: أوفوا بكل عهد عهده الله إليكم، سواء في العبادات أو المعاملات .

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ما ذكر في الآية من الحرص على مال اليتيم، والوفاء بالعدل في الكيل والوزن، والعدل في القول والعمل .

﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أمرتم به لكي تتعظوا وتمتثلوا.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تحريم الشرك بأي صفة كان.
- وجوب بر الوالدين.
- تحريم قتل الولد خشية الفقر والعوز، ويشمل ذلك-كما ذكر سابقاً-تحديد النسل إذا كان المراد منه الخشية من الفقر.
- تحريم الفواحش العلنية والخفية كالزنا والخمر.
- تحريم قتل النفس إلا بالحق الذي بينه الله في كتابه، وبينه رسوله محمد-ﷺ-في سنته.

- وجوب التصرف بالحسنى في أموال الأيتام، والعدل في الكيل والوزن.

- وجوب العدل والوفاء بالعهد.

- ذكر -سبحانه- أولاً: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، ثم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ثم ﴿تَتَّقُون﴾؛ لأنَّهم إذا تعقَّلُوا تذكَّرُوا، فاتَّقَوا محارمَ الله.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ هذه الآية من أُمهات الآيات وأعظمها؛ لما فيها من الأمر باتباع طريق الإسلام الذي هو دين الحق، وخاتم الأديان وأفضلها، وهو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه يهدي إلى الحق ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ أي: الزموه، ولا تحيدوا عنه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ توكيد للالتزام بعدم الميل عنه، وشاهده: ما رواه عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: «خط لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً خطًّا، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطًا عن يمينه، وخطوطًا عن يساره، ثم قال: «هذه سُبُلٌ، على كل

سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ هذه الآية»[١].

وقيل: إن المراد بالسبل: اليهودية والنصرانية وأي ملة غير ملة الإسلام[٢].

وقيل: المراد بقوله: ﴿تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: البدع؛ وشاهده: ما رواه العرباض بن سارية-رضي الله عنه-قال: «وعظنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودّع، فما تعهد إلينا؟، فقال: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وعليكم بالطاعة..الحديث»[٣].

نعم! كان خلفاء الأُمة أحرص ما يكونون على اتباع صراط الله

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، (١٠/٩٥)، (رقم ١١١٠٩)، والإمام أحمد في المسند (٧/٢٠٧)، (رقم ٤١٤٢)، والحاكم في المستدرك، (٢/٢٦١)، (رقم ٢٩٣٨)، وابن حبان في صحيحه، (الإحسان رقم ٦)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني كما في صحيح سنن النسائي.

(٢) تفسير البغوي، (ص٤٥١)، وزاد المسير لابن الجوزي، (ص٤٧٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: في لزوم السنة، (رقم ٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، (رقم ٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين، (رقم ٤٣)، واللفظ له، وصححه الترمذي والألباني.

المستقيم، سواء ما مناطه سلوكهم أنفسهم، المتمثل في الحرص على تقوى الله، والتمسك بشرعه، والبعد عن الأهواء، ومظان الفتن والبدع، أو فيما يدعون إليه.

وفي هذا ذكر سفيان بن عيينة أن رجلاً كتب إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب إليه: «أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسول الله -ﷺ-، وترك ما أحدث المحدثون بعدما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها؛ فإن السنة إنما سَنَّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفُّوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم: إن ما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى

هدى مستقيم»[١].

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: الأمر باتباع الصراط المستقيم ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: أمركم به ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتفكَّرون وتتَّعظون.

أحكام وفوائد الآية:

- أن صراط الله مستقيم، لا عوج فيه؛ لأنه حكم حكم به؛ فلا حكم إلا له قال -تعالى-: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].
- الأمر باتباع هذا الصراط، والأمر يقتضي الوجوب والتكليف.
- تحريم اتباع أي سبيل غير سبيل الإسلام.
- أن هذا توصية من الله لعباده، وهذه تعني تكليفهم وإلزامهم بما أمرهم به.
- في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ لَمَّا كانت المحرمات الأُوَلُ لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله، جاءت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، ولما كانت المحرمات الأُخَرُ شهواتٍ، وقد يقع فيها من العقلاء مَنْ لم يَتَذَكَّر، قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، ولما كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فِعْلَ الفضائل، وتلك درجة التقوى، قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: لزوم السنة، (رقم ٤٦١٢)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

تَتَّقُونَ ﴾[1].

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا
لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟
إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ
لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ
ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

بيان الآيات:

لما ذكر الله-تعالى-ما حرَّمه على عباده من الشرك، وما أمر به من البر بالوالدين، وسائر الأوامر الأخرى في الآيات السابقة، عطف على ما أعطاه موسى من البيّنات، وهي التوراة؛ ذلك أن بني إسرائيل كانوا عصاة معاندين له، جاحدين لآيات الله، ومنكرين لبعثة رسول الله محمد-ﷺ-، فيذكرهم الله بما سبق أن دعاهم إليه أنبياؤهم،

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية، (٥/ ٤٠٠).

وبالأخص موسى-عليه السلام-، فقال-عزَّ ذكره-: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة.

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: تماماً على الذي أحسنه الله إلى موسى من الرسالة، وإنزال التوراة عليه ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: تفصيلاً للأحكام التي كان يحتاجها قومه بنو إسرائيل ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ لهم إذا اتبعوا ما جاء فيها.

﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعلَّهم يؤمنون بما أنزل إليهم، ويتوبون إلى الله من خطيئاتهم، ويتركون مفاسدهم وشرورهم وفتنهم.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ المراد به: القرآن الكريم ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: أنزله الله العظيم هدى ورحمة للعالمين؛ لما فيه من بركة الله فيه ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: اتَّبعوا ما فيه من الأحكام، كما أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ وهو القرآن الذي أنزله الله على محمد-صلى الله عليه وسلم-، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يقول: فاتّبعوا حلاله، وحرّموا حرامه»[1].

(١) التفسير، (١٠/٥).

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ أي: اتقوا مخالفته ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي: يرحمكم الله بسبب اتباعه وعدم مخالفته.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ أي: لكي لا تقولوا أيها المشركون ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ أي: التوراة والإنجيل على الطائفتين: اليهود والنصارى، ولم ينزل علينا كتاب نقرؤه ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: إن ذلك الكتاب أنزل عليهم، ونحن لا نعرف لغتهم.

﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ أي: وقد أنزلنا هذا القرآن لكي لا تقولوا: لو أنه أنزل علينا مثل ما أنزل عليهم من الكتاب لَكُنَّا أفضل منهم، وأقرب للهداية، ولهذا لا عذر لكم بعد ذلك.

﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو القرآن الذي أنزل على محمد-ﷺ-، يبيّن لكم الحلال والحرام، وينهاكم عن الشرك والكفر، وعن الفحشاء، ويدلكم على الخير، ويجنبكم الشر ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ﴾ إن عملتم بما فيه.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ أي: لا أحد أظلم منكم إن كذَّبتم بما جاءكم به القرآن من البينات، وأعرضتم

عنها، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ يقول: أعرض عنها»(١).

﴿ سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ أي: سنعاقب الذين يتولَّون، ويعرضون عن آياتنا بأشد العذاب جزاء إعراضهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير نعم الله على موسى -عليه السلام- بما أعطاه من النبوة والكتاب هدى ورحمة للذين يتبعون ما فيه، والمراد بهم: بنو إسرائيل في زمانهم.
- أن الله -عز وجل- أنزل القرآن مباركاً، وجعله رحمة للعالمين، وأوجب عليهم الإيمان به، واتباع أحكامه، وعدم مخالفته، وبذلك لم يعد لأحد حجة في عدم الإيمان.
- أن عِلْمَ القرآن أجَلُّ العلوم وأبركها وأوسعها، وبه تَحْصُل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يُحتاج معها إلى تخرص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين(٢).
- تقرير العذاب للذين يكذبون بآيات الله، ويعرضون عنها.

(١) التفسير، (١٠/١١).
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي، (ص٢٨٠).

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ
بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا
إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ
ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾.

بيان الآية:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ استفهام إنكاري، المراد به المشركون والكافرون، حيث جاءتهم البينات، وأقيمت عليهم الحجة، فماذا ينتظرون؟

﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: أمره بعذابهم

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ أي: يأتيهم أمارة من أمارات الساعة، كطلوع الشمس من مغربها، أو خروج الدجال، فحينئذٍ ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ والمراد: أنه إذا قامت الساعة فلا قيمة لإيمانهم حينذاك، وفي ذلك روى أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «ثلاث إذا خرجنَ لا ينفع نفساً إيمانها من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من

مغربها، والدجال، ودابة الأرض»[(١)].

﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ أي: لا يقبل منها عمل صالح، ولا حسنة من الحسنات إذا لم يكن صاحبها قد فعل ذلك من قبل حدوث أمارة من أمارات الساعة.

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ في هذا تهديد للمشركين والكافرين الذين يتولَّون عن آيات الله وأحكامه، وينتظرون وقت قيام الساعة، وشاهده قوله-ﷻ-: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ [محمد:١٨].

أحكام وفوائد الآية:

- تقرير قيام ملك الموت وأعوانه بقبض أرواح الخلق.
- التحذير من إتيان أمارات الساعة أو إحداها، كطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، والدابة، فإذا خرجت هذه الأمارات أو إحداها فلن يقبل من أحد توبة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، (رقم ١٥٨).

بيان الآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ المراد بهم: اليهود والنصارى في اختلافهم على أنبيائهم[1]، وشاهده: قول الله -تعالى-: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤] والمعنى عام في كل من ابتدع فرقة، أو ملة، أو نحلة، أو اتخذ طريقاً أو مسلكاً يخالف ما أمر الله به، أو أمر به رسوله، كحال الفرق والملل والنحل التي ابتدعت لها أحكاماً وسنناً غير أحكام الله وسننه، كما هو الحال في الفرق السابقة، مثل: القدرية، والمرجئة، والمشبهة، والمعطلة، ونحوها، وكما هو الحال في الفرق المعاصرة، كالقاديانية والبهائية، ونحو ذلك من الفرق المنحرفة.

﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ أي: أنت يا نبينا محمدًا! بريء منهم، وشاهده: قول رسول الله -ﷺ- كما أشير إليه من قبل-: «أنا فرطكم على الحوض، ليرفعن رجال منكم إليَّ، ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا رب! أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[2].

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: هو الذي سيتولى محاسبتهم

(١) زاد المسير لابن الجوزي، (ص٤٨٠)، وتفسير البغوي، (ص٤٥٣)، والدر المنثور، (٣/١١٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: في الحوض، (رقم ٦٥٧٦)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا -ﷺ- وصفاته، (رقم ٢٢٩٧).

وعقابهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: أنهم سيجدون ما عملوه بيناً واضحاً لهم يوم القيامة، فلا تحزن عليهم، وفي هذا تسلية لرسول الله-ﷺ-.

أحكام وفوائد الآية:

- تحريم التفرق في الدين، ويشمل ذلك الفرق والملل والنحل التي تحيد عن الطريق الذي رسمه الله لعباده في كتابه، وعلى لسان رسوله محمد-ﷺ-، كما يشمل هذا الحكم أصحاب البدع والأهواء الذين يضعون أحكاماً، أو يسنون سنناً خلاف أحكام الله وسننه.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

بيان الآية:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: من أتى بحسنة كالصدقة على المساكين، وكفالة اليتيم، ومساعدة المحتاجين ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ﴾ أي: فله عشر حسنات، وفي هذا روى ابن عباس-رضي الله عنهما-أن رسول الله-ﷺ-قال فيما يرويه عن ربه-تبارك وتعالى-: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة، فلم يعملها كتبها

الله عنده كاملة، وإن همَّ بها كتبها الله-ﷻ-عنده عشر حسنات، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة، فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها، فعملها كتبها الله سيئة واحدة، ومحاها الله-ﷻ-، ولا يهلك على الله إلا هالك»(١) ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: إن الله-عزَّ ذكره-لا ينقص من أحد شيئاً مما عمل.

أحكام وفوائد الآية:

- كثرة نعم الله وفضله على عباده بمضاعفة حسناتهم إلى سبعمئة ضعف، كما قال-ﷻ-: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، كما أن من نعمه ومنَّته على خلقه عدم مضاعفة سيئاتهم، بل تجاوزه عنها إذا تابوا منها، وتحولها إلى حسنات، كما قال-ﷻ-: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].
- أن الله لا يظلم أحداً من خلقه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: من هم بحسنة أو سيئة، (رقم ٦٤٩١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، (رقم ١٣١)، واللفظ له.

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ
إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي
وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ
وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ
وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا! للمشركين وغيرهم: إن ربي وفقني إلى صراطه المستقيم، ثم بيَّنه-عَزَّوَجَلَّ-في قوله: ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ أي: قائماً ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ قال الإمام ابن كثير: «وليس يلزم من كونه-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أُمِر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه-عَلَيْهِ السَّلَامُ-قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تامًّا، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل-عَلَيْهِ السَّلَامُ-»(١).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ١٨٩).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: ديني، والمراد بالنسك هنا كل الطاعات وأعمال الخير ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: إن حياتي وموتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ أي: لا ند، ولا نظير، ولا مثيل ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: أمرني ربي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأُمة، كما ثبت عن قتادة في تفسير عبد الرزاق، وقد روى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك، لا إلَه إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك، وأتوب إليك»(١).

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في هذا رد على الكفار الذين قالوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: اترك دينك يا محمد!، والزم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (رقم ٧٧١).

دينَنا، وسنتكفل بكل ما تطلب منا، فأنزل الله هذه الآية توبيخاً لهم[١].

والمعنى: كيف أبتغي ربّاً، وربي هو مالك كل شيء ومصرفه، وهو القادر والقاهر فوق عباده؟.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي: إن كل نفس لا تحاسب إلا على ما عملته يوم القيامة، وهذا هو عدل الله في خلقه، فأنتم أيها الكفار! سوف تجزون بابتغائكم ربّاً غير الله، ونحن سنجزى على اعتقادنا بأن الله هو ربنا وخالقنا ومصرفنا، لا نعبد إلا إياه، ولا نتوجه إلا إليه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: إنَّ كل نفس لا تحاسب إلا على عملها هي، فلا تحمل عبء نفس أخرى، وهذا من عدل الله في خلقه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي: إليه معادكم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سوف تجدون ما عملتم، ونجد ما عملنا يوم القيامة، وما كنا نختلف فيه في الدنيا فيحكم الله بيننا فيه.

(١) تفسير البغوي، (ص٤٥٤)، وزاد المسير لابن الجوزي، (ص٤٨١).

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير هداية الله لنبيه ورسوله محمد -ﷺ- لملة إبراهيم، وهي الإسلام.
- استحباب قول المسلم إذا قام للصلاة: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين؛ اتباعاً لما كان يفعله رسول الله -ﷺ- عند قيامه للصلاة[١].
- أنه لا رب للخلق إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ-، مالك السماوات والأرض ومن فيهنَّ، وما بينهما.
- أن النفس لا تطالب إلا بجريرتها هي، عملاً بقول الله -جلَّ ذكره-: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]، وهذا إبطال لاعتقاد أهل الجاهلية بأن الرجل يؤاخذ بابنه، وبأبيه، وبجريرة حليفه، ولما وفد أبو رمثة رفاعة التميمي مع ابنه على رسول الله -ﷺ- قال: «ابنك هذا»؟، قال: إي ورب الكعبة، قال: «حقًّا»؟، قال: أشهد به، فتبسم رسول الله -ﷺ- ضاحكاً من ثبت شبهي في أبي، ومن حلف

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (رقم ٧٧١).

أبي عليٍّ، قال: «أما إنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه»[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم بعد الأُمم قبلكم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ المراد به: التفاوت بينكم في الخلق، والرزق، والغنى، والفقر، وغير ذلك مما يتفاوت به الخلائق في حياتهم ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ ليختبركم فيرى ما إذا كنتم تشكرونه على فضله أو تكفرون به، وما إذا كنتم تحمدونه على السراء أو الضراء ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: يعجل بالعقوبة لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ أي: يغفر ويرحم من أطاعه، وأناب إليه.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الديات، باب: لا يؤخذ أحد بجريرة أخيه أو أبيه، (رقم ٤٤٩٥)، والنسائي في كتاب القسامة، باب: هل يؤخذ أحد بجريرة غيره؟، (رقم ٤٨٣٢)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

أحكام وفوائد الآية:

- تقرير مراحل الخلق، حيث تموت أجيال، ويأتي بعدهم آخرون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
- التباين بين الخلق في الغنى والفقر، وفي الصحة والمرض، وفي الإيمان والكفر، وفي مظاهر الحياة؛ ليعلم الله-وهو العليم بما كان، وما سيكون لو كان كيف يكون؟-من الذي يشكر؟، ومن الذي يكفر منهم؟.
- أن من مقتضيات الاستخلاف في الأرض: المحافظة على ثرواتها وكنوزها وخيراتها، والسعي إلى إصلاحها، والنهوض بها وبأهلها، واتباع منهج الله-تعالى-، فهو-تعالى-خالق هذا الكون.
- حكمة الله-تعالى-في التفاوت بين خَلْقِه، ورَفْعِ بعضِهم على بعضٍ درجات؛ وذلك لتبادل المنافع، واكتمال منظومة الحياة، وتحقيق التعاون بين الناس، وتبادُل الخدمات فيما بينهم.
- أنه إذا كان الله-تعالى-قد بَيَّنَ في أول السورة مُلْكَه للسماوات والأرض، فقد أعلن في ختامها أنه استخلف الإنسان على الأرض بما هيَّأ له من مَلَكَاتٍ وطاقاتٍ، تُعينُه على القيام بهذه المهمة الجليلة الشأن التي لن تَتِمَّ إلا بمنطلق إيماني، ومنهجٍ رباني، وضمن ذلك تمضي موضوعات السورة الكريمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

مكية، وآياتها خمسٌ ومائتا آية

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن
رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

بيان الآيات:

﴿الٓمٓصٓ﴾ الله أعلم بمراده.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: هذا الكتاب القرآن أُنزل إليك من عند الله ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الحرج: الضيق، والمراد: أن هذا الكتاب الذي أنزله الله إليك إنما أنزل لتنذر به قومك، فلا يكن في نفسك ضيق إذا لم يؤمنوا به، ونظيره قوله-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧]، والمراد: إنما أنت مبلغ كما قال-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لما وصفه الله-عَزَّوَجَلَّ-بأنه لإنذار القوم الكافرين وصفه بأنه ذكرى للمؤمنين الذين آمنوا به، وصدقوه، فيكون

في ذكره لهم موعظة دائمة، وثبات لهم على الإيمان بالله.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ هذا أمر من الله لنبيه محمد-ﷺ-أن يقول لهم: اتبعوا كتاب الله الذي أنزل إليكم، هدى ورحمة لكم، واتبعوا سنة نبيه ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ أي: لا تعبدوا مع الله غيره، فإن ذلك شرك، وعذابه عظيم ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنكم بشرككم تتركون دين الله الذي ارتضاه لكم-وهو الدين الحق-، وتتبعون غيره مما هو باطل.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن المخاطب بقول الله-تعالى-: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾ هو رسول الله-ﷺ-، والمراد به غيره، فالحرج هو الشك، ورسول الله-ﷺ-قد ملأ الله قلبه بالإيمان، فلا يمكن أن يشك فيما أنزل الله إليه، ولما كان القرآن لم يكن مكلفاً به رسول الله-ﷺ-وحده، بل هو لكل من آمن به، ولما تتعرض له النفس من الوساوس الشيطانية، وما قد يخالجها من الريب في القرآن، خاطب الله المسلم من خلال الرسول الذي أرسل إليه، وهو محمد-ﷺ-.
- تعظيم القرآن الكريم، وتعظيم مُنَزِّله-جلَّ وعلا-، وبيان أنه نزل تثبيتاً لقلب النبي-ﷺ-، وتسلية لقلبه، وشَرْحًا لصدره.

- وجوب اتباع ما نزل به القرآن، وذلك بتحليل ما أحلَّه، وتحريم ما حرَّمه، والامتثال لما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وهذا يقتضي حكماً الإيمانَ بألفاظه ومعانيه، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، والحكم ببطلان كل اتباع لغيره من الكتب، سواء كان هذا في العبادات أم المعاملات، ومن زعم أن غيره من الكتب أفضل منه فقد كفر.

- أن الإعراض عن منهج الله، واتباع مناهج أهل الكفر والضلال من قلة التعقّل والتذكّر.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤
فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥
فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ
عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

بيان الآيات:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ للتكثير، أي: وكثير من القرى-والمراد به أهلها ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بسبب تكذيب أهلها للرسل الذين جاؤوهم بالبينات ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ أي: جاءها العذاب والهلاك وأهلها نائمون.

﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ أي: جاءهم الهلاك والعذاب وهم في قيلولتهم، والمراد به: استراحتهم أثناء النهار، كما قال-تعالى-: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: ما كان لهم من عذر في ضلالهم وشركهم لما جاءهم العذاب إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين

﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: سوف نسأل رسلنا عما بلغوه لهم كقوله-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ [المائدة:١٠٩].

﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: الملائكة الذين يكتبون أعمالهم، كما قال-تعالى-: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾ [الانفطار:١٠-١١]. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ﴾ أي: سوف يعرفون ما كتب عليهم من عملهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي: شهدنا على أعمالهم وأفعالهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب الاتعاظ والاعتبار بما حلَّ بالأُمم الماضية ممن هلكوا بسبب

كفرهم، مثل: قوم نوح، وعاد، وهود، وصالح.

- عدم قبول العذر إذا حلَّ العذاب.
- تقرير سؤال الله لرسله عن بلاغهم لأُممهم.
- مصيبة الظلم وشؤمه، فهو من أسباب الهلاك والتدمير.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ المراد: أن العبرة بوزن الأعمال يوم القيامة؛ لأن ذلك هو العدل الذي يريده الله، فلا يظلم أحداً بما لم يعمل، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، وقوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من ثقلت موازينه بالأعمال الصالحة فقد أفلح في آخرته، ونجا من العذاب ﴿وَمَنْ

خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي: من خفت موازينه لكثرة ما فيها من السيئات، وقلة الحسنات فقد خسر نفسه بما سيناله من العذاب.

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ أي: بما كانوا يكذبون بما جاءهم من البينات.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الأعمال توزن يوم القيامة، حيث يحولها الله إلى أجسام، كما توزن محالها وأصحابها؛ لحديث أبي هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»، وقال: «اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ » [الكهف:١٠٥][(١)].

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾، (رقم ٤٧٢٩)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، (رقم ٢٧٨٥).

مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا
يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ
أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ
أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المخاطب جميع الخلق، أي: جعلنا لكم قراراً في الأرض بما فيها من الرواسي، والجبال، والأنهار، كما قال-تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ﴾ أي: هيَّأنا لكم فيها أسباب العيش، والحصول على النعم، بما فيها من المطاعم، والمشارب، والمساكن.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: إنكم مع هذا ما تشكرون الله على هذه النعم، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ لما بيَّن الله ما أنعم به على خلقه، وما يجب أن يكونوا عليه من الإيمان به والتذكر والشكر له-ﷻ-، بيَّن عظمته في خلق الخلق بقوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم، فتناسلتم من بعده ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ أي: خلقناكم نطفاً صغيرة، ثم صورناكم على صوركم الحسنة، كما قال-ﷻ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾ [الانفطار:٦-٨].

﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ﴾ أي: قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم؛ ذلك أن الله-ﷻ-لما خلق آدم من طين لازب، ثم صوره بشراً، ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة أن يسجدوا له، ليس اختصاصاً له بالسجود؛ لأن ذلك لا يكون إلا لله، وإنما الأمر بالسجود تعظيم لله الذي خلقه وصوَّره، وقد استجاب الملائكة لأمر ربهم، إلا إبليس فقد عصى، فلم يكن من الساجدين.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ أي: قال الله له: ما الذي جعلك لا تسجد لآدم وقد أمرتك بالسجود له، كما هو الحال بالنسبة للملائكة؟، فقال إبليس-عليه اللعنة-: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ أي: أنا خير من هذا الذي أمرتني بالسجود له، والسبب في زعمه-لعنه الله-قوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ

﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أي: أن النار أفضل من الطين، فالنار جوهر يضيء، والطين غير ذلك، وهذا خطأ منه في تقديره وتفسيره للأشياء، فكان ذلك سبب كفره وشقاوته.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ كان جزاوءه على كفره وشقاوته أن قال الله له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: انزل من السماء، أو من الجنة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: أن تتعالى، وتعدو قدرك؛ لأنك شرير، وأهلها ملائكة متواضعون، يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض.

﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: من الأذلاء الحقيرين الذين لا يستحقون منزلة الملائكة ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: أمهلني إلى يوم البعث والحساب، فأجابه الله-عَزَّ وَجَلَّ-بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي: تبقى حيًّا إلى يوم يبعث الله الخلق، وهذا لحكمة أرادها، وقضاء قضاه؛ لما له-عَزَّ وَجَلَّ-من الحكمة والإرادة والمشيئة في خلقه.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ لما قال الله لإبليس: إنك لمن المنتظرين إلى يوم البعث قال: فبما أضللتني ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: لأقعدنّ لغواية الخلق الذين أضللتني بسبب عدم السجود لأبيهم، وسوف أعمل على إضلالهم، وغوايتهم، وإبعادهم، وصدهم عن الصراط المستقيم، حتى يهلكوا كما هلكت.

﴿ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: سوف أفسد عليهم دنياهم ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أي: أفسد عليهم آخرته ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: أشككهم في دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أي: أرغبهم في اتباع شهواتهم، والمعنى: أني سوف أعمل على إضلالهم من كل جهة ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ أي: حتى تجد أكثرهم غير مطيعين ولا شاكرين.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ القائل هو الله-عَزَّوَجَلَّ-لإبليس، أي: اخرج من الملأ الأعلى ﴿مَذۡءُومٗا﴾ أي: محتقراً مخزيًّا ﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾ أي: صاغراً مطروداً، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: «منفياً، مطروداً»(١).

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ اللام للقسم، أي: إن من اتبعك منهم سوف أملأ جهنم منه، كما قال-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ [الإسراء:٦٣]، والشيطان لا يُغوي إلا من اتَّبعه، وصدَّق ما يزيّنه له من الشهوات والمعاصي، أما المؤمنون فلا تضرهم غواية إبليس ولا وسوسته، كما قال-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

---

(١) التفسير، (١٢/٣٤٣).

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير تمكين الله لخلقه في الأرض، وتيسير أرزاقهم وحياتهم، ووجوب شكرهم له على ما أنعم به عليهم.
- تقرير خلق الله لأبي الخلق آدم، وتصويره على أحسن الصور، ونسلهم منه.
- تقرير استكبار إبليس عن السجود له على وجه التعظيم، لا على وجه العبادة.
- أن مفاضلة إبليس بين النار التي خلق منها وبين التراب الذي خلق منه آدم مفاضلة فاسدة؛ فالتراب في كل الأحوال أفضل من النار، فقد اختاره الله ليخلق منه آدم وذريته، وما كان -عَزَّ وَجَلَّ- ليختاره إلا لأن فيه رحمة ونفعًا لمن خلقوا منه.
- أن الكِبْرَ والعُجْبَ بالنفس، والاعتداد بالرأي، والحسد من أسباب غَواية إبليس وشقائه، قاس إبليس فأخطأ، وقَدَّم رأيه على أمر الله له، وأصرَّ على ذنبه، وتمادى في غَيِّه.
- التحذير من خطر إبليس وأعوانه على بني آدم؛ مما يوجب عليهم عصيانه فيما يأمر به، أو يوسوس به؛ كما قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لما حدث لإبليس ما حدث من الطرد واللعن قال الله لآدم وزوجته حواء: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أي: أقيما في الجنة، وكلا من كل الثمرات فيها.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وهي الشجرة التي حرَّمها الله عليهما لحكمته ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن أكلتما منها فستكونان ظالمين.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لما علم إبليس بما خصَّ الله به آدم وزوجته، وأكرمهما بالسكن في الجنة، سعى إبليس لخديعة آدم لإخراجه منها.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ وكان عليهما نور لا يرى أحد منه عورتهما، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: ما كان ربكما لينهاكما

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ هنا، فلو أكلتما منها لحصل لكما ميزة الملائكة، والخلود في الجنة.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: حلف لهما بأنه ما قصد إلا النصح والمحبة لهما؛ لأنه خلق قبلهما، ويعرف أكثر منهما.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ أي: غرَّهما بنصحه ويمينه لهما.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: لما أكلا من الشجرة انحسر النور الذي كان يستر عورتهما، كما أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة في قَوْلِهِ-تَعَالَى-: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قَال: «كَانَا لَا يَرَيَانِ سَوْآتِهِمَا، قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ! أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ فَاسْتَغْفَرْتُ؟، قَالَ: إِذًا أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، وَأَمَّا إِبْلِيسُ فَلَمْ يَسْتَغْفِرْ، وَإِنَّمَا

سَأَلَ النَّظِرَةَ، فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الَّذِي سَأَلَ»[١].

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي: يقطعان ورق الشجر؛ ليسترا عورتهما ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: ألم أحذركما منها بعد أن حرمتها عليكما، فلماذا عصيتماني، وأطعتما إبليس؟، وقد قلت لكما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٞ مُّبِينٞ﴾ فلا تطيعوه.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنّ الله حين يأمر أحداً من خلقه بأمر، أو ينهاه عن نهي إنما هو لمصلحة هذا الخلق؛ لأنه -عَزَّ وَجَلَّ- أعلم بما هو أنفع له.
- أنّ عمل إبليس هو الإغواء والوسوسة.
- أن نصح إبليس لبني آدم إنما هو كذب وغرور، الهدف منه إيقاعهم في الخطيئة.
- أن كشف العورات وإبداء السوءات كان هو أولَ أهداف الشيطان الخبيثة، وفي هذا تحذير من ذلك، ودعوة للحياء والستر، وأنَّ وساوس الشيطان لا تجلب لِـمَنْ يستجيب لها إلا الشرَّ.
- وجوب ستر العورة في الصلاة وفي غيرها.

---

(١) التفسير، (٢/ ٧٥).

- إيثار التعبير بـ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ لبيان أنَّ وسوسة إبليس واستجابتهما له هبطت بهما من الرتبة العالية.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ أي: قال آدم وزوجته: لقد أخطأنا وظلمنا أنفسنا بسماع نصيحة إبليس ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: تتجاوز عن خطيئتنا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ أي: لا تؤاخذنا بما فعلنا

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: ستكون خسارتنا عظيمة، وهذه هي الكلمات التي علَّمها الله-عز وجل-آدم ليقولها بعد ما حدث له من خديعة إبليس كما قال-عز وجل-: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ أي: انزلوا من الملأ الأعلى إلى الأرض، والمراد به آدم وزوجته وإبليس، كما قال-عز وجل-: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾

[البقرة: ٣٨].

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ أي: أصبحتم أعداء إلى يوم البعث، وقد انتقلت هذه العداوة من آدم إلى ذريته.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: أصبح لكم بعد هبوطكم الأرض استقرار ومتاع فيها إلى أجل معلوم، حكم الله به، وقدَّره ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾ أي: تعيشون مدة معلومة ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ أي: يحل بكم الموت فيها.

﴿وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ أي: بعد قيام الساعة، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير تعليم الله لآدم وزوجته أن يستغفرا من خطيئتهما بكلمات تعلماها، فتاب الله عليهما، وهي قول الله-عزَّ ذكره-على لسانيهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾.

- **وجوب الاستغفار من الذنوب والخطايا؛ فمن استغفر الله من ذنوبه تاب عليه، وغفر له، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَن**

يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠].

- أن المرأة شريك للرجل في التكليف والمسؤولية والجزاء، وفي القصة مَنْقَبَةٌ لحواء، فقد تابت مع آدم.

- سوء عاقبة المعصية؛ فعدم تعظيم إبليس لآدم بالسجود كان السبب في لعنه وطرده من رحمة الله، وكان تصديق آدم له السبب في إخراجه من الجنة، وهبوطه وهبوط زوجته منها إلى الأرض.

- أن الإنسان يحيا في الأرض، ويموت فيها إلى أن يبعثه الله يوم ينفخ في الصور.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾.

بيان الآيتين:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ في

هذا امتنان من الله على خلقه فيما هيَّأه لهم من اللباس الذي يواري سوءاتهم، أي: يسترها ﴿وَرِيشًاۖ﴾ أي: ثيابًا فاخرة للزينة ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾ أي: إن لباس التقوى هو الخير؛ لأن لباس الدنيا زائل، أما لباس التقوى فهو لباس الآخرة، وهو خير من لباس الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: إن ما هيَّأه الله ويسَّره لخلقه من اللباس هو من آيات الله الدالة على صنعه، فلعلَّ العباد يتذكرون النعم التي أنعم الله بها عليهم.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ النداء لبني آدم، ينهاهم الله فيه عن فتنة الشيطان لهم بما يوسوس به في نفوسهم، وما يسوله لهم من فعل المعاصي .

﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ﴾ أي: يفعل بكم مثلما فعل بأبيكم آدم وأُمكم حواء، حين أغراهما بنزع لباسهما؛ لكي تنكشف سوءاتهما.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ﴾ أي: إنكم لا ترون الشيطان وأعوانه وجنده من الجن، ولكنه يراكم هو وأعوانه،

كما في الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[(١)].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الشياطين هم مصدر الشر للإنسان، وهم لا يقدرون على المؤمنين، وليس لهم عليهم من سلطان، ولكنهم أولياء للذين يبيعون دينهم بدنياهم، ففقدوا الإيمان بالله وبما جاء به نبيه ورسوله محمد-ﷺ-.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير نعم الله على خلقه، وتكريمه لهم بما جعل لهم من اللباس الذي يسترون به عوراتهم.
- أنّ خير اللباس لباس التقوى والإيمان؛ لأن هذا اللباس هو الباقي.
- أنه جاء التعبير بقوله-تعالى-: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لأنَّ التقوى صيانةٌ وسترٌ وزينةٌ وتجمُّل، كما الثياب، وهي خيرٌ من كل مظاهر التجمُّل والتزيين؛ فإنَّ صيانة الباطن وجماله مقدمٌ على جمال الظاهر.
- أن السَّتر والاحتشام نعمة من نِعَمِ الله-تعالى-، وبرهان على الإيمان والتقوى، ودليل على الطهر والعفاف، وعنوان للفضيلة والكرامة،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب: الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء، أو قبل ذلك للخصم، (رقم ٧١٧١).

بينما العُرْيُ والتبذُّل من إغواء الشياطين ومكايدهم، وهو مظهر من مظاهر الجاهلية والشرك، وفيه امتهان للمرأة.

- التحذير من إغواء الشيطان وإضلاله، حيث إنه يرى الإنسان، وهو لا يراه.
- أن الشياطين يوالون ويحبون الذين لا يؤمنون بالله.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ الأمر يهم أهل الجاهلية من المشركين، أي: إذا فعلوا فعلاً قبيحاً، كطوافهم في الجاهلية وهم عراة ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ أي: إننا نفعل كما كان آباؤنا يفعلون ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ أي: إنه لم يَنْهَنا عنها.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: قل لهم يا نبينا محمدًا!: إنه-جلَّ وعلا-لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالأخلاق الحسنة، وكل أفعال الخير، وإن ما قالوه كذب وافتراء على الله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تنسبون إلى الله ما لا علم لكم به ولا بصحته؟.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: أمر بالعدل ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: قوموا بعبادته وطاعته، كما أمركم،

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: توجَّهوا له وحده بالدعاء أن يثبتكم على دينه، والإخلاص له في عبادته.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: أنه كما بدأكم في الخلق سوف تعودون إليه، فأخلصوا له العبادة ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ أي: الذين آمنوا، واستسلموا لله، وأخلصوا له العبادة

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: علم الله أنهم لا يؤمنون بما جاءهم من البينات، ولا يهتدون بما جاءهم به رسول الله-ﷺ-.

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنهم استسلموا للشياطين، وجعلوهم أولياء من دون الله، يأتمرون بما

يأمرونهم به، وينتهون عما ينهونهم عنه، وفي هذا دلالة على أن الله لم يضلَّهم إلا بسبب توليهم للشياطين

﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: مع ضلالهم واتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله يظنون أنهم مؤمنون بالله، وهذا دليل على جهلهم، وضلالهم، وفساد عقولهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- فساد تقليد ما يفعله الناس مما هو مخالف لأوامر الله، كما قال -تعالى- في ذم المتبعين لآبائهم، وهم على ضلال: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].
- تنزيه الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن الأمر بالفواحش، فتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.
- أنه في قوله -تعالى-: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عُدِّي الفعل بـ(على) دون (عن) لتضمينه معنى: أتكذبون؟، أو تتقوَّلون؟.
- وجوب العدل؛ لأن الله أمر به، كما قال -عزَّ ذكره-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل:٩٠].
- وجوب دعاء الله، وأن يكون ذلك بإخلاص وصدق.
- أن الله يهدي الذين يؤمنون به، ويستسلمون له، ويضل الذين

يتبعون الشياطين، ويتخذونهم أولياء من دونه.

﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾.

بيان الآية:

لما ذكر الله-ﷻ-خديعة إبليس لآدم وزوجته بنصحهما بالأكل من الشجرة، وما أدى إليه أكلهما منها من انكشاف عورتهما، وما ذكره عن تقليد أهل الجاهلية لأسلافهم في فعل الفاحشة-كالطواف بالبيت عراة-، أمر-تعالى-الناس بستر عوراتهم، فقال-ﷻ-: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ أي: ثيابكم أو رياشكم.

﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أي: كلما صليتم، أو طفتم بالبيت، وفي هذا رد على من كانوا يطوفون عراة بحجة أنهم لا يريدون عبادة الله في ثياب أذنبوا فيها، وقد استمر أهل الجاهلية في صنيعهم هذا إلى أن بعث الله رسوله محمداً-ﷺ-، وأنزل عليه هذه الآية، فأمر بلالاً أن يؤذن في الناس: «ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب: «لا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج مشرك»، (رقم ١٦٢٢)، ومسلم في كتاب الحج، باب: «لا يحج بالبيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»، (رقم ١٣٤٧).

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ في تفسير هذه الآية قال ابن عباس: «كُلْ ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف ومخيلة»(١)، وقد روى المقدام بن معديكرب قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمنَ صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»(٢). ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: الذين يسرفون في طعامهم وشرابهم.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب ستر العورة، وهذا الستر من فرائض الصلاة عند الأئمة: أبي حنيفة(٣)، والشافعي(٤)، وأحمد(٥)، وعند الإمام مالك: أنها

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب اللباس، باب: «البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة»، (رقم ٣٦٠٥)، والإمام أحمد في المسند، (١١/ ٢٩٤)، (رقم ٦٦٩٥)، والحاكم في المستدرك، (٤/ ١٥٠)، (رقم ٧١٨٨)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، بلفظ: «كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَالْبَسُوا، مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ»، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، (رقم ٢٣٨٠)، وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل، وكراهة الشبع، (رقم ٣٣٤٩)، وأحمد في المسند، (٢٨/ ٤٢٢)، (رقم ١٧١٨٦)، وصححه الترمذي والألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

(٣) البناية شرح الهداية لبدر الدين العيني، (٢/ ١١٩).

(٤) الوجيز لأبي حامد الغزالي، (١/ ٩٨).

(٥) الكافي لابن قدامة المقدسي، (١/ ٢٤١).

فرض ديني، لا تختص بالصلاة[١]، ويجب تغطية البدن من السرة إلى الركبة للرجال، أما للنساء فلجميع أجزاء البدن، وقد وسع الله على عباده في لباسهم، فوجب أن تكون السترة للرجال ساترة لجميع البدن، وفي هذا قال عمر: «إذا وسَّع الله عليكم فأوسعوا»[٢].

- أخذ الزينة عند الصلاة، وعند الطواف، وقد جاء الحكم بهذا لخصوصيتهما في مناجاة الله ولقائه، ولا تحرم الزينة فيما عدا ذلك، فللإنسان أن يتجمل بلباسه في غير سرف ولا مخيلة، والله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده.
- عدم تعدي الحد في الأكل والشرب بما يؤدي إلى الإسراف فيه، فهذا مكروه، ويكون محرماً إذا كان يؤدي إلى ضرر البدن، أو استهانة بالطعام أو الشراب بأي صورة كانت، كرميهما في التراب، أو وضعهما مع النفايات.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ

(١) أسهل المدارك لأبي بكر الكشناوي، (١/ ١٨١)، والجامع لأحكام القرآن، (٧/ ١٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب: الصلاة في القميص والسراويل والتبان والقباء، (رقم ٣٦٥).

ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا! لهؤلاء الذين يحرِّمون بأهوائهم: لماذا تحرّمون من عند أنفسكم ما أحلَّ الله، وارتضاه لعباده؟، فاقتضى هذا حل الزينة من الطيبات، وفي هذا روى عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس»(١)، كما روى سهل بن سعد: «أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يكثر دهن رأسه، ويسرح لحيته بالماء»(٢).

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أي: كل ما استلذَّ وطاب من الطعام،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان تحريم الكبر وبيانه، (رقم ٩١).

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية، (رقم ٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٨/٤٢٨)، (رقم ٦٠٤٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٢/٣٤٢)، (رقم ٧٢٠).

وكان رسول الله -ﷺ- يأكل من الطيبات كالحلوى، والبطيخ، والعسل، والرطب[1]، وما كان يكره شيئاً إلا إذا كان يرى فيه تكلفاً، أو يؤدي إلى شهوات الدنيا التي تصد عن الآخرة.

كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «إِنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يُحَرِّمُونَ أَشْيَاءَ أَحَلَّهَا اللهُ مِنَ الثِّيَابِ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: ٥٩]، وَهُوَ هَذَا، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾»[2].

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إن هذه الطيبات للمؤمنين الذين يعرفون حقها، وذلك بطاعتهم لله وعبادته، وتوحيده، وشكره عليها، وقيامهم بحقها في عدم الإسراف، وفي إطعام الأقارب المحتاجين والمساكين والبر بهم.

---

(١) أخرج البخاري في كتاب الأطعمة، باب: الحلواء والعسل، (رقم ٥٤٣١)، ومسلم في كتاب الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق، (رقم ١٤٧٤)، عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يُحِبُّ الحَلْوَاءَ وَالعَسَلَ»، وأخرج مسلم في كتاب الأطعمة، باب: ما جاء في أكل البطيخ بالرطب، (رقم ١٨٤٣)، عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: «أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- كَانَ يَأْكُلُ البِطِّيخَ بِالرُّطَبِ».

(٢) التفسير، (١٠/ ١٥٨).

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: كما تكون الطيبات للمؤمنين في الدنيا تكون لهم في الآخرة جزاء إيمانهم ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي: نبينها عن الطيبات، وعن الإسراف، وعن الحلال والحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: للذين يعلمون آيات الله وأحكامه حق العلم ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: إن الذي حرَّمه الله هو الفواحش، ومنها: طوافكم بالبيت عُراة، وكل ماهو مستقبح من أفعالكم.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: ما كان واضحاً للعيان كالطواف عراة، أو ما كان باطناً مما لا يراه أحد ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ المراد به: أي فعل فيه معصية لله، أو تعد على عباده ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الظلم ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: تعبدوا معه غيره ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ قال الزمخشري: «هذا فيه تحكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره»[١]. ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تفتروا على الله الكذب.

أحكام وفوائد الآيتين :

- حل الزينة، وتشمل التجمل في الدنيا بالثياب، وحسن المظهر.
- حل الطيبات في المأكل والمشرب في غير سرف أو مخيلة.

---

(١) الكشاف، (٢/ ٤٣٩).

- تحريم الفواحش الظاهرة، وهي كل ما ظهر للعيان، أو كان له دليل على ظهوره، وكذلك تحريم الفواحش الباطنة، وهي كل ما خفي عن الأعين، وتحريم الإثم، وهو كل ما فيه معصية لله، أو تعدٍّ على عباده، وتحريم البغي، وهو الظلم والتجاوز على عباد الله، وأكل أموالهم بالباطل، أو التعرض لدمائهم أو أعراضهم.
- أن الأصل في الأشياء الإباحة، فكل ما في الأرض مُسَخَّرٌ للإنسان، إلا ما حَرَّمه الشرع.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ﴾ أي: إن لكل أُمة وقتاً معيّناً يكون فيه هلاكها ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ أي: إذا حان وقتهم المعلوم لهلاكهم ﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ﴾ أي: لا يتأخرون عنه بمقدار ساعة، وهي أقل

أسماء الأوقات ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي: ولا يتقدَّمون عن هذا الوقت بساعة.

وهلاك الأُمم يحدث عندما ترتكب المحرمات، وتستمرئ المعاصي، ولا يكون لها من نفسها رادع.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: إن أتاكم رسل منكم، أي: من جنسكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ أي: يتلون عليكم ما فرضته عليكم من الأحكام ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ أي: من أصلح منهم باتباع ما جاءتهم به رسلهم ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: لا يخافون من عذاب الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: لم يصدقوا ما جاءتهم به الرسل ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ أي: تكبروا عن العمل بهذه الآيات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم أهل النار الذين يخلدون فيها.

أحكام وفوائد الآيات:

- في الآية (٣٤) إخبار عن أمر مستقبلي، وهو أنَّ لكلِّ جماعة اجتمعت على الكفر بالله -تعالى-، وتكذيب رسله -عليهم الصلاة

والسَّلام-وقتاً لحلول العقوبة بهم، فإذا جاء الوقت الذي وَقَّته الله لإهلاكهم لا يتأخرون عنه لحظة، ولا يتقدَّمون عليه.

- أن الأُمم تهلك كما يهلك الأفراد، وهلاكها يحدث عندما تتولى عن أحكام الله، وتنتهك حرماته، وتستمرئ الفسوق والفواحش، وهذا هو ما حدث للأُمم التي كذبت رسلها، مثل: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط كما قال-تعالى-: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

- عدم قبول أعذار الخلق عن ذنوبهم، وذلك لأن الرسل أرسلوا إليهم بالبينات، فمن اتقى منهم فقد أمن من الخوف في الآخرة، ومن الحزن على الدنيا، أما من استكبر وعتا فيخلد في العذاب.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ

لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ
وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ٣٩﴾.

بيان الآيات:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: كذب على الله بأن قال ما لم يقله، أو قال خلاف ما أنزل على أحد من رسله، أو كذَّب بما جاء به رسله من البينات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يأتيهم ما كتبه الله لهم من رزق وأجل وسعادة وشقاء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: إذا جاءتهم رسل الموت ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يسألونهم سؤال توبيخ وتقريع، قائلين لهم: أين الذين كنتم تشركونهم مع الله؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: ابتعدوا عنَّا، فلا نجد أنهم ينفعوننا بشيء ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: اعترفوا بكفرهم وافترائهم على الله، وتكذيبهم لرسلهم.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ أي: يقول الله يوم القيامة للذين افتروا الكذب على الله، وكذبوا بآياته، وكذبوا رسوله، وهم مشركو العرب، ومن كان على شاكلتهم: ادخلوا النار مع أُمم من الجن والإنس كانوا مثلكم في أعمالهم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ أي: تلعن التي سبقتها إلى النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي: إذا اجتمعوا ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي: الأتباع ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ وهم: المتبوعون

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: ضاعف لهم العذاب؛ لأنهم الذين أضلونا عن الطريق القويم، فيجيبهم الله بقوله: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أي: للتابع والمتبوع ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا تدرون ما يلاقونه من العذاب.

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي: قال المتبوعون للتابعين: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ أي: إنكم فعلتم مثل ما فعلنا من افتراء الكذب على الله، وتكذيب آياته ورسوله.

﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي: لاقُوا العذاب الذي

نلاقيه جزاء اتباعكم لنا في الكفر، ونظير هذا قول الله-تعالى-: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

أحكام وفوائد الآيات:

- أن من يكذب على الله، أو يكذب بآياته هو أشر الناس ظلماً، وأشدهم عذاباً.
- توبيخ ملائكة الموت للظلمة والمشركين عند قبض أرواحهم.
- تقرير لعن أهل النار لبعضهم، واتهام كل منهم الآخر بأنه السبب في دخوله النار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ

هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ المعنى في وصف هؤلاء في تكذيبهم لآيات الله واستكبارهم عنها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يرفع لهم عمل في الدنيا، ولا تفتح السماء لأرواحهم بعد قبضها، وشاهد هذا: «أن رسول الله -ﷺ- ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟، فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله -ﷺ-: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾»[1].

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (٣٠/٤٩٩)، (رقم ١٨٥٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، (١/٦١٠)، (رقم ٣٩٠)، وقال: «حديث صحيح»، وأخرجه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، المستدرك، (١/٣٧-٤٠).

﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ أي: يدخل البعير في فتحة الإبرة، وهذا من المحال ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بسبب سوء عملهم ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ المراد به: الفرش ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ والمراد به اللحف ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هكذا يكون جزاء الكفار والظلمة.

ولما ذكر الله-ﷻ-حال الظَّلمة والكافرين، ومآلهم، وما يلاقونه من العذاب ذكر حال المؤمنين، فقال-عزَّ ذكره-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ المراد: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين لم يكلفهم الله من العمل إلا ما وسعته نفوسهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: إنهم هم السعداء بما استحقوه من الجنة والخلود فيها.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾

أي: أخرجنا ما في قلوبهم من الحسد والبغضاء، فلا يحسد بعضهم بعضاً في تفاوت المنزلة في الجنة ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: دلّنا على هذا الثواب، والمنزلة العالية، والمقام الكريم في الجنة.

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا

﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: لولا لطف الله ورحمته بنا لما اهتدينا ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ أي: هذه هي الجنة ﴿أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: صارت لكم مساكنها وخيراتها جزاء عملكم في الدنيا.

عن أبي سعيد الخُدْري وأبي هريرة -رضي الله عنهما-، عن النبي -ﷺ- قال: «يُنادي منادٍ: إنَّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشُبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأسوا أبداً»، فذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾»[1].

أحكام وفوائد الآيات:

- أن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها يحرمون من دخول الجنة حرماناً أبديًّا.
- أن الإيمان سبب موجب لدخول الجنة، والخلود فيها.
- أن الله -عز وجل- لم يكلف عباده من الأعمال إلا حسب طاقتهم وقدراتهم.
- رحمة الله بالعباد، فلا يُكَلِّفهم إلا بما يطيقون.
- أن أهل الجنة لا يتحاسدون عندما تتفاوت منازلهم فيها.

---

(١) صحيح مسلم، (٤/٢١٨٢)، (رقم ٢٨٣٧)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة...).

- أن أبواب السماء تُفتح للمؤمنين كرامةً لهم، واحتفاء بهم.

- أن الهداية من الله، وهذا يقتضي وجوب طلبها منه، وقد أرشد عباده أن يسألوها منه في قوله-عزَّ ذكره-: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

- أن الجنة خاليةٌ من المنغِّصات والمكدِّرات والهموم، زاخرةٌ بالنعيم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾.

بيان الآيات:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ حينما يدخل المشركون والكفار النار يناديهم المؤمنون على سبيل التوبيخ: ﴿أَن قَدۡ

﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أي: وجدنا الجنة التي وعدنا الله بها حقًّا وصدقاً.

﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ فيجيبونهم بـ﴿نَعَمْ﴾ وجدنا ما وعدنا ربنا صدقاً وعدلاً، وهكذا يلقى الكفار المهانة والشماتة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد نادى رسول الله-ﷺ-قتلى المشركين في بدر قائلاً: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة؛ هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟، فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا»، فقال عمر: يا رسول الله! تخاطب قوماً قد جيَّفوا؟، فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا»[(١)].

وأما في الآخرة فإن الملائكة توبخهم وتقرعهم، وتقول لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور:١٤-١٦].

قوله: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حينما يسمع الملك المناداة بين أهل الجنة وأهل النار ينادي فيهم: أن لعنة الله على الظالمين، وقد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: قتل أبي جهل، (رقم ٣٩٧٦)، ومسلم في كتاب الجنة، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، (رقم ٢٨٧٣)، واللفظ له

وصفهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصرفون الناس عن اتباع شرع الله وأحكامه.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يريدون أن يكون هذا الشرع عوجاً غير مستقيم، يتبع أهواءهم ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي: أنهم كافرون بالبعث والدار الآخرة.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ أي: سور حاجز بين الجنة والنار، كما ثبت عن ابن عباس في رواية الطبري، وكما قال-ﷻ-: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ [الحديد:١٣].

﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ أي: على أعراف السور، وهي شرفته وعلوه رجال من المسلمين، تعادلت حسناتهم مع سيئاتهم، فمنعتهم سيئاتهم من دخول الجنة، ومنعتهم حسناتهم من دخول النار، فوقفوا على السور ينتظرون قضاء الله وحكمه فيهم، وثبت عن حذيفة فيما رواه هناد بسند صحيح قال: «أصحاب الأعراف: قوم تجاوزت بهم حسناتهم عن النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة»(١).

﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ أي: يعرفون أصحاب الجنة

(١) الزهد، رقم، (٢٠٢).

ببياضهم، ويعرفون أصحاب النار بسواد وجوههم، ورجحه الطبري.

﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي قالوا لهم: سلام عليكم بما أنعم الله عليكم من دخول الجنة ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ أي: إن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد، وهم طامعون في دخولها؛ بسبب حسناتهم ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: إذا حوّلت وجوههم جهة النار ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: سألوا الله ألاّ يجعلهم معهم؛ لما رأوه فيها من هول العذاب.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير التحادث بين أهل الجنة وأهل النار، وذلك حين يريد من في الجنة مخاطبة من في النار ممن يعرفه في الدنيا.
- ذم الذين يصدون عن سبيل الله، ويكفرون بالبعث، ويريدون أن تكون سبيل الله حسب أهوائهم.
- وجود حاجز بين الجنة والنار، يقف عليه أهل الأعراف، ينتظرون حكم الله فيهم؛ لتساوي حسناتهم وسيئاتهم، وهذا يقتضي أن من ثقلت حسناته على سيئاته نجا، ومن ثقلت سيئاته على حسناته

هلك، ومن تساوت حسناته مع سيئاته يكون آخر من ينجو من النار.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ أي: من المشركين ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ أي: يعرفونهم بعلاماتهم، وهي سواد الوجوه، وقبح المنظر.

﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ أي قالوا لهم على سبيل الشماتة: ما أغنت عنكم كثرتكم، ولا أموالكم، ولا أولادكم ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي: هؤلاء المؤمنون الذين كنتم تعيرونهم وتستهزئون بهم، وتستكبرون عليهم في الدنيا، مثل: سلمان، وصهيب، وبلال، وتقولون: إن الله لن ينالهم برحمته ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الأموال والأولاد، وكل ما في الدنيا لا يغني شيئاً يوم القيامة؛ إذ لا يغني إلا العمل الصالح.
- أن الذين يسخرون من المؤمنين، ويستهزؤن منهم، ويستكبرون عليهم، يلاقون العذاب والشماتة يوم القيامة.
- أن المؤمنين الذين كانوا مستضعفين في الأرض هم الذين يرثون الجنة، كما أنهم يرثون الأرض، كما قال-تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ حينما يكون أهل النار في حال من الضيق، والعذاب، وفقد الطعام والشراب، ينادون

أصحاب الجنة ممن كانوا يعرفونهم في الدنيا، فيسألونهم: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: من الطعام، فيقول أهل الجنة لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: حرَّم طعام أهل الجنة على أهل النار، وقد وصف الله-عَجَّلَ-هؤلاء بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي: نسوا دينهم، وضيَّعوه.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ يعني: اغتروا بلهوها ولعبها، ونسوا ما أمرهم الله به من توحيده وطاعته، وطاعة رسوله ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ أي: نذرهم في النار يذوقون عذابها ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: كما نسوا أنهم مبعوثون، وأنهم محاسبون ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: وننساهم كما كانوا يجحدون بآياتنا.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تحريم اتخاذ الدين هزواً ولعباً، وهذا يشمل كل استهزاء به، أو بأهله، أو النيل منهم.
- التحذير من الاغترار بمفاتن الدنيا وزينتها من الأموال والأولاد.
- أن من نسي الله في الدنيا، وجحد آياته، نسيه في الآخرة.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ
فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾أي: أنزلنا عليهم القرآن ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾ أي: بيَّنَّاه وأوضحناه ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي: بما بيَّناه.

﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ أي: فيه الهدى والرحمة لمن اتَّبعه، وعمل ما فيه ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: للمؤمنين به، المتبعين لأحكامه ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ سؤال استنكاري وتعجب، أي: هل ينتظرون صدقه-المراد به القرآن-، وما أخبر بـ(هل) من العذاب للكافرين.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي: يوم يتبيَّن ما جاء به، وهو يوم القيامة، كما أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: «﴿تَأۡوِيلُهُۥ﴾ عاقبته»[1].

---

(١) التفسير، (١٠/٢٤١).

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يعترفون بما جاءتهم به الرسل من الحق، والقول الفصل.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ أي: هل لنا من أحد ﴿فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ من هذا العذاب؟ ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: نؤمن ونصدّق بما جاءنا من البينات، ونظيره قول الله-ﷻ-: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بلهوهم ولعبهم في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: زال عنهم من كانوا يطيعونهم، ويعبدونهم من دون الله.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن القرآن نزل مفصلاً، وفيه هدى العباد ورحمتهم إذا آمنوا به، وصدقوه، واتبعوا أحكامه.
- أنه إذا حلَّ الأجل فلا ينفع نفسًا إيمانها بالقرآن إذا لم تكن آمنت من قبل.
- أن الذين يكفرون به يعترفون يوم القيامة بما جاءهم من العلم، ويبحثون عمن يشفع لهم، ثم يتمنون أنهم يردون إلى الدنيا؛

ليكونوا من المؤمنين، ثم يرون أن ذلك مستحيل، وأن من كانوا يطيعونهم ويعبدونهم قد تخلوا عنهم.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

هذا إخبار من الله -تعالى- أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقد يكون المراد باليوم اليوم المعتاد، وقد يكون المراد به ألف سنة، كما قال -تعالى-: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، كما قال بذلك ابن عباس.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أخرج الفريابي بسند صحيح عن مجاهد قال: «علا على العرش»[١].

---

(١) تغليق التعليق، (٥/ ٣٤٥).

والاستواء: صفة من صفات الله العظيمة، ولقد ضلَّ الذين تقوَّلوا فيه، وفي كيفيته، والأصوب ما عليه أهل السنة والجماعة أن الله-عَزَّ وَجَلَّ-لا يشبهه شيء من خلقه، وإنما هو كما وصف نفسه بقوله-عزَّ ذكره-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يذهب ضياء النهار بظلام الليل، ويذهب ظلام الليل بضياء النهار، وكل منهما يتابع الآخر ﴿حَثِيثًا﴾ أي: سريعاً في وقت معلوم، لا يتأخَّر أحدهما عن الآخر.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ﴾ فكل هذه الأفلاك تسير بأمره، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٣٧-٤٠].

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾ أي: له الملك والتصرف والتدبير لخلقه، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾

[الأحزاب:٣٨].

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تقدَّس وتنزه، لا رب غيره، ولا إلَه سواه.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ في هذا أمر من الله لعباده أن يدعوه، فهو المستحق وحده لدعائه، فاقتضى هذا أن من يدعو غيره من الأموات، أو يتوسل به، أو يعتقد أنه ينفعه، أو يدفع الضر عنه إذا دعاه، يعد مشركاً ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: تذللاً، واستكانة، وخشوعاً يليق بعظمة الله ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: سرًّا؛ لإبعاد مظنة الرياء؛ ولهذا أثنى الله على نبيه زكريا في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المراد به: من يعتدون في الدعاء بتجاوز الحد فيه؛ لقول رسول الله -ﷺ-: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء»(١)، ومن ذلك: الجهر الكثير، والصياح، أو الدعاء بما لا يعقل، أو الدعاء بما ليس في الكتاب ولا في السنة.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام بقدر أيام الدنيا،

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب: الإسراف في الماء، (رقم ٩٦)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب: كراهية الاعتداء في الدعاء، (رقم ٣٨٦٤)، والإمام أحمد في مسنده، (٢٧/٣٥١)، (رقم ١٦٧٩٦)، وصححه الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير، (١/٣٨٧)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

مع قدرته في خلقها بمجرد قوله: كن.

- أن استواء الله -جلَّ جلاله- على العرش صفة من صفاته العظيمة، ويحرم تأويل هذا الاستواء بأي صفة، ويجب الإيمان بما عليه أهل السنة والجماعة في هذا الأمر، وهو أنه -عز وجل- لا يشبهه شيء من خلقه، وإنما هو كما وصف نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

- أن الخلق والأمر كله لله، وليس هذا لأي أحد غيره.

- وجوب دعاء الله وحده، كما قال -تعالى-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وهذا يقتضي حكماً تحريم دعاء غيره، كما قال -عزَّ ذكره-: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

- تَحَرِّي الأدب في الدعاء، والنهي عن الاعتداء بشتى صوره.

- أن يكون دعاء الله مصحوباً بالتضرع إليه، وألا يجهر به الداعي، وألا يتجاوز الحد فيه.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ

بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ في هذا نهي مطلق عن الإفساد في الأرض بأي صورة من صور الفساد، ومنه: القتل، والظلم، وترويع الآمنين، ومنه: تلويثها، أو إفساد ما فيها من المنافع، أو استباحة كل ما حرَّمه الله، أو منع كل ما أحلَّه فيها، والنهي هنا يقتضي التحريم.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ والمراد: أن يدعو الإنسان ربه وهو في خوف ووجل من الله -عَزَّوَجَلَّ-، وطمعاً في رحمته وهدايته، كما قال -عَزَّوَجَلَّ- في صفة المؤمنين: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته قريبة للذين يرجون الله، وقلوبهم وجلة خاشعة خوفاً منه، وطمعاً في

رحمته ومرضاته.

﴿وَلَا وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ لما ذكر الله-عز وجل-أنه الذي خلق السماوات والأرض، وأنه يغشي الليل النهار، قال-عز وجل-: إنه هو الذي يرسل الرياح تبشر بنزول المطر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: إذا حملت الرياح سحاباً ثقيلاً بالماء ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي: السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ والمراد به: البلد الذي لم ينزل فيه مطر، ولم ينبت فيه نبات، فأصبح بمثابة البلد الميت ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي: بالبلد ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: بنزول المطر أنبتنا النبات، فأنتج الثمرات ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وفي هذا تنبيه على أن إنزال الماء على البلد الميت مثل إحياء الموتى من قبورهم، وهذا يكون بمطر ينزله الله على قبورهم، فتعود إليهم أرواحهم، وفي هذا روى عبد الله بن عمرو-رضي الله عنه-عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قوله: «ثم يرسل الله-أو قال: ينزل الله-مطراً كأنه الطل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس! هلموا إلى ربكم»[(١)].

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون بما جاءكم من البينات.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب: في خروج الدجال، (رقم ٢٩٤٠).

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ المراد: أن البلد الطيب ذا التربة الطيبة إذا نزل عليه المطر أخرج نباتاً طيباً بإذن الله ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ أي: إن التربة الحمئة أو السبخة إذا نزل عليها المطر لا تخرج نباتها إلا نكداً، أي: عسيراً، وهذا مثال المؤمن والمنافق، فالمؤمن مثل التربة الطيبة، والمنافق مثل الأرض النكدة، وفي هذا قال رسول الله-ﷺ-: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(١).

أحكام وفوائد الآيات:

- تحريم الإفساد في الأرض بالشرك، أو الظلم، أو الفسق، أو بأي صورة من الصور؛ لما في ذلك من منافاة لحكم الله الذي أمر بعمرانها، كما قال-عزَّ ذكره-: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب: فضل من علم وعلَّم، (رقم ٧٩)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث به النبي-ﷺ-من الهدى والعلم، (رقم ٢٢٨٢).

﴿فِيهَا﴾ [هود:٦١].

- قال ابن عاشور: «البَعدية في قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بَعديةٌ حقيقيةٌ؛ لأنَّ الأرضَ خُلِقَتْ من أوَّل أمرها على صلاح، قال الله-تعالى-: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت:١٠] على نظام صالح بما تحتوي عليه..، والتصريح بالبَعْدِيَّة هنا تسجيل لفظاعة الإفساد بأنَّه إفساد لما هو حسن ونافع، لا معذرة لفاعله، ولا مساغَ لِفعْلِه عند أهل الأرض»[(١)].

- أن ما وقع على الأرض من فسادٍ أمرٌ طارئ عليها، شاذٌّ عن طبيعتها، ولقد نهى الله البشرية عن الإفساد فيها.

- تقرير قرب الله ومحبته لأهل الإحسان.

قال الطِّيبي: «ذكر ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ بعد ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ من باب الترقِّي؛ لأنَّ مَنْ تَذَكَّر آلاء الله-تعالى-عَرَفَ حق النعمة، فشكر، وهذا-كما قال غير واحد-مثل لِمَنْ ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلَّفين، ولِمَنْ لا يؤثر فيه شيء من ذلك»[(٢)].

- أن المؤمن مثل التربة الطيبة لا تخرج إلا نباتاً طيباً؛ أما الكافر فهو

---

(١) التحرير والتنوير، (٨/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: روح المعاني للآلوسي، (٨/ ١٤٨).

مثل الأرض النكدة التي لا تخرج إلا نباتاً عسيراً.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾.

بيان الآيات:

لما ذكر الله قصة آدم وإبليس، وحذر عباده من كيده وأعوانه، وأمر عباده بستر عوراتهم، وأن يكون أكلهم وشربهم في غير سرف؛ ذكر قصة أصحاب الأعراف وعظمته وقدرته في خلق السماوات والأرض، ثم ذكر-جلَّ وعلا-إرساله للرسل إلى قومهم؛ ليبلغوهم رسالة الله إليهم، ولينذروهم من عواقب الشرك والكفر، فبدأ بذكر نبيه نوح وما كان له مع قومه، فقال-جلَّ ذكره-: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ**﴾ أرسل

إلى قومه وهو ابن خمسين سنة، وكان يمتهن التجارة ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ أي: نادى قومه الذين أرسل فيهم ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدوه وأطيعوه ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أي: ليس لكم معبود تعبدونه بحق إلا الله.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي: أخشى أن يصيبكم عذاب عظيم جزاء شرككم، وكان قومه أول من عبد الأصنام؛ ذلك أن أناساً صالحين منهم ماتوا، فبنى قومهم عليهم معابد، وصوروا صوراً لهم؛ لكي يتذكروهم، فيتشبهوا بهم في العبادة، ومع مرور الزمان وضعوا مجسمات على تلك الصور، ثم سموها بأسماء الصالحين، فعبدوها[1]، وفي هذا قال الله-ﷻ-: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح:٢٣].

(١) أخرج البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾، (رقم ٤٩٢٠)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-قال: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ فكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ فكَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ».

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: كبراء وسادة قومه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إن ما تدعونا إليه هو ضلال بَيِّن، فأجابهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أي: لست ضالًّا.

﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن الله أرسلني إليكم لأمر مهم، هو أنني ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أي: أدعوكم إلى رسالات ربي التي أرسلت إلى جميع الخلق، وهي عبادة الله وحده، لا ند له، ولا شريك.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: جئت ناصحاً لكم؛ لكي تدرككم هداية الله ورحمته، وتسلموا من عقابه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم قدرة الله، وشدة عذابه للذين يكذبون رسالته ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ استفهام إنكاري ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: كيف تعجبون لما جاءكم هدى ورحمة من ربكم على لسان واحد منكم ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟﴾ أي: ينذركم بأن تتقوا الله، ولا تدعوا معه غيره ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعلَّه يرحمكم إذا اتقيتموه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: استمروا على تكذيبه ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: أنجيناه والمؤمنين الذين كانوا معه في السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: أهلكناهم في البحر، كما قال-

﷿-: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح:٢٥].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ أي: عمياً لا يبصرون الحق.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير نبوة نوح-عليه السلام-، وإرساله إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله وطاعته، ووجوب الإقرار بتوحيد الألوهية، والتحذير من عاقبة الإعراض عن أوامر الله.

- أن السادة والمتنفذين في الأُمم غالباً ما يعرضون عن دعوات الرسل؛ خوفاً على مصالحهم ورئاساتهم.

- أن الهلاك عاقبة المكذبين لرسلهم، كما حدث لقوم نوح وغيرهم ممن كذبوا رسلهم.

﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ
إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ
بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن
رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ
مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ المراد: أن الله أرسل هوداً إلى عاد، وهو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، أما عاد فكانوا يسكنون جهة حضرموت، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة، وكانوا أهل زراعة وحضارة، وقد دعاهم نبيهم هود-عليه السلام-إلى عبادة الله.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ﴾ أي: اعبدوه وحده، ما لكم من إلَه غيره، فهو الذي خلقكم، ورزقكم، ومكَّن لكم في الأرض ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله وتخشونه حتى لا ينزل بكم العذاب؟.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: قال سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: إننا نراك بدعوتك هذه سفيهاً حين تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ أي: لست سفيهاً كما تزعمون ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جئتكم برسالة من عند الله، فيها خير لكم إن آمنتم بها ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أي: إن الله

أمرني أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي: أن غرضي في نهيكم عما أنتم فيه من الغواية والضلال هو النصح لكم ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ استفهام إنكاري ﴿أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: موعظة على رجل منكم، أي: من جنسكم.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي: جعلكم تعمرون الأرض من بعد قوم نوح الذين أهلكهم الله ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ أي: طولاً وقوة في أجسامكم ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: تذكَّروا نعم الله عليكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: تنجون من عذاب الله.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير معنى عبادة الله بأنها توحيده، وطاعته، وإفراده بالعبادة، ونفي كل عبادة لغيره.
- أن التعبير بالفعل المضارع ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾ يَدُلُّ على تَجَدُّد البلاغ، واستمراره ما دام فيهم، والاسمية في: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾؛ لبيان كونه مقيماً على نُصْحِه أميناً لهم، وتقديم ﴿لَكُمۡ﴾ لبيان اعتنائه بهم.
- نفي الرسل-عليهم السلام-لما اتهمهم به قومهم من الكذب أو

السفاهة، وتوكيدهم أنّهم رسل الله إليهم؛ لإبلاغهم أحكامه وآياته، ونصحهم لهم خشية من هلاكهم وعذابهم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾.

بيان الآيات:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾ أي: جئتنا بشيء لم نعهده، ولا نعرفه، وهو عبادة الله وحده ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: تريد منا أن نترك آلهتنا وأصنامنا التي كان يعبدها آباؤنا، وهذا كقول غيرهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنت صادقاً فأتنا بالعذاب الذي تقول ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ أي: وجب الآن عليكم من ربكم السخط، كما ثبت

عن ابن عباس في رواية الطبري.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: تحاجّوني في أصنام وضعتم لها مسميات من عندكم، وهي صمود وصدى والهباء ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ أي: ليس لكم حق في عبادتها.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ تهديد ووعيد لهم بما سينزل بهم من العذاب ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ أي: نجَّاه الله ومن آمن معه من العذاب الذي حلَّ بقومه.

﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ المراد بقطع دابرهم: استئصالهم وهلاكهم، وقد بيَّن الله صفة هلاكهم بقوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة:٦-٨].

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير فساد حجة من يدعي اتباع أسلافه الذين كانوا على ضلال.

- سفاهة الكفرة والظلمة في استعجالهم العذاب ظنًّا منهم عدم وقوعه، ثم ما يلبثون إلا وهم ملاقوه.

- تقرير ضلال المشركين في عبادتهم أوثاناً لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل.

- قال ابن عاشور: «اقتران جملة جواب القسم بـ﴿قَدۡ﴾ لأنَّ القسم يُهَيِّئ نفس السامع لتَوَقُّعِ خبر مُهِمٍّ، فيُؤْتى بـ﴿قَدۡ﴾ لأنَّها تدلُّ على تحقيق أمر متوقَّع»[(١)].

- في الآية (٧٢) وقف نبوي عند قوله-تعالى-: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، وينظر: تفسير سورة النساء، الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام، الآية (٦٥).

- أن الله ينجي المؤمنين، ويهلك الكافرين.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ

---

(١) التحرير والتنوير، (٨/ ١٤٤).

فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ قبيلة ثمود تنتسب إلى ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، وهم من العرب العاربة، وكانت مساكنهم في وادي الحجر، قال جابر -رضي الله عنه-: لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ -ﷺ- بِالْحِجْرِ قَالَ: «لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنَ الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، أَهْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ»، قِيلَ: مَنْ هُوَ؟، قَالَ: «أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ»(١).

﴿ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ أي: نبيهم ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ أي: وحدوا الله، وأطيعوه، وهذه هي دعوة عموم الرسل إلى أقوامهم أن تكون عبادتهم لله، وترك الأوثان والأصنام ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ البينة: العلامة، أو الدليل

---

(١) أخرجه ابن حبان ، الإحسان، (١٤/٧٧)، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، المستدرك، (٢/٣٤٠)، وحسنه الحافظ ابن حجر، فتح الباري، (٦/٢٧٠).

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي: هي آية من آيات الله، جاءتهم على خلاف العادة من غير فحل.

قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي قال لهم صالح: اتركوا الناقة تأكل في أرض الله، فهي آية من آياته، والأرض أرضه ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: لا تتعرَّضوا لها بأذى ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: إنكم إذا تعرَّضتم لها بسوء فسوف يعذبكم الله بعذاب شديد، وقد حدث لهم ذلك كما ذكر آنفاً.

ولما نزل رسول الله-ﷺ-بالناس في تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا لها القدور باللحم، فأمرهم رسول الله-ﷺ- فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»(١).

وفي حديث آخر: قال رسول الله-ﷺ-وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (١٠/١٩١)، (رقم ٥٩٨٤)، وصححه الشيخ شعيب.

عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»[١]. وقال-عليه الصلاة والسلام-لعلي: «يا علي! أتدري من أشقى الأولين»؟، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «عاقر ناقة صالح. أتدري من أشقى الآخرين»؟، قال علي: الله ورسوله أعلم، قال: «قاتلك»[٢].

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ الخطاب لثمود، أي: تذكروا ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ أي: جئتم بعدهم.

﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: جعل لكم فيها مساكن ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا﴾ أي: تشيدون الدور والقصور ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ إشارة إلى أنهم اتخذوا بيوتهم في الجبال لطول أعمارهم؛ لأن بيوتهم كانت تتهدَّم قبل نهاية أعمارهم.

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: تذكروا نعمه ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي: لا تنشروا الفساد في الأرض بعصيانكم الله وتكذيبكم لرسوله.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب: الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، (رقم ٤٣٣)، ومسلم في كتاب الزهد، باب: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم»، (رقم ٢٩٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٨/ ٤٥)، (رقم ٧٣١١)، وقوَّاه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، (٧/ ٧٤).

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير أن الله يرسل رسله، ومعهم المعجزات التي تدل على صدقهم، ومن هذه المعجزات: ناقة نبي الله صالح-عليه السلام-.
- أن معجزات الأنبياء من جنس ما برع فيه أقوامهم، فقوم صالح أتقنوا نَحْتَ الصخور، وبَزُّوا فيه غيرهم، فكانت الآية ناقة عظيمة يَنْشَقُّ عنها الصخر، لكنها تنبض بالحياة.
- تذكير الرسل لأقوامهم بالآيات، وما أعطاهم الله من النعم، وتمكينهم في الأرض، وتحذيرهم من معصية الله، وتكذيب رسله.
- وجوب الاتعاظ عند زيارة أماكن الأُمم الطاغية، والاعتبار بما أصابها من العذاب.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ
ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ
بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ۝٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ

ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ المراد بهم: الذين كذبوا صالحاً، واستكبروا على دعوته لهم.

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ المراد بهم: الذين كان المستكبرون يستضعفونهم، ويذلونهم، ويتجبَّرون عليهم ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: المستضعفين منهم.

﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ وهذا استفهام منهم على سبيل السخرية والاستهزاء، فأجابهم المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي: مصدقون لما جاء به صالح، فرد عليهم المستكبرون الكفرة على سبيل التحدي: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: مكذبون لما جاء به صالح.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ قيل: إن الذي عقرها قدار بن سالف، ومصدع بن مهرج، ومعهما سبعة نفر من ثمود، فكمن قدار للناقة في أصل صخرة، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فرماها بسهم، ثم شد على الناقة بالسيف، فخرت على الأرض، ورغت رغاة واحدة، تحذر

فصيلها، ثم طعن في لبتها، فنحرها[١]، وهؤلاء قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨].

﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا وتجبَّروا ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: بما تخوفنا به من عذاب ربك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: إن كنت صادقاً أنك رسول ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ المراد بها: الزلزال الشديد، أو هي صيحة نزلت عليهم من السماء ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾ أي: في مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: أمواتاً هامدين ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم لما يئس من قبولهم الدعوة.

﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: لقد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، وكنت أنصح لكم خشية أن يصيبكم العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: لم تقبلوا ما نصحته لكم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/٢١٩)، وتفسير البغوي، (ص٤٧٤)، ويشهد لبعضه ما رواه أبو داود في السنن، الخراج والإمارة، باب نبش القبور العادية، (رقم ٣٠٨٨)، وحسنه المزي، تهذيب الكمال، (٤/١١).

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الرؤساء والسادة هم الذين يستكبرون عن اتباع الحق؛ خوفاً من ضياع سلطانهم، أما الضعفاء فيؤمنون برسالات الأنبياء، ويصدقونها، وتكون لهم العزة والسيادة بفضل إنعام الله عليهم جزاء إيمانهم.
- أن الأنبياء والرسل-عليهم السلام-يعملون على نصح أقوامهم ابتغاء هدايتهم، والخشية عليهم من العذاب إذا كذبوا رسالات ربهم.
- تقرير عذاب الله للمكذبين بآياته ورسله.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلُوطًا﴾ أي: أرسلنا لوطاً، وهو لوط بن هاران بن آزر، فهو ابن

أخي إبراهيم-عليهما السلام-﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ المراد بهم أهل سدوم[١] وما حولها من الأماكن ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يعني: إتيان الذكور دون الإناث ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: لم يكن أحد من الأمم الماضية يأتي مثل هذه الفاحشة التي تأتونها، وثبت عن جابر-رضي الله عنه-قال: قال رسول الله-ﷺ-: «إن أخوف ما أخاف على أُمتي عمل قوم لوط»[٢].

﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ أي: إنكم غيَّرتم الطبيعة والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي إتيان الرجال للنساء.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي: متجاوزون في ظلمكم وشرككم إلى إتيان هذه الفاحشة الشنعاء ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ يعني: أن أولئك القوم قالوا فيما بينهم: أبعدوا لوطاً ومن يؤمن بدعوته من قريتكم ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ

(١) تفسير الطبري، (١٠/٣٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، (٤/٨٥)، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، (رقم ١٤٥٧)، وحسنه، وأخرجه ابن ماجه في السنن، (٢/٨٥٦)، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، (رقم ٢٥٦٣)، وأحمد في المسند، (٣/٣٨٢)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، المستدرك، (٤/٣٥٧)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يعني: أنهم لا يأتون ما تأتونه وتفعلونه، وأخرج الطبري بسند حسن عن السدي قال: «﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتحرَّجون»[١].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نجَّاه الله من إثمهم، وما حل بهم من العقاب ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ وكما نجَّاه الله نجى أهله ومن تبعه من المؤمنين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فإنها كانت على دين قومها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الباقين الذين أهلكهم الله بعد أن أمر الله لوطاً أن يسرى بأهله من القرية، كما أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة: «﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١، والصافات: ١٣٥] في الباقين من عذاب الله»[٢].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: أرسل الله عليهم حجارة كما قال-ﷻ-: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٢-٨٣].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يا نبينا محمدًا!

---

(١) التفسير، (١٠/٣٠٧).

(٢) التفسير، (٢/٨٤).

كيف نهلك الذين يكذبون رسل الله، ويرتكبون ما حرمه؟، وفي هذا تسلية له-عليه الصلاة والسلام-عما وجده من قومه.

أحكام وفوائد الآيات:

- التعبير بالفاحشة لقُبْحِها واستهجانِها، وكونها من أفحش الكبائر، وأشنع الذنوب؛ إذ هي خروجٌ عن الفطرةِ ومجافاةٌ للطبيعةِ، وشذوذٌ وانحرافٌ، مع ما فيها من إفسادٍ وأضرار، ونَعَى عليهم كونَهم أولَ من ابتدعها.
- اختلف العلماء في عقوبة من أتى فاحشة اللواط المنكرة، فعند الإمام أبي حنيفة: يعزر الفاعل، ولا يعد زانياً؛ لأن عقوبة الزاني معلومة، وهذه الفاحشة لا تدخل فيها[(١)]، وعند الإمام مالك: يرجم، سواء أحصن أم لم يحصن[(٢)]، وعند الإمام الشافعي: يحد حد الزنا، فيجزى بجزاء المحصن، ويجزى بجزاء البكر[(٣)]، وفي المذهب الحنبلي: يحد كحد الزنا[(٤)].

والسبب في كونه يُحدُّ حدّ زنا عند الإمامين: مالك والشافعي خلافاً لأبي حنيفة: أن اللواط فاحشة، والزنا فاحشة، فأصبحا

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، (٣/ ١٨٠).
(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لمحمد عرفة الدسوقي، (٤/ ٣١٤).
(٣) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، لمحمد الشربيني الخطيب، (٤/ ١٤٤).
(٤) كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور يونس بن إدريس البهوتي، (٦/ ٩٤).

متساويين في الاسم، وفي محل الفعل، بل هو أشد نكراً أو أفحش من الزنا.

والجمهور على أن من يرتكب هذه الفاحشة وهو بالغ يقتل، فإن كان غير بالغ يعزر بالضرب، والأصل في ذلك قول رسول الله-ﷺ-: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به، أحصنا أم لم يحصنا»[١].

وقد روي: «أن أبا بكر-رضي الله عنه-حرق رجلاً عمل عمل قوم لوط بالنار، ووافقه على ذلك علي بن أبي طالب، فإن خالد بن الوليد لما كتب إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب رسول الله-ﷺ-، واستشارهم فيه، فقال علي: إن هذا الذنب لم تعص به أُمة إلا أُمة واحدة، صنع الله بها ما علمتم، أرى أن يحرق بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله-ﷺ-على ذلك»[٢]، وفعل ذلك ابن الزبير في زمانه[٣]، وكذا فعله هشام ابن الوليد، وكذا فعله خالد القسري.

قلت: والعالم في هذا الزمان يشهد هذه الفاحشة النكراء،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب: فيمن عمل عمل قوم لوط، (رقم ٤٤٦٢)، والترمذي في كتاب الحدود، باب: ما جاء في حد اللواط، (رقم ١٤٥٦)، وابن ماجه في كاب الحدود، باب: فيمن عمل عمل قوم لوط، (رقم ٢٥٦١)، كلهم بدون ذكر «أحصنا أم لم يحصنا»، وضعفه الحافظ ابن حجر في التلخيص، (٤/ ١٥٨).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، (٨/ ٢٢٠)، (رقم ١٧١١٠)، وضعفه.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، (١٧/ ٢١٨)، (رقم ١٧١١٣).

وقد سنَّت بعض الدول أنظمة تبيح ممارستها، بل وصل الحد إلى إعلانها زواجاً جهاراً، تتحدث عنه وسائل الإعلام بالخبر والصورة، وهو أمر يصعب على ذوي العقول والفطر السليمة تصوره؛ ذلك أن الله حرم هذا الفعل، وجرَّمه، وأنزل على مرتكبيه من قوم لوط أشد العذاب، ولم يعرف بعدهم أن أُمة من الأُمم استباحته، حتى البدائيون الذين يعيشون في الأدغال يعرفون بفطرهم التي فطرهم الله عليها أن الله خلق الأنثى للذكر، وحرم ما عداه، ولو علم هؤلاء الذين أباحوا هذا الفعل المنكر سوء عاقبته لأدركوا أن هذا يجعلهم ينقرضون، وتنقرض حضارتهم مع مرور الزمن؛ لأن استمرار الفاحشة وعدم إنكارها يؤدي إلى تطورها مع مرور الأجيال، ناهيك بما فيه من احتمال العذاب الذي سينزل بمرتكبيه، والراضين بفعله، وعدم المنكرين له، وناهيك-أيضاً-بما فيه من الانحراف الإنساني الذي تعافه وتكرهه النفوس، ألم تر أن الحيوانات-وهي العجم التي لا عقول لها-لا تمارس الاتصال إلا مع إناثها.

إن المسلمين هم الأُمة التي جعلها الله الأُمة الوسط التي تشهد على خلق الله يوم العرض عليه، ويشهد عليها رسولها-عليه الصلاة والسلام-، كما قال الله-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:١٤٣]، هذه الأُمة مطالبة أن تنكر هذه الفاحشة في إعلامها، وأدبياتها؛ لأن الله حين وصفها بالخيرية قيَّد هذا الوصف بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في قوله-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وإنكار المنكر يقتضي الخيرية حتى يسلم المُنْكِرُ من العقوبة، وقد ورد: «أن الله لما أمر الملك أن يخسف بقرية قوم لوط قال: يا رب! إن فيها عبدك فلاناً قائماً يصلي؟، فقال-عَزَّوَجَلَّ-: اخسف به أولاً؛ فإن وجهه لم يتمعر فيَّ ولو مرة واحدة»(١)، والأصل فيه ومصداقه قول الله-عزَّ ذكره-: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

أما في السنة فقد روى عبد الله بن مسعود-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-أن رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قال: «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد

(١) انظر: شعب الإيمان، (١٠/ ٧٤)، (رقم ٧١٨٨).

الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض»[(١)].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾ مدين: بلد نبي الله شعيب -عليه السلام-، وهو شعيب بن ميكيل بن يشجر.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي، (رقم ٤٣٣٦)، والترمذي في كتاب التفسير، باب: من سورة المائدة، (رقم ٣٠٤٧)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم ٤٠٠٦)، وحسنه الترمذي.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ هذه دعوة الرسل من قبله لقومهم، فكل واحد منهم يدعو قومه هذه الدعوة؛ لأنها أساس الألوهية المنافية للشرك.

﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ يعني: جاءكم دليل وبيان هو مجيء الرسالة ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ والمراد: ألَّا تخونوا وتغشوا الناس في تعاملكم معهم بنقص المكاييل التي تكيلون بها، والموازين التي تزنون بها، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطففين:١-٣].

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ أي: لا تفسدوا ما كان صالحاً قبلكم من حسن التعامل بين الناس، وعدم بخس بعضهم لبعض في بياعاتهم.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يعني: أن هذا الإصلاح في الأرض وعدم الفساد فيها هو الخير لكم؛ لأن بخس الكيل والوزن ظلم، والأرض لا تصلح إذا عمَّ فيها الظلم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن هذا خير لكم، وهو الإصلاح إذا كنتم فعلاً مؤمنين ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تتوعَّدوا المارة في الطريق، ولا تخيفوهم؛ لكي تصدوا عن سبيل الله من آمن به ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أي: تريدون أن تجعلوا سبيل الله عوجاً حسب أهوائكم.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ﴾ أي: تذكَّروا واعتبروا أنكم كنتم عدداً قليلاً، فكثر عددكم ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: واعتبروا بما حدث للأُمم الظالمة والفاسدة قبلكم، وكيف أهلكهم الله بعذابه؟.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ يعني: إن كان طائفة صدقت وآمنت بما جئت به من وجوب العدل في الكيل والميزان ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ أي: كذَّبت واستكبرت عن الحق ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ أي: انتظروا، وهذا على سبيل التهديد والوعيد.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ﴾ أي: يحكم بيننا وبين الذين اختلفوا علي ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: إن حكمه هو الحكم الحق والعدل الذي لاريب فيه.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن المعاملات المالية إذا تجرَّدَتْ من القيم والأخلاق، وتَفَلَّتَتْ من ضوابط التشريع، كانت مضماراً للمطامع، وميداناً للجشع، ومثاراً

للغِشّ والتدليس، وغير ذلك من صور الفساد والفوضى.

- أن الله جعل للمال حرمة كحرمة الدم؛ ذلك أنه المسدد لحاجات الناس ومبتغياتهم، فكان له عندهم محبة كبيرة، كما قال-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]، ولهذا حكم الله أن يتعامل الناس بالعدل والحق، فلا يبخس بعضهم بعضاً؛ وهذا يقتضي ألا يأكل أحد مال آخر، فإن فعل فإنه يُعدّ آكلاً بالباطل، كما قال-تعالى-: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨]، وقد بخس الناس أموالهم مَن غشّهم أو بَاعَهُم بيعاً فيه غبن لهم، أو طفف في الكيل أو الوزن لهم، وقد أفسد في الأرض؛ لأن الله لما قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أعقب ذلك بقوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

- تحريم إخافة المارة في الطرق، والصد عن سبيل الله.

- تحريم الهوى؛ لما فيه من الصد عن سبيل الله.

- أن الرِّضا بِفِعْل الآخرين للمنكر، وإعانتهم على تعاطيه، سببٌ لاستحقاق العذاب.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا

كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

بيان الآيتين:

هذا بيان من الله -عَزَّوَجَلَّ- عن سلوك قوم شعيب مع نبيهم، وتطاولهم عليه، وتهديدهم له بطرده.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ المراد بهم ساداتهم ورؤساؤهم، وهؤلاء غالباً ما يكونون المكذبين برسل الله؛ لأنهم يزعمون أنهم ينزعون منهم قوتهم ورئاستهم في قومهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ يعنى: إن لم تنته عن دعوتنا لنطردنك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾ وفي هذا دلالة على أن قوم شعيب ليسوا كلهم كافرين، بل كان منهم مؤمنون، والمراد بالقرية مدين أو أصحاب الأيكة ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ أي: لتكونُنّ من ضمننا في اتباع ملتنا ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي: لو كنا كارهين لملتكم وكفركم.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا

ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾ قال الزمخشري: «وكيف أجابهم بهذا الجواب والأنبياء-عليهم السلام-لا يجوز عليهم الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟، فلما قالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾ فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾، فغلبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعاً إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب-عليه السلام-جوابه، فقال: ﴿إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾ وهو يريد عود قومه؛ إلا أنه نظم نفسه في جملتهم-وإن كان بريئاً من ذلك-إجراءً لكلامه على حكم التغليب»[١].

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ أي: ولا نرجع إلى الكفر إلا بمشيئة الله، هذا على جهة التسليم لله-عز وجل-، وإلا فهو-سبحانه-لا يرد عباده المؤمنين إلى الكفر، ونظيره قوله-تعالى-على لسان نبيه: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود:٨٨]، وكان من دعاء رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: «اللهم يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك»[٢].

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (٢/١٢٩ - ١٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، (رقم ٣٥٢٢)، والإمام أحمد في المسند، (٤٤/١٣٨)، (رقم ٢٦٥١٩)، وحسنه الترمذي، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: هو العالم بما كان، وما سيكون، لو كان كيف يكون ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: توجهنا إليه بقلوبنا معتمدين عليه ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المراد بهم أهل مدين وأصحاب الأيكة، وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «اقضِ بيننا وبين قومنا»(١).

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن من عادة المستكبرين والكفرة تهديد الدعاة والمصلحين؛ لكي يتركوا دعوتهم، أو يتعرَّضوا للطرد من المكان الذي يدعون إلى الله فيه، وهذه سنة مطردة في كل زمان ومكان، فكما حدث هذا في الماضي يحدث اليوم في الحاضر، وسيحدث في المستقبل.
- أن على الدعاة الذين عرفوا الحق وآمنوا به أن يثبتوا على إيمانهم، ويوقنوا أن الله سوف ينصرهم، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].
- أنه لا يَصِحُّ من أهل الحق -بعد أن عَرَفُوه، ودعَوا إليه- أن يتنكَّروا، ويقبلوا الباطل.

---

(١) التفسير، (١٢/ ٥٦٤).

- أنه يُسْتَحَبُّ رَدُّ المشيئة لله في كل ما عزم عليه المؤمن مستقبلاً.

- وجوب الاستثناء بالمشيئة فيما يريد العبد عمله، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ٢٤﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

- وجوب التوكل على الله، والتضرع إليه أن يحكم بالنصر لعباده المؤمنين على الظالمين.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾.

بيان الآيات:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ أي: قال رؤساؤهم لمن هم دونهم من أتباعهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يعني: إن قبلتم دعوته، واتبعتموه فإنكم هالكون ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ والمراد بها: الزلزال، أو الصيحة من السماء

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: هامدين بعد هلاكهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ المراد: أن الذين كذبوا شعيباً أهلكوا بالرجفة، فكأنهم لم يقيموا في قريتهم التي أرادوا إجلاء شعيب وقومه منها، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «كأن لم يعيشوا فيها»[١].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ والمراد: أن الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الهالكين، وهذا رد عليهم لمَّا قالوا لمن اتبع شعيباً: إنكم إذا لخاسرون.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم بعدما تعرَّضوا للعذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أي: قمت بما يجب عليَّ نحوكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ﴾ أي: أبديت لكم ما يجب عليكم مخلصاً في ذلك، راغبًا في اتباعكم للحق ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي: لا آسف، ولا أحزن على قوم كافرين لم ينتفعوا بالنصح، ولم يهتدوا بما جاءهم من الهدى.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير صد المتبوعين من الرؤساء والسادة أتباعهم عن سبيل الله

---

(١) التفسير، (١٥/٣٨١).

واتِّباع رسله، وتقرير هلاكهم جزاء كفرهم.

- استحباب توبيخ الظلمة على أفعالهم، وعدم الأسى أو الحزن على هلاكهم.

- أنه لا يَصِحُّ من أهل الحق-بعد أن عَرَفُوه، ودعَوا إليه-أن يتنكَّروا، ويقبلوا الباطل.

- أنه يُسْتَحَبُّ رَدُّ المشيئة لله في كل ما عزم عليه المؤمن مستقبلاً.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾ المراد: أن القرية التي أرسلنا إليها نبيّاً، فكذّبه أهلها ﴿أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي: ما يصيبهم في أبدانهم من الأمراض ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: ما يصيبهم من الفقر والجوع، كما ثبت عن السدي في رواية الطبري.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون الله، ويخشونه، ويخافونه،

ويتوبون من ذنوبهم.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: بدَّلْنا أحوالهم، فجعلنا لهم الغنى بعد الفقر، والشبع بعد الجوع، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «مكان الشدة الرخاء»(١).

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: تكاثروا في أموالهم، وأولادهم، وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: «حتى سُرُّوا بذلك»(٢).

﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بعد أن ابتلوا بالشدة ثم بالرخاء، ولم يعتبروا، ولم يغيروا من سلوكهم، فاجأناهم بالعذاب فجأة؛ ليكون ذلك أكثر ألماً لهم.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن ما يُؤَاخِذُ الله به الغافلين من الشدائد والمِحَنِ إنَّما هو من أجل أن تَرِقَّ القلوب القاسية، وتتعظ المشاعر الخامدة، ويتجه البشر إلى خالقهم، فيتضَرَّعوا إليه، ويستغفروه.
- بيان سنة الله في عباده أنه يرسل إليهم رسلاً، فإذا كذبوهم أصابهم

(١) التفسير، (١٢/ ٥٧٤).
(٢) التفسير، (٢/ ٨٥).

الله بالأمراض والفقر، لعلهم يتوبون إليه، فيتوب عليهم، ويبدل أحوالهم، فيغنيهم بعد فقرهم، ويشفيهم بعد أمراضهم، وهذا من رحمته -عَزَّوَجَلَّ- بعباده، أما إذا أصرُّوا على كفرهم واستكبارهم استدرجهم، ثم عاقبهم، كما قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦
أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَ أَمِنَ
أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ
ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ
يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ القرى: جمع قرية، وهي مكان اجتماع عدد من الناس، والمراد بهم: الذين كذبوا الرسل، ويشمل أهل مكة.

﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا بالله ورسوله ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ أي: عبدوا الله حق عبادته، ولم يشركوا به ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أنزلنا عليهم المطر من السماء، وأنبتنا لهم الأرض ليأكلوا من ثمراتها، ونظير هذا قوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦].

وقد نادى نوح قومه أن يستغفروا ربهم حتى ينزل عليهم المطر، كما قال الله على لسانه: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢]. قوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي: كذَّبوا رسلهم، فأخذناهم بالهلاك والعذاب جزاء تكذيبهم.

﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ استفهام إنكاري ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ أي: أأمنوا أن يأتيهم عذاب الله في الليل وقت نومهم وراحتهم؟ ﴿أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ أو أمنوا أن يأتيهم عذاب الله أثناء الضحى، وهم لاهون وسادرون في لهوهم؟ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ استفهام إنكاري-أيضاً-

، المراد: وهل أَمِنوا استدراج الله لهم، وبأسه ونقمته عليهم؟ ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: ولا يأمن أحد استدراج الله لهم وبأسه، إلا من خسر نفسه، وسبب لها الهلاك.

﴿أَوَ لَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ أي: ألم يبيّن للذين خلفوا من كان قبلهم من الأُمم؟.

﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ أي: أهلكناهم بتكذيبهم للرسل، وكفرهم بما جاؤوا به ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: نصيبهم بالعذاب، ونجعل على قلوبهم غشاوة ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي: لا يستجيبون لدعوة تدعوهم، أو موعظة تذكرهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن العباد إذا آمنوا بالله حق الإيمان أنزل عليهم المطر، وبارك في أرزاقهم وأعمارهم؛ فإن كفروا عاقبهم جزاء عملهم.
- أن من سُنَّتِه-سبحانه-فَتْحَ أبواب رحمته للمحسنين، وإنزال نقمه على المكذِّبين الضالين بما كانوا يعملونه.
- في الآية (٩٦) إخبار عن أمر مستقبلي في بيان أهمية الإيمان والتقوى لفَتْحِ البركات من السماء والأرض.
- تحذير العباد من الغفلة واللهو في الحياة، وما يؤدي إليه ذلك من

العقاب المباغت لهم.

- تحريم الأمن من مكر الله، والاستهانة بأوامره؛ لما يؤدي إليه ذلك من الخسران في الدنيا والآخرة.
- وجوب الاتعاظ بما أصاب الأُمم الهالكة بسبب خطيئاتها.
- في الآية (١٠٠) إخبار عن أمر مستقبلي في عقاب الناس الذين يَرِثُون الأرض من أهلها الفاسقين.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ المراد بها: القرى التي قصَّ الله خبرها على نبيه ورسوله محمد-ﷺ-، وهي القرى التي أرسل إليها أنبياءه: نوحاً، وهوداً، وصالحاً، وشعيباً، ولوطاً.

﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾ أي: نبيّن لك أخبارها، وفي هذا تسلية له-عليه الصلاة والسلام-عما لحقه من قومه، مثله في ذلك مثل الأنبياء الذين سبقوه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالأدلَّة والبراهين الواضحة الدالَّة على وجوب توحيد الله.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ المراد: أنهم استمروا على تكذيب رسلهم مصرين على هذا التكذيب ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يطبع الله على قلوب الكافرين مثل طبعه على قلوب هؤلاء الذين كذبوا رسلهم ممن قصَّ الله على نبيه ورسوله أخبارهم.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: ما وجدنا لأكثر الأُمم العاصية التي خلت أنهم وفوا بالعهد الذي أخذناه عليهم في ظهر أبيهم آدم من وجوب عبادتنا، وعدم الشرك بنا، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وثبت عن أُبي بن كعب في رواية ابن أبي حاتم: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ قال: «في الميثاق الذي أخذه في ظهر آدم-عَلَيْهِ السَّلَامُ-».

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي: عاصين لله مكذبين

لرسله وآياته.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن من الخلق من لا يؤمن بالأدلَّة والبراهين الربانية بسبب سيطرة الكفر وطبعه على عقله.
- أن سبب هلاك الأُمم السابقة هو عدم وفائهم بالعهد الذي أخذ عليهم من وجوب عبادة الله، وتوحيده، والبراءة من الشرك به.
- خَطَرُ نَقْضِ العهد مع الله -تعالى-.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾.

بيان الآيات:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ أي: بعثنا موسى من بعد الرسل

السابقين، وهم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بمعجزاتنا، وهي عصا موسى كما سنرى ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ المراد به: ملك مصر حينذاك، ومن معه من قومه ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾ أي: جحدوها، ولم يصدقوا بها، وهم يعرفون أنها حق وصدق، كما قال-ﷻ-: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل:١٤].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: انظر يا نبينا محمدًا! ما كانت عليه عاقبة فرعون من إغراقه ومن معه بسبب فسادهم، وتكذيبهم لموسى وما جاءهم به من المعجزات.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾ لما أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه جرت بينهما مناظرة طويلة قصها الله بقوله-ﷻ-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾ نادى موسى فرعون: ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: لم آتِكم من عندي، وإنما أمرت من رب العالمين آن آتيكم؛ لأبلغكم رسالته إليكم بعبادته وحده، فردَّ فرعون عليه قائلاً: لقد كذبت، فردَّ عليه موسى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي: حق عليَّ ألا أقول لكم إلا الصدق، وأن أبلغ الرسالة التي أرسلني الله بها إليكم.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أتيتكم بحجة وبرهان بَيِّن على صدق رسالتي لكم.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: اترك شأنهم وما هم فيه من الأسر والضيق، واتركهم كذلك يعبدوا ربهم، فلم يتقبل فرعون طلبه، وردَّ عليه: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يعني: إن كان معك آية كما تقول فأرنا ننظر إليها؛ لنعرف مدى صدقك.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ أي: رمى بها أمام فرعون وقومه ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: تحوَّلت إلى ثعبان كبير ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: أخرجها من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ كما قال الله-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل:١٢].

أحكام وفوائد الآيات:

- أن جحود آيات الله كفر بواح، وعاقبته الهلاك.
- بيان ما جرى بين موسى وفرعون من الجدال، واستكبار فرعون عن قبول الحق، وإصراره على الكفر، رغم ما جاء به موسى من البينات الدالَّة على صدقه، كتحول عصاه إلى ثعبان كبير.

- أن الطغاة يجحدون الحق، ويلجؤون إلى الجدال والخصام، رغم قناعتهم في أنفسهم ببطلان حجتهم.

- رِفْقُ الأنبياء وتَلَطُّفُهم في تبليغ الدعوة.

- رَفْعُ الظلم عن المظلومين من أهم مراحل الدعوة؛ لتنجح الدعوات.

- إقامة الله-تعالى-الحجة على عباده بأنواع كثيرة من الآيات، ومنها: المعجزات التي يُجريها الله على يد أنبيائه-عليهم الصلاة والسلام-

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: من خاصته وجلسائه، والقائل ابتداء هو فرعون، أما قومه فصدقوه، أو هم قالوه بعد أن بلغهم أنه قاله؛ لأنه ما كان لهم أن يقولوا ما لم يقله، خاصة أنه معروف ببطشه وتسلطه عليهم.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ﴾ أي: قال لهم: إن موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم، وكان بقوله هذا يريد أن يشجعهم على

مقاومته خاصة؛ لأن إخراجهم من أرضهم ليس بالهين عليهم.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: قال لهم فرعون: وماذا ترون في شأنه؟ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أجّل أمره، وأخّره ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي: ابعث في الأقاليم والأماكن ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أي: من يجمع السحرة منها، وفي هذا دلالة على تفشي السحر في أرض مصر حينذاك ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي: إذا فعلت ذلك فسوف يأتيك من السحرة من هو أعلم من موسى، وأكثر مهارة منه في السحر؛ ذلك أن فرعون وقومه تصوروا أن الذي فعله موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- هو مجرد سحر، وليس آية من آيات الله مما يدل على غبائهم وجهلهم.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن من أسباب الصدود عن الحق ومعاداة دعاته: الحرص على الرئاسة والمال والجاه، والهروب من تكاليف الشرع، كما هي عادة الظلمة والطغاة في كل زمان.
- فَضْحُ أَمْرِ فرعون، فقد نسي دعوى الربوبية، فاستشار الملأ في شأنه؛ إذ الربُّ الحقُّ لا يستشير عبيده فيما يريد فعله؛ لأنَّه لا يجهل ما يحدث مستقبلاً.
- تقرير كفر فرعون وخاصته وجلسائه بالآيات التي جاء بها نبي الله

موسى-عليه السلام-؛ مما جعلهم يتهمونه بالسحر، وبسبب خوفهم من فرعون وبطشه أرادوا التقرب إليه بأن موسى يريد إخراجهم من ملكهم، ونصحهم لفرعون أن ينتظر قليلاً، ويجمع السحرة من أرجاء مصر؛ لكي يغلبوا موسى وسحره؛ لكونهم أعلم منه، وأعظم منه قدرة.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾.

بيان الآيات:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أي: تجمعوا قادمين من الأقاليم كما أريد لهم، وبدؤوا يتعاقدون مع فرعون وقومه على الأجر الذي سوف يدفع لهم في حالة غلبتهم، فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾.

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ أي: أن فرعون وافق على منحهم أجوراً في حال غلبتهم، بل وعدهم أنهم سيكونون من المقربين

عنده، ومن خاصته.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ جعلوا لموسى الخيار بحيث يلقي هو السحر كما يزعمون، ثم قالوا: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ أي: لا مانع من أن تبدأ أنت، أو نبدأ نحن، فأجابهم موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾ أي: ابدؤوا أنتم أولاً، فاستجابوا لذلك ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ أي: لما ألقوا حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: خيلوا لهم أن ما فعلوه حقيقة ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ أي: أرهبوهم، وأخذوا عقولهم بما رأوه من التمويه عليهم ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في ظاهره، ولكنه ليس عظيماً في حقيقته؛ لأنه مجرد تمويه.

أحكام وفوائد الآيات:

- جواز الاستئجار للعمل، وأخذ الأجرة عليه، كما قال-تعالى-على لسان ابنة شعيب:﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾[القصص: ٢٦]، والاستئجار للعمل وأخذ الأجرة عليه مقيد بشرطين:

أولهما: ألا يكون الاستئجار للعبادة إلا ما اقتضته الضرورة، كأخذ الأجرة في النيابة في الحج، أو عدم وجود مصدر رزق لمن يقوم بعمل من أعمال العبادة كالأذان.

وثاني الشرطين: أن يكون محل العمل مشروعاً، فلا يجوز الاستئجار ولا أخذ الأجرة إذا كان المحل محرماً، كاللهو، والسحر، والأعمال الباطلة.

- تقرير تأثير السحر، كما قال-تعالى-: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢].

﴿۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾ هذا إخبار من الله-تعالى-أنه أمر موسى أن يلقي عصاه ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: تلتهم حبالهم وعصيهم وما كان معهم من وسائل السحر، وعندئذٍ تبين للسحرة أن موسى ليس ساحراً، وأن الذي رأوه آية من آيات الله، ومعجزة من معجزاته، وفي هذا قال الله-تعالى-: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تبيَّن وظهر لهم الحق.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: عرفوا بطلان عملهم في السحر.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أي: انهزموا في ذلك المشهد ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أي: صاروا أذلَّاء بعدما تبين للناس ما جاء به موسى من الآية العظيمة الدالَّة على أنه رسول من عند الله.

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي: خرُّوا ساجدين بعدما رأوه من ضخامة الثعبان، وتلقفه لما كان بأيديهم من وسائل السحر، وعندئذٍ قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: آمنا وصدقنا برب موسى وهارون ورب الخلق أجمعين، وقد آمن معهم أناس آخرون، ولما رأى فرعون ما رأى من خروجهم من ملته ومن طاعته، ودخولهم في دين الله، اشتد حقده عليهم، وجرت بينهم وبينه مناظرة، كما سيأتي.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير حقيقة المعجزات التي جاء بها موسى -عليه السلام- إلى فرعون.
- أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وأن الباطل مهما كانت قوته لا يصمد أمام الحق.
- أن السحر عمل باطل وكفر وظلم.
- أنه في المناظرة يحسن تقديم الخصم، فإذا أظهر ما عنده كَرَّ عليه

بالحُجَجِ والبراهين، فأبطله، وظهر الحق، وانتصر على الباطل، وهذا الأسلوب الذي اتبعه موسى إنما هو بتوفيق من ربه-تعالى-، فلم يكن ذلك من موسى-عليه السلام-أمراً لهم، أو إقراراً بِفِعْلِ السحر، بل أراد أن يَقْهَرَهم بالحُجَّةِ، ويظهر لهم أنَّ الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به.

- أن بيان الحق للعصاة قد يكون سبباً لهدايتهم، كما حدث مع السحرة الذين جاء بهم فرعون من آفاق مملكته، فانقلبوا عليه لَمَّا تبين لهم الحق الذي جاء به موسى-عليه السلام-.
- بيان سنته-تعالى-في أنَّ الحق والباطل إذا التقيا في أيِّ ميدان، فالغلبة للحق دائماً.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾ أي: قال

فرعون للسحرة: آمنتم بموسى دون إذنيظ، وهذا تهديد ووعيد لهم على ما فعلوا، ثم قال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: إن ما حدث من موسى كان بالتشاور والاتفاق معكم.

﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: إنكم اتفقتم مع موسى لإخراج أهل مصر، حتى تكون له ولكم الغلبة والسلطة فيها ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد ووعيد لهم، ثم قال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: أقطع أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ أي: سوف أصلبكم على الخشب، أو على جذوع النخل، فكان فرعون بفعله هذا أول من قطع من خلاف، وصلب على الأعواد ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: كل السحرة ومن آمن معهم.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: مهما عذبتنا فإننا تائبون عما فعلنا من السحر، وقد رجعنا إلى ربنا، وآمنا به، وبما جاء به موسى من عنده.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ هذا جواب منهم لفرعون: بأنك ما نقمت علينا إلا لما آمنا بآيات ربنا لما

جاءتنا على لسان موسى، فليكن هذا الانتقام منك، ولا نبالي به، ثم توجهوا إلى ربهم مما يحيكه لهم فرعون من التهديد، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي: أنزل علينا الصبر والاحتمال عندما يفعل بنا فرعون القطع والصلب ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ أي: أَمِتْنا ونحن على دين الإسلام.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنّ الطغيان إذا سيطر على الإنسان أعماه عن إدراك الحقائق، فلا يبالي حينئذٍ بما يفعل من الكذب والظلم.
- أن الإيمان يجعل صاحبه أكثر صلابة، وأشد قوة، فلا يبالي بما يفعله به الطغاة.
- أن مما يُثَبِّتُ المبتلَى ويُقوِّيه في مواجهة الطغاة: أن يستحضر منقلبَه لربه، فإنَّ هذا ممَّا يربط على القلوب، ويُقَوِّي العزائم.
- وجوب سؤال الله الصبر عند حدوث البلوى، كما قال-ﷻ-: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].
- استحباب دعاء المسلم ربَّه أن يتوفاه على دين الإسلام، وأن تكون خاتمته عليه.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ
وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ
إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨
قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ
رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ
كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾.

بيان الآيات:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: من خاصته وجلسائه وبطانته، يحثونه على الانتقام منهم بقولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: إن تركتهم على حالهم هذه فسوف يفسدون عليك ملكك، ويفرقون رعيتك.

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ أي: يتركك موسى وأتباعه، قيل: إن فرعون كان يعبد الأصنام، وقد صنع أصناماً له، وسخَّر الناس لعبادته، وقد حكى الله ذلك عنه بقوله-عزَّ ذكره-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، وقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ

ﵟٱلۡأَعۡلَىٰﵞ [النازعات:٢٤]، فأجاب قومه بقوله فيما حكاه الله عنه: ﵟسَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡﵞ أي: سنقتل أطفالهم ﵟوَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡﵞ أي: نتركهنَّ للخدمة.

ﵟوَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَﵞ أي: لنا عليهم الغلبة والقهر، فلا نخشاهم ﵟقَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖﵞ أي: لا خيار لكم أمام فرعون وقوته إلا أن تستعينوا بالله؛ لأنه وحده الذي يعينكم على أن تصبروا على ما تلاقونه منه من الظلم.

ﵟإِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖﵞ يعني: إن الأرض أرض الله، فهو المالك لها، والمتصرف فيها، ويورثها لمن يشاء من عباده، ويختار، والمعنى: أن أرض مصر ليست لفرعون وقومه، وإنما هي ملك لله ﵟوَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَﵞ أي: إن العقبى لا تكون للظلمة والمعاندين لله ولرسوله، وإنما تكون لأولياء الله الذين يؤمنون به، ويصدقون رسله.

ﵟقَالُوٓاْﵞ أي: قال بنو إسرائيل لموسى: ﵟأُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚﵞ أي: لاقينا الأذى والهوان وقتل أولادنا من فرعون قبل مجيئك بالرسالة، وبعد مجيئك بها، فلا زال يمتهننا، ويستعبدنا، ويتسلط علينا؛ فأجابهم موسى فيما حكاه الله عنه بقوله:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ أي: لعلَّ ربكم أن يهلك فرعون وبطانته ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يمكن لكم فيها ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ينظر ما إذا كنتم تطيعونه وتشكرونه على نعمه أم تكفرون بها؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير فساد بطانة فرعون وخاصته حين حثوه على الاستمرار في عداوة موسى، وهذا يقتضي وجوب اختيار الحكام والولاة للبطانة الصالحة والجلساء الصالحين، والبعد عن البطانة الفاسدة التي تزين لهم الباطل، وتحثهم عليه، وتعادي الحق، وتنهى عنه.
- وجوب الاستعانة بالله عند الشدائد، والصبر عليها، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].
- تقرير صبر الأنبياء-عليهم السلام-على قومهم، ووعدهم لهم بنصر الله إذا استمروا على إيمانهم، وصبروا على ابتلائهم.
- تثبيت المؤمنين بذِكْرِ حسن العاقبة، والتبشير بوعد الله لأوليائه أهلِ الإيمان والتقوى، والتذكير بسننه-تعالى-.
- أن التمكين في الأرض نصرٌ من الله، كما أنَّه ابتلاء يحتاج إلى عمل

وشكر.

- أن الأرض ومن فيها ملك لله-ﷻ-، يورثها من يشاء من عباده، كما قال-عزَّ ذكره-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم:٤٠].

- تقرير صبر الأنبياء-عليهم السلام-على قومهم، ووعدهم لهم بنصر الله إذا استمروا على إيمانهم وصبروا على ابتلائهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ أي: بلوناهم بالجدب والقحط ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: قلة بركة فيها ﴿لَعَلَّهُمْ

يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي: لعلَّهم يتعظون، ويرجعون إلى الله ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ أي: إذا أنعم الله عليهم بالمطر وخصب الأرض ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ ﴾ أي: أعطينا هذا لما نستحقه .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾أي: يصابوا بالجدب أو الأمراض ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾ أي: يتشاءموا بهم، ويقولوا: لولا هذا ومن معه ما أصبنا بما نحن فيه ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: إن ما يأتيهم من خير وشر إنما هو من عند الله، وبحكمته في خلقه.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا يعلمون حكمة الله.

لقد مكث موسى-عليه السلام-يدعو فرعون وقومه أكثر من عشرين سنة، وقد أكدوا له أنهم لن يقبلوا، ولن يصدقوا ما جاء به، وشاهده: ما حكاه الله عن فرعون وقومه: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ أي: أيّ آية جئتنا بها لن نؤمن لك، وقولهم: ﴿ ءَايَةٍ ﴾ على سبيل قوله: إنها آية، أما هم فلا يرونها آية، بل يرونها سحراً ﴿ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ أي: لتصدَّنا عما نحن فيه ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: مصدقين.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ الطوفان: المطر الكثير، وقيل: إنه دام عليهم ثمانية أيام، لا يرون فيها الشمس ولا القمر، ولا يخرجون

من دورهم[١] ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ معروف ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ أي: السوس الذي يتعرَّض للحنطة، أو هو الدبى صغار الجراد الذي لا أجنحة له، والجراد في عمومه معروف بأكل النبات ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ حيوان يعيش في المياه الراكدة ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: ما يخرج من الجسد ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: خمس بينات للعيان، هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: عاندوا، واستنكفوا عن عبادة الله .

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بسبب عدم إيمانهم بهذه الآيات؛ ذلك أن موسى-عليه السلام-لما سأل فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل فأبى، أرسل الله على فرعون وقومه الطوفان-وهو المطر-، فخافوا أن يكون هذا عذاباً لهم، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ما نحن فيه، فإن رفعه آمنا بك، وصدقناك، وأرسلنا معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فاستجاب له، فطلب منهم موسى أن يؤمنوا بما وعدوه، فنكثوا عهدهم، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل زروعهم ونباتهم وأشجارهم، فأتوا موسى، وواعدوه إن رفع الله عنهم الجراد آمنوا به، وأرسلوا معه بني

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، (ص٥١٤)، وانظر: قصص الأنبياء لابن كثير، (ص٢٦٧-٢٦٩)، والبداية والنهاية لابن كثير، (٣٠٨/١).

إسرائيل، فدعا ربه، فاستجاب له، ثم طالبهم موسى أن يوفوا بوعدهم، فلم يفعلوا، فأرسل الله عليهم القمل -وهو سوس الحنطة-، فطلبوا من موسى أن يرفع الله عنهم ذلك الأذى، فرفعه عنهم، فلم يوفوا بوعودهم، وهكذا تمت خمس آيات، وهم يعدون موسى، وينكثون بما وعدوه[١].

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير التدرج في العقوبة؛ ذلك أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- ينبه عباده بما يصيبهم به من الشدائد كالقحط، لعلهم يتذكرون، فيتوبوا إليه، فإن تابوا تاب عليهم، وبدل ضعفهم قوة.
- تحريم التطير والتشاؤم بالأشخاص أو الأولاد أو غيرهم؛ لأن السبب فيما يحدث للعباد من شدة وبلاء مرجعه إلى المعاصي، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].
- كفر فرعون وقومه رغم البينات والمعجزات التي جاء بها موسى إليهم.
- أن الشدائد من شأنها أن تُرَقِّقَ القلوب، وتُصَفِّيَ النفوس، وتُرَغِّب في الضراعة إلى الله، وتدعو إلى اليقظة والتفكير، ومحاسبة النفس

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٦/ ٣٤ - ٣٩)، وتفسير القرآن العظيم، (٢/ ٢٣٠ - ٢٣٢).

على الخطايا اتقاءً للبلايا.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ
يَنكُثُونَ ١٣٥ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ أي: العذاب ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ أي: بما عهد به إليك، والمراد: النبوة ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ أي: العذاب الذي حلَّ بنا ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ أي: نصدق ما قلت ونتَّبعك ﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كما طلبت ذلك ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي: الأجل الذي حدَّد لهم ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ أي: يخلفون ما وعدوا به ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أي: جازيناهم على نكثهم العهد.

﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾

أي: أغرقناهم في البحر جزاء تكذيبهم بالآيات، وجزاء نقضهم لما

كانوا يَعِدُونَ به موسى من الإيمان به، وإرسال بني إسرائيل معه.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الغالب في الطغاة والظلمة أنهم عندما يتعرضون للشدائد يلجؤون إلى الله لكشف ضرهم؛ فإذا كشفه الله عنهم فمنهم من يشكره، ويؤمن به، ويثبت على إيمانه، ومنهم من يعود إلى ضلاله، كما قال-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥].
- أن سبب ضلال الضالين هو تكذيبهم بآيات الله، والغفلة عنها، والاستهزاء بمن يدعوهم إلى الله؛ مما يقودهم إلى الهلاك.
- أن الجحود والغفلة مع توارد الآيات دليل على قسوة القلب، وفساد الفطرة.

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ﴾ المراد بهم بنو إسرائيل الذين كانوا مؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ يعني: كانوا مسخرين للخدمة في زمن فرعون ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ قد يكون المراد بها: الأرض التي سكنوها زمن مملكة سليمان -عليه السلام-، ثم رحلوا عنها، أو يكون المراد: الأرض التي تفرقوا فيها شرقاً وغرباً بعد زوال هذه المملكة، كما هي حالهم الآن ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ أي: بما أنزل الله فيها من البركة في الثمار وخصب الأرض.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: منَّة الله عليهم بإغراق فرعون وجنده ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ أي: جزاء صبرهم على ما نالهم من الأذى والاستعباد من فرعون.

﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾

أي: بإهلاك فرعون وجنده، ثم تدمير كل ما صنعه أو بناه من القصور والبساتين المعرشة، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ «قال: يبنون»(١).

أحكام وفوائد الآية:

- خَتْمُ قصة موسى مع فرعون وقومه بذِكْرِ ما أصاب الظالمين

(١) التفسير، (١٣/ ٧٩).

والغادرين من دمار وخراب، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلافٍ في الأرض؛ ليكون ذلك عِظَةً وعِبْرَةً للعالمين، فهي سُنَّةٌ كونية لرب العالمين.

- أنه عدل عن الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ﴾ لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب، ومثله ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾، والأصل: ما صنعوا، وما عرشوا.

- أن سنة الله وحكمته في خلقه اقتضت أن من آمن به واتقاه يمكّن له في الأرض، كما قال-ﷻ-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ [النور:٥٥]، وهذا أمر عام في كل البشر في كل أزمانهم وأماكنهم.

قلت: وما كانت هذه النعم لبني إسرائيل إلا بسبب إيمانهم في ذلك الزمان بما جاء به موسى من وجوب توحيد الله وطاعته، وبسبب كفر فرعون، ومعاندته لله، وجحوده لآياته، ولم يكن هذا حبًّا لهم أو كرامة لهم، أو خصوصية لهم، ولكنه الإيمان، فمن آمن بالله استحق جزاء إيمانه بالحسنى، ومن كفر به استحق جزاءه

بالعذاب، ولهذا لما كفر بنو إسرائيل بما جاءهم به نبي الله عيسى- عليه السلام-استحقوا جزاءهم، فلم يعد لهم ميراث معين في الأرض المذكورة، بل عادوا إلى تيههم كما كانوا من قبل، فالأساس في كل الأحوال هو الإيمان بالله وطاعته، بصرف النظر عن نسب المؤمن وجنسه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: قطعناه بهم، وأُغرِق فرعون وقومه ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ﴾ معنى (يعكفون) أي: يلازمون عبادة هذه الأصنام، وقد أغرى ذلك بني

إسرائيل رغم أن الله قد نجَّاهم في ذلك الوقت، فلم يشكروه على ما أنعم عليهم، بل أرادوا عبادة البقر.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أي: طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها من دون الله، كما هو حال من رأوهم يعبدونها، وقد حذَّر النبي-ﷺ-من ذلك فيما رواه الترمذي عن أبي واقد الليثي: «أن رسول الله-ﷺ-لما خرج إلى خيبر مرَّ بشجرة للمشركين يُقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال النبي-ﷺ-: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، والذي نفسي بيده لتركبنَّ سُنَّة من كان قبلكم»[1].

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: إنكم جهلة ضالون، وإلا فكيف تطلبون هذا الطلب، والله قد نجاكم، ورأيتم من آياته ما رأيتم، ولعلَّ في إخبار الله لرسوله محمد-ﷺ-بما فعله بنو إسرائيل تسلية له مما عايشه من اليهود في المدينة، وكيدهم له.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: إن ما يفعله أولئك من عبادة

(١) أخرجه الترمذي في السنن، (٤/٤٧٥)، كتاب الفتن، باب ما «جاء لتركبن سنن من كان قبلكم»، (رقم ٢١٨٠)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، الإحسان، (١٥/٩٤)، (رقم ٦٧٠٢)، وصححه الألباني.

الأصنام عمل خاسر، وسوف يجزون عليه بالعذاب ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: إن عبادتهم لغير الله عمل باطل، وهو يضرهم، ولا ينفعهم.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾ استنكار وتعجب، أي: هل أطلب لكم إلَها غير الله-تعالى-؟﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المراد بالتفضيل هنا: إهلاك عدوهم فرعون في زمنهم، وليس المراد: تفضيل جنسهم ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ في هذا تذكير لليهود الذين كانوا في المدينة يناصبون رسول الله-ﷺ-العداوة، فخاطبهم الله بما منَّ به على أسلافهم من نجاتهم من فرعون، وتعذيبه لهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ أي: إن إنجاءهم من فرعون كان ابتلاء لهم لمعرفة شكرهم، فلم يشكروا، بل كفروا بما جاءهم من البينات.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنه كان أمر أسلاف بني إسرائيل عجباً، فقد أهلك الله عدوهم، ونجاهم، وقد دعاهم نبيهم إلى عبادة الله، وتوحيده، ولكنهم طلبوا منه أن يجعل لهم إلَهاً يعبدونه، مما يدل على جهلهم، ومن المؤسف حقًّا أن الجهل هو السبب في فساد عقائد الكثير من البشر، ومنهم:

بعض المسلمين الذين يتقربون إلى الأموات، ويدعونهم، ويتصورون أنهم يشفعون لهم، ويكشفون شدائدهم.

- وجوب إنكار المنكر، وإعلان بطلانه، وتبصير أصحابه بما يجب عليهم بما هم فيه من النعم؛ ليشكروا المنعم بها، أو تذكيرهم بما أصابهم من البلاء؛ ليتعظوا ويتوبوا.

- أن الله -تعالى- يبتلي بالخير والشر، وفي كل ذلك خير لِمَنْ صبر وشكر.

﴿۞وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾.

بيان الآية:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ المراد: أن الله -تعالى- واعد موسى أن يناجيه في جبل الطور بعد أن يصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة.

﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ﴾ أي: أتم عشراً من ذي الحجة؛ لتكون مدة صيامه أربعين يوماً[1].

(١) تفسير البغوي، (٢/٥٠٠)، وتفسير القرآن العظيم، (٢/٢٣٣).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي: كن خلفي فيهم، وذلك بعد غيابه لمناجاة الله ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أي: تعهَّد أحوال بني إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: اثبت على ما عندك من الهدى، ولا تتبع سبيل من يريد منهم إفسادك.

أحكام وفوائد الآية:

- مشروعية تحديد المواعيد، ووجوب الوفاء بها.
- أنه يجب على الحاكم إذا غاب عن رعيته أن يستخلف فيهم من هو أهل للخلافة والصلاح، واتباع سبيل المؤمنين، واجتناب سبيل المفسدين، والصلاح والابتعاد عن الفساد واجب في كل حياة العبد، حتى يكون متبعاً سبيل الله، مجافياً ومنكراً لسبيل الظالمين.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ

مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ المراد: الموعد الذي وعد الله له ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي: أرجو أن أنظر إلى ذاتك العلية.

﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ أي: لن تراني في الدنيا ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ أي: انظر إلى جبل الطور ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ المراد: أن الله أوحى إليه أن رؤيته له-جلَّ وعلا-مستحيلة في الدُّنيا؛ لأن الجبل بعد رؤية الله سوف يتحول إلى ركام، ولهذا قال-جلَّ ذكره-: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: لما ظهر الله للجبل تحول إلى ركام، وبعده رأى موسى ما رأى، فسقط مغشيًّا عليه، وهو معنى قول الله-عزَّ ذكره-: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾أي: لما ذهب عنه الغشيان والإغماء قال: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: إجلالاً وتعظيماً لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: تبت من سؤالي رؤيتك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنا أول من يؤمن بأنه لا

يراك أحد في الدنيا، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: «أنا أول قومي إيماناً»[١].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: اخترتك على أهل زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ أي: بإنزال التوراة عليك، ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ أي: بتكليمي لك، وكما خصَّ الله موسى بكلامه خصَّ رسوله ونبيه محمداً-ﷺ-بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل شريعته آخر الشرائع، ودينه آخر الأديان، فهو أشرف الأنبياء والمرسلين، ويأتي بعده إبراهيم ثم موسى-عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام-.

﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ أي: ما أعطيتك من شرف النبوة والرسالة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: من المقرين بفضلي عليك، وإحساني إليك.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ المراد بالألواح: التوراة، ففيها كل شيء يحتاجه بنو إسرائيل في زمانهم من الأحكام، والقواعد التى تبين لهم الحلال والحرام ﴿مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: جاءت مفصلة لكل ما أمروا به من أمر الدين والدنيا.

---

(١) التفسير، (١٣/ ١٠٤).

﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ أي: خذ التوراة بعزم ونشاط ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ أي: مُرْهُمْ بتدبرها، والعمل بأحكامها كما وردت ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه، وما حل بهم من الهلاك والإغراق في البحر.

أحكام وفوائد الآيات:

- استحالة رؤية الله في الدنيا، وإمكان رؤيته-جلَّ جلاله-في الآخرة، وهذا غاية ما يتمناه عباده المؤمنون وهم في دار كرامته.
- كرامة الله لنبيه موسى باختياره على أهل زمانه، وإنزال التوراة عليه، وتكليمه له.
- أن التوراة فصلت لأسلاف بني إسرائيل أحكام دينهم ودنياهم في زمانهم.
- أن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب عند قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ للمبالغة في الحَضِّ على نهج سبيل الصالحين، والأصل أن يقال: سَأُريهم.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿١٤٧﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾

المراد: سأحرم الذين يستكبرون في الأرض من فهم آياتي، فيطبع الجهل والضلال على قلوبهم، فلن ينتفعوا بشيء من هديي، ثم بيَّن ذلك بقوله-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ أي: بسبب تكبرهم تختلط أفهامهم، وتضل عقولهم، فيتبعون طريق الضلال، ويتركون سبيل الرشاد، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

ثم بيَّن-عَزَّ وَجَلَّ-السبب في ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: جحدوها وأنكروها ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: غير ناظرين ولا متفكرين فيها، فهم في غفلة عنها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ أي: خسرت أعمالهم وأفعالهم، فلا ينتفعون بشيء منها.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أنهم يجزون بما كسبوا، فإن كان عملهم خيراً كان لهم جزاؤه، وإن كان شرًّا كان لهم كذلك جزاؤه.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن الاستكبار والطغيان في الأرض يصرف أصحابه عن فهم آيات الله وهديه.
- أن مِنْ شأن مَنْ تربَّى على الضلال، وانغمس في الشرور والآثام، أنه لإلْفِه المنكراتِ يصير الحَسَنُ عنده قبيحاً، والقبيحُ حَسَناً.
- في الآية (١٤٦) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله-عَزَّوَجَلَّ-سيَصْرِفُ قلوب المتكبِّرين عن طاعته، والمتكبِّرين على النَّاس بغير الحقِّ عن فَهْمِ الحُجَجِ والأدلَّة الدالَّة على عظمته وشريعته.
- أن التكذيب بآيات الله والغفلة عنها سبب شقاء العبد في الدنيا والآخرة.
- أن التكذيب بآيات الله، وإنكار البعث يحبط العمل، ويوجب له العذاب.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ

ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ
يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

بيان الآيتين:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: بعد أن خرج موسى إلى الطور لمناجاة ربه اتخذوا ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ أي: من حلي نسائهم ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ ذلك أن السامري طلب إعطاءه حليهم؛ لأنه غنيمة من نساء الأقباط لا تحل لهم، فجعله على شكل عجل قائم له خوار، أي: له صوت يشبه صوت خوار البقر، وقد نتج هذا الصوت من دخول الريح فيه، وقال لهم: هذا إلَهكم وإلَه موسى، فاعبدوه، فعبدوه، فقال الله لموسى عند مناجاته: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ﴾ أي: ألم يكن لهم عقول يفقهون بها أن هذا مجرد جسد لا يكلمهم ﴿وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾ أي: لا يدلهم على هدى ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي: عبدوه إلَهاً لهم ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: إنهم بفعلهم هذا ظلموا أنفسهم، حيث إنهم أشركوا مع الله.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: لما عرفوا أنهم أذنبوا ندموا على ما

فعلوه ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ أي: انحرفوا بما فعلوه من الإشراك مع الله.

﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: قالوا في أنفسهم وفيما بينهم: إن الله إن لم يرحمنا برحمته، ويغفر لنا خطيئتنا لنكونن من الهالكين.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير غلبة الجهل على عقول أسلاف بني إسرائيل حين أطاعوا السامري، فعبدوا العجل الذي صنعه لهم، وقال: هذا إلَهكم وإلَه موسى، مع أن نبيهم موسى علَّمهم عبادة الله وتوحيده.
- وجوب يقظة العبد من غفلته، والتحلل من خطيئاته، وسؤال الله أن يرحمه، ويغفر له ما مضى من سيئاته.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ في هذا إخبار من الله -تعالى- أن موسى لما رجع من مناجاة الله في الطور غضب غضبًا شديداً، لما رآهم فيه من عبادة العجل من دون الله، كما أخرج الطبري بسند حسن عن السدي: ﴿أَسِفٗا﴾ «قال: حزيناً»(١).

﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ هذا فيه توبيخ وتقريع لهم، أي: بئس ماعملتموه من بعدي، فكنتم خلف سوء.

﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ أي: سبقتم أمر ربكم، وهو عودتي إليكم بعد الموعد الذي قدره الله.

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ أي: رماها، وفي هذا دلالة أنه -عليه السلام- غضب لما رآه من قومه، فرمى الألواح من شدة الغضب، ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ أي: أمسك بشعر هارون.

﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ من شدة الغضب، ظنًّا منه أنه قصر في خلافته، مما جعلهم يعبدون العجل.

---

(١) التفسير، (١٣/ ١٢١).

﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾ القائل هارون لأخيه موسى، وقد ناداه باسم أُمه، ربما لعزتها عليهما جميعًا، مع أنه ابن أُمه وأبيه، أو لاستعطافه؛ لرقة جانب الأُم وحنانها.

﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ أي: استقووا عليَّ ﴿وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾ أي: قاربوا قتلي ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ أي: لا توبخني، ولا تغضب عليَّ؛ فإن ذلك يجعل بني إسرائيل يشمتون بي ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تنظر إليَّ وكأنني مع هؤلاء الذين عبدوا العجل، فأنا كنت ضد فعلهم، ولكن لم أستطع ثنيهم عما كانوا يفعلون.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ لما سكن غضب موسى مما رأى من قومه جعل يرضي أخاه هارون، حتى لا يشمت به بنو إسرائيل، فطلب من ربه أن يغفر له ولأخيه مما قد يكون من تقصير منهما في الخلافة.

﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ تكرار لدعائه-عليه السلام-أن يشمله الله وأخاه ومن آمن معهما برحمته، فإنه لا راحم إلا هو.

أحكام وفوائد الآيتين:

- تقرير أنّ الإنسان قد يتعرض للغضب نتيجة حادثة أو أمر تعرض

له، ويختلف الناس فيه، فمنهم: من هو حاد في غضبه، ومنهم: من هو دون ذلك، والأنبياء-عليهم السلام-قد يغضبون، مثلهم في ذلك مثل البشر، ولكنهم لا يغضبون إلا من أجل دين الله، ففي حديث عقبة بن عامر-رضي الله عنه-: «أن رجلاً جاء إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-، فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان؛ مما يطيل بنا فيها، قال: فما رأيت النبي-صلى الله عليه وسلم-قد اشتد غضباً في موعظة منه يومئذٍ، قال: «يا أيها الناس! إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليوجز؛ فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة»[(١)].

- استحباب الاعتذار عن الخطأ، واستحباب قبوله إذا توافرت شروط هذا القبول.

- تحريم الشماتة بالمخطئ، وعلى المخطئ أن يدعو الله أن يغفر له خطيئته، ويتوب عليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله، (رقم ٦١١٠)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب: أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (رقم ٤٦٦).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ١٥٤﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: إن الذين عبدوا العجل أنزل الله عليهم غضبه، فأمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، كما قال-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:٥٤].

﴿وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: هوان ومسكنة، أو الشتات والتفرق في البلدان ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي: الذين يشركون مع الله غيره.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المراد: أن الذين ارتكبو السيئات كعبادة العجل ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ﴾ أي: حققوا التوبة بشروطها، وآمنوا بالله حق الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يمحو سيئاتهم، ويتجاوز عن خطيئاتهم، فهو يفرح بتوبة عباده، وإنابتهم إليه.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أي: لما هدأت نفسه، وسكن

غضبه ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ التي رماها لما وجد قومه بعد رجوعه من الطور يعبدون العجل ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى﴾ أي: هدى للمهتدين بها من الضلالة ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ من عذاب الله ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ أي: يخافون ويخشونه.

أحكام وفوائد الآيات:

- وعيد الله للذين يعملون السيئات، أما إذا تابوا منها بشروط التوبة فإن الله يتوب عليهم، بل يبدل سيئاتهم حسنات.
- أن الكتب التي أنزلها الله لعباده على لسان رسله كلها هدى ورحمة.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ
ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي
مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥
۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ
قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ
فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا
يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ

مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾.

بيان الآيات:

ما زال السياق في بني إسرائيل، فقوله-تعالى-: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ ذلك أن موسى-عليه السلام-لما رجع من الطور، ورأى ما رأى من قومه من عبادة العجل، جعل الله له موعداً يأتيه فيه مع سبعين من خيار بني إسرائيل؛ لطلب التوبة منه عما فعله قومهم، فلما وصلوا إلى الطور عمت الجبل غمامة كبيرة، فأخذ موسى يناجي ربه، وهم يستمعون له، فعندئذ قالوا لموسى: لن نؤمن بأن ربك هو الذي يكلمك حتى نراه جهرة، فغضب الله من قولهم، فنزلت بهم صيحة أهلكتهم، وهو قوله-تعالى-: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي: الصيحة.

﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ أي قال: لو شئت يا رب لأهلكتنا جميعًا قبل أن نأتي إلى هنا؛ حتى لا يتهمني بنو

إسرائيل بأني تسببت في موت خيارهم.

﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ أي: بما فعله سفهاؤنا من عبادة العجل ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ أي: اختبارك وابتلاؤك لنا.

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي: تضل بالفتنة من تشاء من عبادك ﴿وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ فلا هادي إلا أنت، ولا مضل إلا أنت ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: ناصرنا .

﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ أي: اغفر لنا ما كان من سفهائنا، واشملنا برحمتك، فأنت خير الغافرين، وأرحم الراحمين، لا غافر ولا راحم إلا أنت.

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً﴾ أي: اقسم لنا فيها حياة كريمة، وتوفيقاً لمرضاتك ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: الجنة.

﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ أي: تبنا وآتينا إليك ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ أي: أصيب به من يستحقه ممن يعرض عن الحق ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ أي: هي عامة، لا حدود لها، وفي هذا قال رسول الله-ﷺ-: «إن لله-عَزَّ وَجَلَّ-مئة رحمة، أنزل منها رحمة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها

تعطف الوحوش على ولدها، وأخر تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»[١].

وقد تطامع لها إبليس، فقال: أنا من الأشياء، فأبعده الله منها بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: سأعطيها للذين يتقون الله، ويوحدونه، ويطيعونه، ولا يستكبرون عن عبادته، والتقوى: إطار شامل لكل ما وجب على المسلم من صلاة وصيام ونحو ذلك.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: الذين يؤدونها طيبة بها نفوسهم، ومع أنها داخلة في عموم التقوى، إلا أن الله خصها بالذكر لأن إخراج المال مما يثقل على النفس، فمن أخرجها طيبة بها نفسه كان من المتقين ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون، وقد تطامع لها أهل الكتاب، فقالوا: نحن أهل التقوى، فبيَّن الله من يستحقها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ لما ذكر الله-جلَّ وعلا-أنه سيكتب رحمته للمتقين الذين يؤدون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآياته، نعتهم بأنهم يتبعون الرسول، وهؤلاء هم أُمة محمد-ﷺ-ممن آمن به، واتبعه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: الرجاء مع الخوف، (رقم ٦٤٦٩)، ومسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله-تعالى-، وأنها سبقت غضبه، (رقم ٢٧٥٢)، واللفظ له.

والأُمي هو: الذي لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يعرف الحساب، وهذه من صفات رسول الله-ﷺ-، كما قال الله-عز وجل-: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨][١].

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ أي: موصوفاً فيهما، وفي هذا روى البخاري عن محمد بن سنان عن فليح، قال: حدثنا هلال عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله-ﷺ-في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبي! إنا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وحرزاً للأُميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله-تعالى-حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلَه إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذانا صمًّا، وقلوباً غلفاً»[٢].

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: هذا هو شأن وصفة رسول الله-ﷺ-، يأمر أُمته بالمعروف، وهو كل عمل فيه خير،

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، (ص ١٣٨-١٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله-تعالى-: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، (رقم ٤٨٣٨).

وينهاهم عن المنكر، وهو كل عمل فيه شر.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أي: يحل لهم ما أحل الله لهم من الطيبات، كما قال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، ويحرم عليهم الخبائث، وهو كل ما هو مستقذر كالدم، ولحم الخنزير، والميتة، ونحو ذلك مما حرمه الله، كما ثبت عن ابن عباس في رواية الطبري.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الإصر: الحمل الثقيل، وهذا على خلاف ما كان عليه بنو إسرائيل، فإذا أصاب البول ثوب أحدهم قرضه، وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار فأهلكتها، وإذا حاضت نساؤهم لم يقربوها، وأمروا بقتل أنفسهم من أجل توبتهم، وتحريم العمل عليهم يوم السبت، أما شريعة محمد -ﷺ- فكلها يسر ورحمة، فقد أحلّ الله لها الغنائم، ومؤاكلة الحائض، وغسل البول بالماء، وقد بين الله ذلك في قوله -عزَّ ذكره-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال الله بعد كل سؤال: «قد فعلت، قد فعلت»[١].

هذا في الكتاب، أما السنة فقول رسول الله-ﷺ-: «إن الله تجاوز عن أُمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٢]، وقوله-عليه الصلاة والسلام-: «إن الله تجاوز لأُمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تكلم»[٣].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ يعني: صدَّقوا به ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ المراد به القرآن، وما أوحى الله إليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون في الدنيا والآخرة.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنّ في كل قوم سفهاء، ومن الواجب على قومهم سؤال الله-عَزَّ وَجَلَّ-ألا يؤاخذهم بما يفعل سفهاؤهم، هذا مع وجوب الإنكار عليهم.

- أن على العبد أن يسأل ربه أن يقسم له حياة كريمة في الدنيا، هي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب: بيان أنه-سبحانه وتعالى-لم يكلف إلا ما يطاق، (رقم ١٢٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، (رقم ٢٠٤٥)، والحاكم في المستدرك، (٣/٤٩٦)، (رقم ٢٨٤٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب: الطلاق في الإغلاق والمكره، (رقم ٥٢٦٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر، (رقم ١٢٧).

مرضاة الله، وحياة كريمة في الآخرة، هي الجنة.

- أن رحمة الله واسعة، لا حدود لها، وقد كتبها -جل ثناؤه- للمتقين عموماً، وخصوصاً للذين يؤمنون بآياته، ويؤدون الزكاة طيبة بها نفوسهم، ويتبعون رسوله، وفي هذا شرف عظيم لأُمة المسلمين؛ لكونهم يتصفون بهذا الوصف.
- بيان فَضْلِ تزكية النفس بعمل الصالحات، وإبعادها عن الذنوب.
- أنه خَصَّ الزكاة بالذِّكْرِ لأنَّ إيتاءها شاقٌّ على النفوس، ولما لها من أثر عظيم في إصلاح الفرد والمجتمع.
- وجوب الإيمان برسالة رسول الله -ﷺ-، وتصديقه، وتصديق الكتاب الذي جاء به، واتباع أحكامه.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

بيان الآية:

لما ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- أن صفة نبيه ورسوله محمد -ﷺ- مكتوبة في التوراة والإنجيل، كما هي في القرآن، أمره الله أن يبين للناس صفته:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: قل يا محمد للناس: إنك رسول الله إليهم: كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم، أبيضهم وأسودهم وأحمرهم، وغنيهم وفقيرهم.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم: إن الذي بعثني إليكم هو مالك السماوات والأرض، وأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: آمنوا بالله ربكم وخالقكم، وآمنوا برسوله الذي وجدتم صفته في التوراة.

﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أي: الذي بعثه الله وهو لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يحسب ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يصدق بالله وكتابه، وأنه الخالق الإله الحق ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: سيروا على طريقه، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تفلحون في دنياكم وأُخراكم.

أحكام وفوائد الآية:

- أن رسالة رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عامة لكل الناس: ذكرانهم وإناثهم، وعربهم وعجمهم، وأبيضهم وأسودهم، وهذا يقتضي حكماً أنَّ على جميع العباد من الجن والإنس الإيمان برسالته، وتصديقه، واتباع

ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، فمن ابتغى سبيلاً غير سبيله فقد ضل سواء السبيل.

- أن في وَصْفِه-ﷺ-بالأُميَّة مرتين إشارةً إلى صدق نبوته، والتنويه بما فتح الله له من أبواب العلم، وعَلَّمه ما لم يكن يعلم.

- أن هدايةَ الإنسان فرداً أو جماعة أو أُمة إلى الكمال والسعادة، متوقفةٌ على اتباع النبي محمد-ﷺ-.

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩
وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ
ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا
عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ
وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ
هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ
سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾.

بيان الآيات:

لما ذكر الله ما كان من بني إسرائيل من عبادة العجل، وطلبهم من نبيهم موسى رؤية الله جهراً، وما كان منهم من العصيان، استثنى الله منهم قوماً صالحين، فقال-عزَّ ذكره-: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ أي: من أصحاب موسى طائفة.

﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مهتدون في أنفسهم باتباعهم للحق الذي جاء به نبيهم، ويهدون به غيرهم ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يحكمون بالقسط.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾أي: جعلناهم قبائل ﴿أُمَمًاۚ﴾ وصف للأسباط، وقد سبق ذكر ذلك في سورة البقرة، وهذا تذكير بما أنعم الله به على بني إسرائيل من سقيهم من العيون التى تفجرت لهم، وتظليل السحاب عليهم، وإنزال المن والسلوى عليهم، ثم أشار الله-عَزَّوَجَلَّ-إلى أن الذين ظلموا منهم بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، أي: لما قيل لهم ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ قالوا: حبة في شعيرة؛ استهزاء بما قيل لهم.

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ دخلوا متوركين على أستاههم، وقد سبق ذكر ذلك في سورة البقرة.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير أن من أسلاف بني إسرائيل طائفة مؤمنة حكمت بالعدل، واتبعت الحق الذي جاء به موسى-عليه السلام-، وهذا الوصف قائم لتلك الطائفة في زمانها فحسب، أما بعد ختم الرسالات برسالة رسول الله محمد-ﷺ-فلا يوصف أحد بالإيمان إلا من كان متبعاً لهذه الرسالة وصاحبها.
- إنصافُ الله-تعالى-في كتابه لِمَنْ يستحق الإنصاف من الناس، فقد بَيَّنَ-جلَّ وعلا-أنَّ في قوم موسى الصالحَ والطالحَ، وتلك هي العدالة في القول والحكم التي يحتاج إليها الناس في كل زمان ومكان.
- أنَّ الله-تعالى-لا تَضُره معصية عاصٍ، ولا يُنْقِصُ خزائنه ظلم ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد في ملكه عَدْلُ عادل، بل نَفْعُ ذلك للعباد، وضَرَره على مَنْ ظلم وطغى.
- أن من بدلَّ ما أنزل الله من الأحكام يعد ظالماً متبعاً لهواه، ويكون عرضة لعذاب الله.

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا

تَأْتِيهِمْۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ١٦٣ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ
لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ قَالُواْ مَعْذِرَةً
إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا
ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا
كَانُواْ يَفْسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾.

بيان الآيات:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: اسأل يا نبينا محمدًا! اليهود الذين عندك في المدينة عن أسلافهم أهل القرية ﴿ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: على ساحله، وهي أيلة، وتسمى حالياً إيلات، من قرى فلسطين التي اغتصبها اليهود.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يعتدون يوم السبت بصيد الحيتان، مع أن الله حرم عليهم الصيد في هذا اليوم.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: تأتيهم في هذا اليوم طافية على الماء ظاهرة لهم، فيسوقونها إلى حياض أعدت لها، فتجتمع فيها، ويأخذونها يوم الأحد.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ﴾ أي: أنها تختفي بقية الأيام.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نختبرهم بإظهار الحيتان لهم يوم السبت المحرم عليهم الصيد فيه ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ المراد: أن هذا حدث لهم جزاء كفرهم، وعصيانهم، وجرأتهم على ارتكاب ما حرم الله عليهم.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: قالت طائفة لأخرى منهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ أي: كيف تعظون هؤلاء وهم قد عصوا الله بصيدهم يوم السبت، فاستحقوا العذاب بسبب عصيانهم؟ ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: فعلنا ما فعلنا من وعظهم حتى يكون ذلك عذراً لنا عند الله ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: وعظناهم لعلهم يتقون الله بالتوبة من ذنوبهم، والمعنى: أن هناك ثلاث طوائف من بني إسرائيل: طائفة ارتكبت المعاصي حين خالفت أمر الله بالصيد يوم السبت، وطائفة نهتها عن هذا الفعل، وطائفة تركتها، فلم تنهها، فقالت هذه للتي نهت مرتكبة المعصية: لماذا تعظون قوماً الله مهلكهم؟، فردّت هذه بأن النهي عن المنكر واجب علينا، وقمنا به ليكون عذراً لنا عند الله، ومن جهة أخرى أردنا منه نصح هؤلاء العصاة، لعلهم يتقون الله بالتوبة إليه.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي: لما نسي العصاة وعظ الواعظين ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أي: نجيناهم من العذاب بسبب نهيهم عن المنكر ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ أي: عاقبنا العاصين بعذاب بئيس أي: شديد ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ أي: بسبب ما ارتكبوه من المعاصي، وثبت عن ابن عباس-رضي الله عنهما-أنه قال: «يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ﴾ قال عكرمة: فقلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم، وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾؟، فلم أزل به حتى عرفت أنهم قد نجوا»(١)، وثبت عن الحسن: «نجت فرقتان، وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان»(٢).

﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي: أنهم لما تمادوا في معصية الله بصيدهم الحيتان في اليوم الذي حرم الله عليهم صيدها فيه قلنا لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي: كونوا قردة مطرودين حقيرين، كما أخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس-رضي الله عنهما-، قال: «لما مرد القوم على المعصية ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾،

---

(١) تفسير عبد الرزاق، (٢/ ٩٦)، (رقم ٩٥٣)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٦/ ٩٤).
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٦/ ٩٥)، والجامع لأحكام القرآن، (٧/ ٣٠٧).

فصاروا قردة لها أذناب، تعاوى بعدما كانوا رجالاً ونساء»[(١)].

وانظر قصة المسخ في سورة البقرة آية (٦٥-٦٦).

أحكام وفوائد الآيات:

- تكريم الله لنبيه ورسوله محمد-ﷺ-بما أوحى إليه عن حال أسلاف بني إسرائيل، وابتلائهم بسبب فسقهم وعصيانهم، وفي هذا توكيد لنبوته ورسالته-عليه الصلاة والسلام-، وهو يحاجّ اليهود في المدينة، ويرد على أباطيلهم وتكذيبهم له.
- استدلَّ العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الحيل التي يَتَّخِذُها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة.
- أنه إذا أنعم الله على أُمةٍ نعمةً، ثم أعرضَتْ عن شكرها، تَعَرَّضت للبلاء والعذاب.
- إطلاق لفظ السوء على المعصية؛ لبيان أنَّ المعصية-مهما كانت صغيرة-تُحْدِثُ السوء في نفس فاعلها، وفي مجتمعه.
- فضيلة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا أعرضت أُمة أو طائفة عن المعروف وجب أمرها باتباعه، فإن قبلت ما أمرت به نجت، وإن تولت هلكت، وحينئذٍ ينجي الله الآمرين لها بالمعروف،

---

(١) التفسير، (١٣/ ٢٠٣).

والناهين لها عن المنكر.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ
سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾
وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ
وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ
وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ
عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا
فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ
﴿١٧٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم أو تعهَّد، كما أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: «أمر ربك»(١).

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾

(١) التفسير، (١٣/ ٢٠٤).

والمراد: أن الله أمر رسوله أن يقول لليهود: إن الله أعلم أنه سيبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، وهذا ما حدث لهم بالفعل، فقد تعرضوا للعذاب والإهانة من قبل اليونانين، والكلدانيين، والرومان، والأسبان، والنصارى، وآخر ذلك ما حدث لهم مع الألمان في الحرب الكونية الثانية، مما هو معروف في التاريخ الحديث، وما كان ذلك إلا بسبب مكايدهم وعصيانهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، سواء هم أم غيرهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر ويرحم من يتوب إليه من عباده، وعلى هذا إذا تاب اليهود من معاصيهم، وأنابوا إلى الله، ودخلوا في دينه الذي ارتضاه لعباده؛ أصبحوا ممن يشملهم الله برحمته ومغفرته، مثلهم في ذلك مثل عباده الآخرين.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًاۖ﴾ أي: فرقناهم في الأرض طوائف، وهذا هو ما حدث لهم بالفعل، فهم إلى اليوم متفرقون في أنحاء الأرض قلة أو كثرة، فمنهم طائفة في الهند، والصين، وروسيا، وأوربا، وفي بلاد المسلمين، وأكثرهم يتجمعون في أمريكا، وفلسطين بعد أن غزوها بسبب ضعف المسلمين، ومما تجدر الإشارة إليه: أن من اليهود من دخل في دين الإسلام إيماناً وتصديقاً به، فأصبح هذا الدين دينه

وجنسه، فلم يعد يهتم بأصله اليهودي، كما أن منهم ممن بقي على يهوديته، وهم الذين تجمعوا في فلسطين بعد أن تركوا البلاد العربية والإسلامية التي كانوا فيها، ويسمون باليهود الشرقيين، وقد أشير من قبل إلى أن هناك طوائف جاءت إلى فلسطين من الخزر وأوربا وغيرها بعد أن استحوذت الصهيونية على أفكارهم، وألبستهم صفة اليهودية، وجندتهم لخدمتها، وهؤلاء يسمون اليهود الغربيين، ويعدون أنفسهم أكثر علوًّا ومقاماً من اليهود الشرقيين.

وقوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المراد: من آمن منهم بالإسلام، وأقرَّ برسالة رسول الله محمد-ﷺ-منذ عهدها الأول، كعبد الله ابن سلام ومن معه إلى يومنا هذا، حيث يوجد منهم مسلمون صالحون.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: الكافرين منهم ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾ أي: اختبرناهم بسائر النعم ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الشدائد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يتوبون إلى الله من معاصيهم.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جاء بعد اليهود الذين تفرقوا في الأمصار ذريتهم ممن كان منهم في المدينة، وهؤلاء ورثوا التوراة منهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي:

يأخذون ما يعرض لهم من الدنيا، ولو كان حراماً كالربا ونحوه ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: يتقولون على الله بأنه سيغفر لهم معاصيهم ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: من شدة طمعهم وحبهم للدنيا لا يتورَّعون عن الحرام.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ المراد به: التوراة التي بأيديهم، وما فيها من الأحكام التي توجب عليهم ألا يحلُّوا ما حرَّم عليهم من المكاسب الخبيثة، وأن يبينوا ما فيها من الحق، كما قال-تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قوله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: قرؤوا ما فيها من المواعظ ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ في هذا تذكير من الله لهم أن الآخرة خير للذين يتقون الله بطاعته، وترك معاصيه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتفكَّرون وتعلمون أن الآخرة خير لكم من طمع الدنيا وشهواتها؟.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الذين يؤمنون بما جاء في التوراة من وجوب الإيمان والتصديق برسالة رسول الله محمد-ﷺ-

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوها ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

أي: لا نضيع أجرهم، بل نجزيهم عليه بالإحسان.

أحكام وفوائد الآيات:

- في الآية (١٦٧) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الله -عَجَّلَ- سيبعث على الفاسقين من اليهود مَنْ يذيقهم سوء العذاب والإذلال إلى يوم القيامة.
- أن الطمع في متاع الحياة الدنيا من أسباب الهلاك، فقد جعل بني إسرائيل يقولون على الله غير الحق، ويتشبَّعون من المال الحرام بدون تعفُّفٍ، ويبيعون دينهم بدنياهم، ولذلك أطبق أهلُ الحقِّ على ذَمِّ المتمنِّي على الله.
- أنه خَصَّ الصلاة بالذِّكر مع دخولها فيما قبلها إظهاراً لمزيتها؛ لكونها عماد الدين، وناهية عن الفحشاء والمنكر.
- أن اللهَ بَعَثَ رُسَلَه بصلاح الدارَين، فكل مَنْ كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم.
- أن الله بيَّن في هذه الآيات أحوال بني إسرائيل في عدَّة أحكام:

أولها: تعرضهم للعذاب، وقد حدث هذا لهم على مر التاريخ.

وثانيها: تفرقهم أشتاتاً في البلدان، وهذا معروف ومشهود.

وثالث الأحكام: ابتلاء أسلافهم بالنعم والشدائد.

ورابعها: تقرير أن منهم صالحين، ومن ذلك على سبيل المثال: عبد الله بن سلام ورفاقه، وكل من أسلم وآمن منهم على مر التاريخ، فيشمله هذا الوصف.

وخامسها: أن منهم كافرين، وهم الذين لم يدخلوا في دين الإسلام.

وسادسها: أن من اليهود الذين كانوا في المدينة زمن رسول الله-ﷺ-من كان يرتكب الحرام، كالربا، والرشا، رغم تحريم ذلك عليهم في كتابهم.

وسابع الأحكام: أن من آمن منهم برسالة رسول الله-ﷺ-، وبالقرآن الذي أنزل عليه، فإن الله لن يضيع أجره.

﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾.

بيان الآية:

﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾ أي: رفعناه فوق رؤوسهم، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤].

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ أي: كأنه سحابة تظلهم، والظلة اسم لكل ما أظل

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ أي: ظنوا أن الجبل سيقع عليهم؛ ذلك أنهم لما أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة، ورفع الله جبل الطور على رؤوسهم؛ ليقبلوها بما فيها أو يقعَ على رؤوسهم، فلما نظروا إلى الجبل خروا سجدًا على حواجبهم اليسرى، وكل منهم ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً من سقوطه عليه، ويقول اليهود: إن سجدتهم تلك هي التي أزالت عنهم العقوبة، ويقولون: إن موسى لما نشر الألواح التي فيها التوراة اهتز لها الجبل، والشجر، فلهذا عندما يقرؤونها نراهم يهتزون.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ أي: قال الله: خذوا ما في كتابكم، واعملوا بما فيه من الميثاق ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي: تذكروا دائماً ما فيه من أوامر الله ونواهيه لكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: إذا أخذتموه على هذا الأساس لعلكم تتقون الله.

أحكام وفوائد الآية:

- العجب من أمر بني إسرائيل في عدم قبولهم أحكام التوراة إلا بعد أن رفع الله الجبل فوق رؤوسهم، فلما رأوا أنه واقع بهم لا محالة سجدوا لله خوفاً من سقوط الجبل عليهم، وهذا يقتضي أن من الإنسان من لا تنفع فيه المواعظ وحدها، وإنما ينفع فيه التهديد

والوعيد، واستخدام القوة ضده.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ أي: اذكر يا نبينا محمدًا! لليهود وغيرهم حينما أخذ ربك ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي: أخرجهم من أصلابهم، وأخذ عليهم الميثاق.

وفي هذا قال رسول الله -ﷺ-: «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟، قال: نعم!، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: ألا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، (رقم ٣٣٣٤)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا، (رقم ٢٨٠٥).

﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ أي: دلَّهم على عظمته وخلقه لهم، حتى شهدت بذلك نفوسهم.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ أي: نعم! أنت ربنا، أقررنا بربوبيتك ووحدانيتك وعظمتك ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: تنكروا ذلك يوم القيامة، وتقولوا: إنا كنا غافلين .

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: تقولوا يوم القيامة: لقد أشرك آباؤنا من قبلنا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ أي: اتبعناهم كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-على لسانهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ استفهام إنكاري منهم، معناه: كيف تهلكنا بسبب أعمال المبطلين، فهم الذين تركوا لنا الشرك؟.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: نبيِّن لهم الآيات ونوضحها

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ عن إشراكهم مع الله غيره.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله أخذ على بني آدم العهد وهم في أصلابهم بأنه ربهم ومليكهم، وأنه لا رب إلا هو، ولا إلَه يعبد بحق إلا هو، وأنه المتصرف فيهم،

وقيل: المراد أنه أخذ هذا العهد على أبيهم آدم، فيكون هذا العهد ملزماً لهم، وقد يكون المراد أنه أخذ العهد عليهم جميعًا، كما ورد في حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة..الحديث»[١]، وهذا هو الأصح؛ لأن قدرة الله وعظمته لا تحد بحدود، ولا توصف بوصف، فهو يقول للشيء: كن فيكون، فهذه الذرَّة الحمراء الصغيرة التي لا تكاد ترى بالعين، تسير بنظام، وتعيش بنظام، فلا يسيرها، ولا يعلم أسرارها وخفاياها إلا الذي خلقها، وكوّنها، فجل ثناؤه، وتقدست أسماؤه وصفاته.

- الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيتَه-تعالى-معرفة فطرية، ولكنَّ الفطرة قد تتغيَّر، وتتبدَّل.
- أن الكافر كَفَرَ مرتين: كَفَرَ بالعهد الذي أُخذ عليه وهو في عالم الذَّرِّ، وكَفَرَ بالله مرة أخرى، وهو في عالم الشهادة، والمؤمن آمن مرتين.
- أن الله يفصّل الآيات، ويبيّنها لعباده؛ لتكون هدى لهم إلى الطريق الذي يوصلهم إلى مرضاته.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة الأعراف، (رقم ٣٠٧٦)، وصححه، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾.

بيان الآيات:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: اقرأ يا نبينا محمدًا! على قومك ومن اتبعك ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ قيل: إنه بلعام بن باعورا الكنعاني أيام موسى[١]، وقيل: نزلت في أُمية بن أبي الصلت الثقفي[٢]، وقال فيه رسول الله: «آمن شعره، وكفر قلبه»[٣].

وقد جمع الحسن البصري بين القولين، فثبت عنه أنه قال: «هذا

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت عن ابن عباس، وينظر: زاد المسير لابن الجوزي، (ص٥٢٨).

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره، (١/٥٠٨)، وصححه ابن كثير، وذكر الحافظ ابن حجر: رواية ابن مردويه بإسناد قوي، الفتح، (٧/١٥٤).

(٣) أخرج مسلم في أول كتاب الشعر، (رقم ٢٢٥٥) قوله-ﷺ-: «لقد كاد يسلم في شعره».

مثل ضربه الله لمن عُرض عليه الهدى، فأبى أن يقبله، وتركه»[1].

﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: نزع الله منه العلم الذي آتاه لقاء حسده وكفره ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: لحق به، فكان من أوليائه وأعوانه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ الضالين.

ولعلَّ القول الأول هو الأصح، وأيًّا كان اسمه فالمراد أنه أوتي علماً، فانسلخ من علمه بعد أن أضلَّه الشيطان ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه إلى منازل الصالحين بتلك الآيات التي أوتيها ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: رغب في الدنيا، وترك الآخرة ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ أي: لم يحتكم ويعمل بما آتاه الله من العلم، وإنما اتبع هواه، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ أي: صفته في الدناءة والمهانة مثل الكلب ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ فمن آتاه الله علماً، ولم يعمل به، وإنما اتبع هواه؛ فهو ضال، سواء أنصحته أم لم تنصحه، مثله في ذلك مثل الكلب في لهثه في حال سيره أو وقوفه.

---

(١) التفسير، (١٠/٥٨٧).

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ أي: ومثل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها كمثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فكانوا من الغاوين الضالين .

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: قص هذا القصص يا نبينا محمدًا! على بني إسرائيل وغيرهم ممن يكذب بآياتنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعقلون، فيحذروا من تكذيبك ومعاداتك ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ أي: قبح مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا؛ لكونهم مثل الكلاب التي لا غاية لها ولا هدف ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: أنهم ظلموا أنفسهم بتكذيبهم آيات الله، أما الله فحاشاه أن يظلمهم.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ وَمَن يُضْلِلْ﴾ المراد: أن الله-جلَّ وعلا-يهدي المهتدين الذين آمنوا به، وصدقوا رسله، وآخرهم وخاتمهم محمد-ﷺ-، ويضل الذين ضلوا في أنفسهم، فلم يستجيبوا لنداء الله ونداء رسله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

أحكام وفوائد الآيات:

- أن الله قد يمنح أحد عباده علماً وحكماً؛ ليعلم-وهو العليم-إن كان يشكر أم يكفر، فإن شكر زاده علماً وحكماً، وإن اتبع هواه أعرض عنه، فتتولاه عندئذٍ الشياطين، فيصبح من الغاوين الضالين، وتكون

صفته في الدناءة والمهانة مثل الكلب الذي يلهث في سيره ووقوفه.

- أن في التعبير بقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مبالغةً في ذمِّ هذا الإنسان وتحقيره، وجعله كأنَّه إمام للشيطان، والشيطان يتبعه.

- أن اتِّباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخِذْلان.

- إفراد المهتدي للإشارة إلى أنَّ سبيل الهداية لا يتعدد، وجمع الثاني- وهو قوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾-للإشارة إلى تَعَدُّد أنواع الضلال، وتنوُّع وسائله وأساليبه.

- أن الهداية بيد الله، فلْيَطْلبها مَنْ أرادها من الله بصدق القلب، وإخلاص النية، فإنَّ الله-تعالى-لا يحرمه منها، ومَنْ أعرض عن الله أعرض الله عنه.

- أن أسوأ الأمثال يضرب للذين يكذبون بآيات الله، ويظلمون أنفسهم بتكذيبهم لها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾.

بيان الآية:

لما ذكر الله-تعالى-أنه نتق الجبل على بني إسرائيل، وأنه أخذ من

بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم، ثم أمر نبيه أن يقص على اليهود قصة الذي آتاه الله آياته، فانسلخ منها؛ قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا، كما ثبت عن ابن عباس في رواية الطبري ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا ينتفعون بها ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي: لا يفرقون بها بين الصدق والكذب، والهدى والضلال ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ أي: لا يسمعون ما يتلى عليهم من الذكر والمواعظ بسبب ما انطبع على قلوبهم، وأبصارهم، وأسماعهم من الضلال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: مثلهم مثل الأنعام التي لا تعقل، ولا تعرف إلا الأكل والشرب، بل هم أضل منها؛ لأن الله جعل لهم عقولاً وأبصاراً وأسماعاً؛ ناهيك أن الأنعام تعرف مصالحها، فتجتنب الأخطار، وتنأى عنها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي: الذين نسوا ذكر الله ومواعظه، فأنساهم أنفسهم.

أحكام وفوائد الآية:

- أن الآدمي يهبط إلى دَرَكٍ أَهْبَطَ من دَرَكِ الحيوان، وذلك عندما يكفر بربه، ويُعَطِّلُ حواسه عن الانتفاع بها، ويقصر همَّه على الحياة الدنيا.

- بيان أنَّ البلاء كامن في الغفلة عن آيات الله، والإعراض عنها.
- أن الله خلق لجهنم كثيراً من الإنس والجن؛ ذلك أنه -عَجَلَّ- أنعم عليهم بقلوب يعقلون بها، وأنعم عليهم بأبصار يبصرون بها، وآذان يسمعون بها، ولكنهم لم يستخدموها لفهم ما كتب عليهم من طاعته، وإنما استخدموها في معصيته، فأصبحوا من الخاسرين.
- أن مثل من يستخدم ما أنعم الله به عليه من الحواس في معصيته مثل الحيوان الذي لا يعقل، بل هو أضل منه.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾.

بيان الآية:

قوله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: أن له -جلَّ وعلا- أحسن الأسماء وأجملها؛ لما فيها من تقديسه وتعظيمه، وفي حديث أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر، يحب الوتر»[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: لله مئة اسم إلا واحداً، (رقم ٧٣٩٢)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب: في أسماء الله -تعالى- وفضل من أحصاها، (رقم ٢٦٧٧).

وأسماؤه-عَزَّوَجَلَّ-ليست محصورة في هذا العدد، بل هي أكثر من ذلك، ففي حديث ابن مسعود-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-أن رسول الله-ﷺ-قال: «ما أصاب أحدًا هَمٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي؛ إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدل مكانه فرحاً»[1].

فقوله: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك» دلَّ على أن لله أسماء استأثر بها عنده، فلا يعلمها أحد من خلقه.

قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ أي: اسألوه بها، على أن يكون السؤال عن الشيء متفقاً مع الاسم القدسي المناسب له، فيقول السائل: يا هاديْ اهدني بهداك، ويا رحمن ارحمني برحمتك، ويا فتاح افتح لي أبواب رحمتك، وهكذا، أو يدعو بالاسم العام: يا ألله.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ الإلحاد في أسماء الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٧/٣٤١)، (رقم ٤٣١٨)، وأبو يعلى في مسنده، (٩/١٩٨)، (رقم ٥٢٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١/٣٨٣)، (رقم ١٩٩).

يكون بالتحريف فيها، كما فعله المشركون العرب، حين سموا بها أوثانهم وأصنامهم، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، وقد ذكر ذلك ابن عباس(١)، أو يكون بالزيادة فيها كمن يأتي باسم لله من عنده، دون أن يكون له سند من قرآن، أو سنة، أو يقلل من أسمائه -عَزَّوَجَلَّ-، أو تصغيرها، أو العدول بها عن معناها: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: سيجازي الله الذين يلحدون في أسمائه بما يستحقونه من العذاب.

أحكام وفوائد الآية:

- وجوب دعاء الله بأسمائه الحسنى التي ورد بيانها في الأثر، ويجوز الدعاء بأسماء الله التي استأثر بها في علم الغيب عنده.
- تحريم الإلحاد في أسماء الله، سواء بتحريفها أو تأويلها أو زيادتها بما لا يتفق وقدسية الله وعظمته.
- تقرير العذاب للذين يلحدون في أسماء الله وصفاته.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ
كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا

---

(١) تفسير البغوي، (ص ٥٠٤)، وزاد المسير لابن الجوزي، (ص ٣٥٠).

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ
حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ
فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

بيان الآيات:

لما ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- أنه جعل في جهنم كثيراً من الجن والإنس قال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ أي: ممن خلقنا من الأُمم أُمة ﴿يَهْدُونَ﴾ أي: يتبعونه، ويدعون إليه.

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يحكمون ويقضون به، وفي هذا روى معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة»[١]، وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[٢].

كما روى عمران بن حصين أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «لا تزال طائفة

(١) أخرجه البخاري في كتاب؟؟؟، باب؟؟؟، (رقم ٣٦٤١).

(٢) أخرجها مسلم في كتاب الإمارة، باب: قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق، لايضرهم من خالفهم»، (رقم ١٠٣٧).

من أُمتي ظاهرين على الحق على من ناوأهم، حتى يأتي أمر الله، وينزل عيسى -عليه السلام-»[١].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المراد بهم: المشركون والكافرون ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: نسبغ عليهم النعم في أنفسهم وأموالهم وذرياتهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من حيث لا يشعرون، حيث يظنون أن هذه النعم تدوم لهم، وأن تكذيبهم بآيات الله لن يضرهم، ثم يأخذهم الله وهم على غفلة، كما قال -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم وقتاً أطول ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: إن مكري شديد ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أي: لم يعقلوا ويتدبروا ما جاءهم من البينات؟.

﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ هذا إنكار وتكذيب لقولهم: إن محمداً مجنون، كما قال الله -عز وجل- على لسانهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: دوام الجهاد، (رقم ٢٤٨٤)، والإمام أحمد في المسند، (٨٣/٣٣)، (رقم ١٩٨٥١)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر:٦]، وقيل: إن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله -ﷺ- قام على الصفا، فدعا قريشاً بأسماء أفخاذهم وبطونهم قائلاً: يا بني فلان!، يا بني فلان!، قوموا إلى عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به. وكان يحذرهم مما قد يحيق بهم من العذاب إن لم يقبلوا رسالة الله إليهم، فكانوا يقولون: إن صاحبكم هذا مجنون، بات يصوت إلى الصباح[1].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: لم يكن كما تدعون وتكذبون، بل هو نذير لكم من العذاب إذا استمررتم على شرككم ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أو لم يتدبر هؤلاء المكذبون بآيات الله في صنعه وخلقه للسماوات بغير عمد يرونها، وخلقه للأرض وما فيها من البحار والأنهار؟ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: من الآيات الدالَّة على قدرته وأنه الواحد الذي لا شبيه له، ولا ند له، ولا نظير، وأن ما عداه مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا.

﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ أي: ولم يتدبروا في آجالهم التي قد تكون قد اقتربت، فأصبحوا في عداد الموتى الذين لا ينفعهم إلا ما قدموه من عمل صالح ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت عن قتادة، لكنه مرسل، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (١٣/ ٢٨٩)، تفسير البغوي، (ص٥٠٤).

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بما جاءهم به محمد -ﷺ- من القرآن والبينات، فلن يؤمنوا أبداً ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ أي: من يضله الله بسبب إعراضه عن ذكره فلن يهديه أحد ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يترك الله المعرضين عن ذكره حيارى غير مهتدين.

أحكام وفوائد الآيات:

- الحكم بأنه سيكون ممن خلق الله أُمة ظاهرة منصورة، تعرف الحق، وتحكم به، لا يضرها من خالفها، ولا من عاداها، وهذه الأُمة هي الطائفة التي ذكرها رسول الله من أُمته.
- أن الله يستدرج الذين يكذبون بآياته -ومنها: كتابه العزيز- إلى أن يهلكهم.
- في الآية (١٨٢) إخبار عن أمر مستقبلي بأنَّ الذين كَذَّبوا بآيات الله سيفتح الله لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش في الدنيا؛ استدراجاً لهم حتى يَغْتَرُّوا بما هم فيه، ويعتقدوا أنَّهم على شيء، ثم يعاقبهم الله على غفلة من حيث لا يعلمون.
- إنكار الله على الذين كذبوا رسوله -ﷺ-، واتهموه بالجنون، والتوكيد على أنه سليم في عقله، وأنه أرسل نذيراً للإنس والجن.

- إنكار الله على المكذبين بسبب جهلهم، وعدم تفكرهم في قدرة الله في خلق السماوات والأرض، وكذلك عدم تفكرهم في اقتراب آجالهم.

- التعبير بـ«صاحبهم» للإيذان بأنَّ طُول مصاحبتهم له ممَّا يطلعهم على نزاهته عما اتهموه به، فهو-ﷺ-قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين سنة، كانوا يُلَقِّبونه فيها بالصادق الأمين، ويَعْرِفُون عنه أسمى ألوان الإدراك السليم، والتفكير المستقيم.

- أن من أهم وسائل الإيمان: النظر والتفكُّر في خلق السماوات والأرض، وما فيهما من الآيات العظيمة.

- أن من يعرض عن ذكر الله فلن يهديه أحد، ويذره الله في ضنك وحيرة من أمره، حتى يهلك، كما قال-عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا

عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «قال جَبَل بن أبي قشير، وشمول بن زيد لرسول الله -ﷺ-: يا محمد! أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا كما تقول، فإنا نعلم متى هي؟، فأنزل الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾»[1] والمراد: يسأل المشركون عن الساعة، ليس إيماناً بها، أو توقاً إليها، بل تساءلوا في حال من إنكارهم لها.

﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ أي: يسألون عن منتهاها وقيامها، كما ثبت عن قتادة في رواية الطبري ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ هذا أمر من الله

---

(١) التفسير، (١٣/٢٩٢).

لنبيه محمد -ﷺ- أن يقول لمن سأله عنها: إنما علمها -أي: قيامها- عند ربي، وليس لأحد غيره علم بها ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي: لا يظهرها لوقتها إلا هو، فهو العليم بها وحده.

﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ والمراد: أن علمها كما خفي عليَّ وعلى الأنبياء من قبلي فقد خفي على أهل السماوات من الملائكة، وعلى أهل الأرض كلهم، كما أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن السدي قال: «خفيت في السماوات والأرض، فلم يعلم قيامها متى تقوم؟ ملك مقرب، ولا نبي مرسل».

﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ هذا توكيد أنها لا تقوم إلا في حال فجأة، ولكن لها علامات لا تقوم إلا بعد ظهورها، وفي هذا روى أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾[1]، ولتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله -تعالى-: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾، (رقم ٤٦٣٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، (رقم ١٥٧).

لقحته، فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه، فلا يطعمها»(١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾ أي: كأنك ملح في السؤال عنها، كما ثبت في رواية الطبري عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم أنه قال: «كأنك بها عالم، وقال: أخفى علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]»(٢).

﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا نبينا محمدًا! لمن سألك عنها: إن علم قيامها عند الله وحده .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن الله هو المختص بعلمها وحده .

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ أي قل: يا نبينا محمدًا! لمن سألك عن الساعة، أو عن أي أمر من أمور الغيب: إنني بشر، وعبد من عبيد الله، لا أرد عن نفسي ضرًّا، ولا أملك لها نفعًا، كما قال-عليه الصلاة والسلام-: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: طلوع الشمس من مغربها، (رقم ٦٥٠٦)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (رقم ٢٩٥٤).

(٢) التفسير، (١٠/ ٦١٤).

عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[١] .

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا ما شاء الله أن يعطيني ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير في أمر الدنيا، كالنصر في الحرب، وفي أمر الآخرة بزيادة العمل الصالح.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي: لو كنت أعلم الغيب لعرفت متى يكون النصر؟، ولما غلبت في الحرب كيوم أُحد ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: لست إلا نذيراً للعالمين الذين يكذبون بآيات الله، فأنذرهم سوء عملهم، وما سوف يحيق بهم من العذاب، كما أني بشير للذين آمنوا بالله، واتبعوا ما جاءهم به رسوله؛ بأن لهم الجنة، وأنه لا خوف عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن علم الساعة عند الله وحده، وأن أحداً من أهل السماوات والأرض لا يعلمها.

- أن مَنْ لا يتعظ بالقرآن وبما فيه من الزواجر والعِظات والعبر لا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: قوله-تعالى-: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، (برقم ٣٤٤٥).

يتعظ بغيره.

- أن الساعة لا تأتي إلا بغتة، ولكن لها أشراط وعلامات تكون مقدمة لاقترابها، كخروج الدابة والدجال.

- أن الله أطلق على يوم القيامة ساعةً لوقوعه بغتة، ولسرعة ما فيه من الحساب، ولأنَّه على طوله قَدْرٌ يسير عند الله.

- أن رسول الله -ﷺ- بشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا، فالنافع والضار هو الله وحده، وهذا يقتضي حكماً بطلان عمل من يطلب النفع أو دفع الضر من الرسل أو الأولياء والصالحين أو غيرهم، فهذا شرك محبط لعمل صاحبه، بل هو مخلد في النار إذا مات، ولم يتب منه.

﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: آدم، كما ثبت عن

قتادة في رواية الطبري ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء؛ لكي يأنس ويألف بها، ولتسكن به وتألف به، وبنحوه ثبت عن قتادة كما في رواية الطبري، وكما قال-تعالى-: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الروم:٢١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: واقعها ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ المراد به حمل الولد في بدايته؛ لأنه يكون خفيفاً ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ أي: استمرَّت بالحمل ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ أي: صار الحمل ثقيلاً بحكم مرور الوقت عليه ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: دعا آدم وحواء ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ أي: بشرا سويًّا في خلقته ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: شاكرين لك بما أنعمت به علينا بشراً سويًّا.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ ليس المراد بأن آدم وحواء هما اللذان جعلا له شركاء؛ إذ لا يعقل أنهما أشركا بالله بعدما جاءهما الولد، ومن قال ذلك فقد أخطأ في قوله، وإنما المعنى راجع إلى المشركين من بني آدم، وليس إلى آدم وزوجه، كما ثبت عن الحسن البصري في رواية الطبري، وكما قال رسول الله-ﷺ-: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو

يمجّسانه»[1].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: تقدَّس وتنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: المشركون من بني آدم، وهذا يدل على أنهم المرادون من قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾؛ لأنه قال: يشركون، وهذا مراد به الجمع، ولم يقل يشركان.

أحكام وفوائد الآيتين:

- أن أصل الإنسان من آدم وزوجته حواء-عليهما السلام-، وأن الزوج يسكن إلى الزوجة، وتسكن إليه.
- نفي الشرك عن آدم وزوجته، وعلى هذا فإن المشركين من ذرية آدم هم المرادون من قول الله-تعالى-: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾.
- أن المتأمِّل في الأسلوب القرآني يرى سموَّ القرآن في تعبيره، وأدبه في عرض الحقائق، فإنَّ أسلوبه يلطف ويدقُّ عند تصوير العلاقة بين الزوجين، فهو يَسُوقُها عن طريق كناية تتناسب مع جَوِّ السكن والمودة بين الزوجين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي، فمات: هل يصلى عليه؟، (رقم ١٣٨٥)، ومسلم في كتاب القدر، باب: معنى «كل مولود يولد على الفطرة»، (رقم ٢٦٥٨).

- أن ضَعْفَ الإنسان عند الحاجة ولُجوْءَه بفطرته إلى الله-تعالى-أكبر دليل على وجوب صرف العبادة لله وحده.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ أي: يعبدون أحداً لا يقدر على خلق شيء، كما قال-تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: أن ما يعبدونه من أصنام أو غيرها مخلوق ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: أن هذه الأوثان التي يعبدونها لا تحقق لمن يعبدها نصراً ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي: لايقدرون على نصرة أنفسهم بشيء؛ لأنها مجرد جماد أصم، لا تعقل، ولا تبصر، ولا تسمع ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إن تدعوا أصنامكم

وأوثانكم إلى ما فيه هدى لكم ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ﴾ المراد: أنهم لا ينفعونكم بشيء ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ جهاراً أم أنتم وقفتم عندهم صامتين، فهذه الأوثان جمادات لا تفعل شيئاً، فمن كانت هذه حاله هل يعقل أن يعبد من دون الله الذي خلق الخلق، وقَدَّر أرزاقهم وآجالهم، وهو القادر على نفعهم وضرهم؟.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير جهل المشركين وسفاهتهم في كونهم يشركون مع الله مخلوقين مثلهم، لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا غيرهم، ولا يملكون لها نفعاً ولا ضرًّا، فلما كانت هذه حالهم فمن المحال إذاً أن ينصروا أو ينفعوا غيرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ
فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ
أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ
يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ
وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧

وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ المراد: إن هؤلاء الأصنام الذين تعبدونهم هم عباد الله مثلهم مثلكم في خلقهم؛ لأن كل ما في الوجود من البشر والحيوان والجماد هو من خلق الله وصنعه، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال -عزَّ ذكره-: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي: اطلبوا منهم النفع ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنهم ينفعونكم، وفي هذا توبيخ وتسفيه لعقولهم واعتقادهم أن هذه الأصنام تنفعهم.

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ﴾ أي: هل لهذه الأصنام أرجل مثلكم؟ ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ﴾ أي: يتصرفون بها ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ أي: يرون بها الضوء من الظلام ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ

يَسۡمَعُونَ بِهَآۗ﴾ أي: هل يسمعون من يكلمهم؟، ففي هذا استفهام إنكاري على المشركين الذين يعبدون هذه الأصنام، وهي جمادات هامدة، لا يعبدها إلا من طبع الجهل قلبه، وأعمى بصره، فأصبح مثل هذه الجمادات.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ هذا أمر من الله لنبيه محمد-ﷺ-أن يقول للمشركين: ادعوا هذه الأصنام ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: كيدوني أنتم وأصنامكم ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لاتؤخروا كيدكم.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ أي: قل يا نبينا محمدًا! لهؤلاء المشركين: إن وليِّيَ الله الذي يتولاني-وهو حسبي وملاذي-، لا أتوكل إلا عليه، ولا ألجأ إلا إليه ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ أي: أنه الذي نزَّل القرآن ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: يتولى الصالحين من الأنبياء وكل صالح آمن به، وتوكل عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: إن الذين تدعونهم من دون الله من الأصنام والأوثان وغيرهم ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ أي: لا ينفعونكم بشيء، ولا ينفعون أنفسهم كذلك بشيء، إنما النافع والضار هو الله ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى

﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: إن دعوتموهم إلى الهدى ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أي: ترى هذه التماثيل تنظر إليك؛ لكون أعينها مفتوحة، ولكنها لا تبصر؛ لأنها جماد، فمن كانت هذه حاله فهل يعبد من دون الله؟، وقد يكون المراد: أنك يا نبينا محمدًا! ترى المشركين ينظرون إليك، ولكنهم لا يبصرون الحق.

أحكام وفوائد الآيات:

- تقرير جهل المشركين في كونهم يعبدون جمادات، لا تتوافر فيها أي صفة من صفات الحياة، فلا يعبدها إذاً إلا من ساء عقله، وعميت بصيرته.
- أن ولاية الله هي أعظم ولاية، فيجب على العبد أن يتوكل عليه، ويلجأ إليه.
- جواز المبالغة في التنفير من الباطل والشر، بذكر العيوب والنقائص.
- أن هذه الآيات الكريمة وَبَّخَتْ المشركين وآلهتهم أعظم توبيخ، وأثبتَتْ بالأدلة المنطقية الحكيمة، وبوسائل الحس والمشاهدة أنَّ هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرًّا، وفي الوقت نفسه فالآيات دعوةٌ لكل عاقل إلى أن يجعل عبادته لله الواحد القهار.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾.

بيان الآيتين:

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ هذا أمر من الله لنبيه ورسوله محمد-ﷺ-أن يعفو عمَّنْ ظلمه، ويصل من قطعه، ويعطي من حرمه ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ أي: مُرْ بالمعروف وكل ما فيه خير ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: السفهاء، فلا تُمارِهم، وكن حليماً عليهم، كما قال-عز وجل-في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان:٦٣]، وثبت عن عبد الله بن الزبير: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ قال: «ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس»(١).

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ ذكر الله-عز وجل-وجوب الإعراض عن الجاهلين، إلا أن ذلك لا يمنع وجود سفه وسوء أدب منهم، سواء لرسول الله-ﷺ-أو لأي أحد من أُمته، وما يحتمل مع هذا السفه أن تنشأ عند المرء حالة من الغضب بسبب سوء أدب الجاهل؛ أرشد الله نبيه ورسوله محمداً-ﷺ-وأُمته بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، (رقم ٤٦٤٣).

ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ أي: إذا تعرضت من الشيطان لنزغ أي: فساد، كالغضب، أو الوسوسة ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ أي: اتجه إلى الله بالاستعاذة منه، كما قال-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨]، وقال: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس: ١-٦].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يسمع ويعلم استعاذتك من الشيطان، ويعيذك منه، وفي هذا روى أبو هريرة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-أن رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قال: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول له: من خلق كذا؟، ومن خلق كذا؟، حتى يقول: من خلق ربك؟، فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله، ولْيَنْتهِ»(١).

ولما قال بعض الصحابة لرسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟»، قالوا: نعم! قال: «ذلك صريح الإيمان»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، (رقم ٣٢٧٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها، (رقم ١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها، (رقم ١٣٢).

أحكام وفوائد الآيتين:

- وجوب التحلي بالأخلاق الكريمة، ومن ذلك: كظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان إليهم، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ- في مستحقي الجنة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، ومن ذلك: البر بكل صوره، ومعاملة الناس باليسر، والعلاقة الحسنة.
- وجوب الإعراض عن الجهلة والسفهاء وذوي الأخلاق السيئة.
- أن النفوس حين تألف الخير لا تحتاج إلى مناقشة وجدال لتوجيهها.
- أن الإعراض عن الجاهلين من الحكمة في الدعوة، ومن ثمراتِه: تذليلُ نفوسهم، وترويضها.
- أن قوله-تعالى-: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ جامعٌ لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، وهو طريق قويم لكل ما تطلبه الإنسانية الفاضلة

لأبنائها الأبرار، وقد جاء في أعقاب حديث طويل عن أدلة وحدانية الله -تعالى-، وإبطال الشرك؛ لكي يُبَيِّن للناس في كل زمان ومكان أنَّ التحلِّي بمكارم الأخلاق إنَّما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد.

- وجوب التعوذ بالله من الشياطين وأعوانهم، والتعوذ من الوسواس وطغيان الغضب.

- أن التربية الإسلامية تعنى بتربية المسلم في كل أحواله: البنائية والوقائية والعلاجية، والاستعاذة تضمنت هذه الأحوال الثلاثة، فهي تبني فيه صحة العلم، وقوة الإرادة، ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وتحميه من مرض الشبهات والشهوات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا
هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾
وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٠٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أي: إن الذين آمنوا وصدقوا ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ كوسوسته، وإيهامه، وتخييله ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: استذكروا ثواب الله وعقابه.

﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ أي: دفعوا عنهم ما يكون الشيطان وسوس لهم به، هذا بالنسبة للمتقين، أما إخوان الشياطين فيكونون مدداً وتعضيداً للشياطين، وهو معنى قوله-تعالى-: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ .

﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ أي: لا يتوقفون عن إغوائهم ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ إذا لم تأت بآية تقرؤها عليهم ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ أي: أتيت بها من عندك.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أي: إني لا آتي بشيء من عندي، وإنما هو وحي من الله يوحيه إليَّ.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: هذا هو القرآن الذي جئت به إليكم دليل وبرهان على صدق ما أدعوكم إليه ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يعني: يهدي به الله من تدبره واتبعه، وأحل حلاله، وحرم

حرامه، وهو رحمة له في الدنيا، ورحمة له في الآخرة.

أحكام وفوائد الآيات:

- أنّ الشيطان لا يضر أهل التقوى؛ لأنه إذا وسوس لهم، أو زين لهم الباطل غلبوه بذكر الله وتقواه، فلا يستطيع أن ينفذ إليهم.
- أن التعبير عن الوسوسة بالطائف إشعار بأنَّها، وإن مَسَّتْ هؤلاء المتقين، فإنَّها لا تُؤَثِّر فيهم، كأنَّها طافَتْ حولهم دون أن تصلَ إليهم.
- أن إخوان الشياطين وأعوانهم يمدون الشياطين بالضلال.
- أن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، كما قال-عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ
بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾.

بيان الآيات:

لما ذكر الله-جلَّ ذكره-فضل القرآن، وما فيه من الهدى والرحمة

للمتقين؛ قال-تعالى-: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ أي: أنصتوا له في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة، وفي هذا روى محمد بن كعب القرظي: «أن رسول الله-ﷺ-إذا قرأ في الصلاة أجابه من وراءه، فإذا قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قال مثل قوله، حتى يقضي فاتحة الكتاب والسورة، فلبث في ذلك ما شاء الله أن يلبث، فنزلت هذه الآية»(١).

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربك يا نبينا محمدًا! وكل واحد من أُمتك ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: رغبة فيما عنده من الثواب، ورهبة مما عنده من العقاب ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يكن دعاؤك جهراً، وإنما دونه، وفي هذا روى أبو موسى الأشعري-رضي الله عنه-أن الناس رفعوا أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم رسول الله-ﷺ-: «يا أيها الناس! اربَعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، (٥/ ١٦٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: ما يكره من رفع الصوت عند التكبير، (رقم ٢٩٩٢)، ومسلم في كتاب الدعوات والتوبة، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، (رقم ٢٧٠٤).

﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ ﴾ أي: اذكر ربك أول النهار وآخره .

﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ أي: لا تكن ممن يغفل عن ذكر الله.

ولما ذكر الله وجوب ذكره وعدم الغفلة عنه مدح الملائكة، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ المراد: لا يتكبرون عن عبادته، بل هم مطيعون له، عباد له، كما قال -عَزَّوَجَلَّ-:

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠].

﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾ أي: يقدّسونه ويعظّمونه ﴿ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩ ﴾ إجلالاً وتعظيماً وتقديساً له.

أحكام وفوائد الآيات:

- وجوب الاستماع للقرآن عند قراءته، سواء الاستماع للإمام في الصلاة الجهرية، أو الاستماع له عند القراءة في أي حال، كسماعه من الإذاعة أو التلفاز أو نحو ذلك؛ لما في الاستماع له من مظنة الرحمة.
- أن الاستماع المأمور به يكون في الصلاة وفي غير الصلاة، فالآية تقتضي منَّا أن نستمع إلى القرآن بتدبُّر وإنصات وخشوع؛ ليكون

له تأثيره الشافي في القلوب، وليقودَها إلى الطاعة والتقوى، فتُنال المغفرة والرحمة.

- أن الذِّكْرَ والدعاء يكون في النفس؛ لأنَّ الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء، ويكون على سبيل التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير، مع إظهار الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية، ويكون دون الجهر؛ لأنَّه أقربُ إلى حسن التفكر، ويكون باللسان لا بالقلب وحده، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله.
- أن من فوائد ذِكْرِ قوة الملائكة وكثرتهم: أنَّ الله لا يريد أن يَتَكَثَّرَ بعبادتكم من قِلَّةٍ، ولا ليتعزَّزَ بها من ذِلَّة، وإنَّما يريد نَفْعَ الناس وفوزَهم.
- وجوب ذكر الله تضرعاً إليه، وأن يكون هذا الذكر سرًّا دون الجهر.
- التحذير من الغفلة عن ذكر الله، وقد مدح الله الملائكة؛ بسبب ذكرهم، وطاعتهم له، وتسبيحه، وتقديسه، وتعظيمه.

◈◈◈